سليم بركات

السّيرتان

دار الجديد

سليم بركات

السّيرتان

دار الجديد

الطبعة الأولى، ١٩٩٨

الجندب الحديدي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٠.

هلته عالياً، هاتِ النفير على آخره، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٢.

إنتاج وتنفيذ وتوزيع شركة دار الجديد ش. م. م. • صندوق بريد: ١١/٥٢٢٢ بيروت ـ لبنان • هاتف: ٥٠ ٩٨ ٧٣ ـ ٧١ ٨١ ٧٣ (٠١) • بريد إلكتروني: Aljadeed@cyberia.net.lb • نضد النص: سناء سلامي وجميلة هزيمة • ضبطه بالشكل وعلى أصوله: محمود عساف • انشاه كتاباً: علي حمدان • الخطوط الداخلية بريشة: علي عاصي.

نزيف الطَّبعة الثّانية

الوَقْتُ يَضيقُ، وٱلـمَكانُ يَتَّسِعُ: ذلكَ ما يُعَلِّمُكَ تأويلُ طفولَتِكَ. وٱلوَقْتُ يَتَّسِعُ، وٱلـمَكانُ يَضيقُ: ذلكَ ما يُعَلِّمُكَ ٱلواقِعُ حالِماً بِتَدْوينِ نَفْسِهِ كَشَقاءٍ عَذْب. وَبَيْنَ هذا التَّلقْينِ ٱلفائِضِ مِنْ عُمْرِكَ، وذاكَ، بٱخْتِصاصٍ في عُلومِ ٱلـمَكانِ وعُلومِ ٱلوَقْتِ، تَنْتَظِرُ أنْ تَفْرَغَ مِنْ نَفْسِكَ إلى عَبَثِها، وَقَدِ ٱكْتَمَلْتَ بِغَيْبوبَةٍ كٱلحَصادِ، وأرَّثْتَ ٱلقِدَمَ ٱلحالِمَ صَبْرَ يَقينِكَ الشَّيْخ.

لا طُفولَةَ إلّا في النِّسْيانِ. الـمُعْلَنُ مِنْكَ هُوَ هِبَةُ النِّسْيانِ، الـمُسْتَتِرُ مِنْكَ هُوَ هِبَةُ النِّسْيانِ. ما يَحْدُثُ لَكَ في شَفَقِ عُمْرِكَ ٱلأوَّلِ يَحْدُثُ هُناكَ، بَعيداً عَنْ أَمَلِكَ. وما يَحْدُثُ لَكَ في غَسَقِ عُمْرِكَ الثّاني يَحْدُثُ هُنا، بَعيداً عَنِ ٱليَقين.

كمالُكَ جَهالَتُكَ، يَقينُكَ ما تَخْتَبِرُ به النّارُ عذابَها، قَلَقُكَ

فِخاخُكَ ٱلمَقْذوفَةُ مِنْ كُهولَتِكَ إلى ما كُنْتَ تَزِنُ به نَفْسَك طِفْلاً يتهيَّأُ لمُشافَهاتِ ٱلعَبَثِ وإغْماءاتِه.

كَمْ تَتَجَرَّدُ طُفولَتُكَ مِنْ نَفَسِها لِتُؤاخِيَكَ، كَمْ تَعْتَرِضُكَ لتَنْجُوَ من حَماقَةِ ٱلخيالِ، ٱلَّذي يَصِفُ قَلْبَكَ حَكيماً. أنْتَ في جِهَةٍ، طُفولَتُكَ في جِهَةٍ: كِلاكُما مَعْذورانِ لأنَّكُما لَمْ تَلْتَقِيا كَيْ يُوَبِّخَ أحَدُكُما ٱلآخَرَ، أو يُعانِقَه.

طُفولَتُك حُرَّةٌ منْك لأنَّها يَقينُ نَفْسِها، وأنْتَ جَهالةُ ٱلوَقْتِ ٱلمُنْحَدِرِ إلَيْكَ بلا طُفولةٍ. فٱنتظِرْها، طُفولَتَك، قَدْرَ ما تَسْتَطيع. أجِّلْها قَدْرَ ما تَسْتَطيع. مَوِّهِ الطَّريقَ إلَيْكَ كَيْ لا تَصِلَ. أبْقِها في ٱلمَتاهَةِ لأنَّكَ لَنْ تُمْتَحَنَ بإرثِها بَعْدَ ٱلآنَ: لَقَدْ تَقَوَّضَ ٱلأبَدِيُّ.

ثُمَّ ماذا؟ بِكَ، أوْ مِنْ دونِكَ، كُلُّ طُفولةٍ ميثاقٌ مُمَزَّق. كُلُّ طُفولةٍ مِحْنَة.

سليم بركات
نيقوسيا ١٩٩٦

الجُنْدب الحديدي

(السّيرة النّاقصة لطفلٍ لمْ يَرَ إلاّ أرضًا هاربة فصاح :
هذه فِخاخي أيُّها القطا)

هيهاتِ أيُّها الطّفل، هيهات

ما ٱلَّذي تراه؟ قُلْ لي أيُّها الطِّفْلُ ما ٱلَّذي تراه؟ هَضَبَتانِ في ٱلأُفُقِ، وَعِقْدٌ مِنَ ٱلقُرى وَتُرابٌ يَتَرَنَّحُ بَيْنَ صَيْفٍ طائِشٍ وَبَيْنَ شِتاءٍ أحْمَقَ. وَمَوْعِدُكَ أيُّها الطِّفْلُ مَوْعِدُ نَباتٍ أوْ طَيْر. تُغْمِضُ عَيْنَيْكَ على ضُحىً تَتَساقَطُ مِنْ سِلالِهِ ٱلأقْنِعَةُ، وَتَقْبُضُ بِكَفَّيْكَ على لِجامٍ غامِضٍ، كأنَّما تَتَهَيَّأُ أنْتَ لِلْكُهولَةِ، أو تَتَهَيَّأُ لكَ ٱلكُهولَةُ، لِتَخْتَزِلا، مَعاً، ذلكَ السِّحْرَ ٱلَّذي يَنْبِضُ مَرَّةً واحِدَةً فَتَنْتَحِرُ ٱلحَياةُ شَوْقاً إلى نَبْضَةٍ ثانِيَة.

هيهاتِ أيُّها الطِّفْلُ أنْ تَرى غَيْرَ ما رأيْتَ. وما ٱلَّذي رَأَيْتَ، قُلْ لي، غَيْرَ عَرَباتٍ تَئِنُّ، وينابيعَ هارِبَةٍ مِنْ ضَرَباتِ ٱلغُبار؟ كَفاكَ ٱنْتِحالاً للأشْكالِ لِتَطْمَئِنَّ إليكَ ٱلأشْكالُ. كَفاكَ دَفْعاً بي إلى نَدامى ٱحْتَضَنوا ٱلجُذورَ وناموا. لكِنْ، بٱللّهِ، لا تُخَفِّفْ مِن وَطْءِ ٱلغَمامِ عَلَيَّ وَوَطْءِ الثُّلوجِ، حَيْثُ ٱلْمَحُكَ بَيْنَهُما تَنْحَرُ ٱلعصافيرَ وٱلوَقْتَ، ناثِراً مِنْ نَشيجِكَ على

ٱلأرْضِ طُفولَةً لِلأرْضِ، ناثِراً شِباكَ دَمِكَ السَّكْرانِ لِتَلْتَقِطَ ٱلمَلْحَمَة.

أنتَ طِفْلٌ، وما ٱلَّذي أرومُهُ مِنْ طِفْلٍ إلّا أنْ يَنْفُضَ عَنْ ثيابِهِ الشِّمالَ كُلَّهُ بَيْتاً بَيْتاً، شَجَرَةً شَجَرَةً، نَهْراً نَهْراً، بَيْدَراً بَيْدَراً، سُنْبُلَةً سُنْبُلَةً، سحابَةً سحابَةً، وأنْ يَكْسِرَ جِرارَ ٱلأُفُقِ لِتَنْدَلِقَ أسْرابُ السُّنونو وٱلقَطا؟... أُرْكُضْ قَدْرَ ما تَحْتَمِلُ ساقاكَ، أُرْكُضْ مِنَ الزَّوابِعِ إلى الزَّوابِعِ، وٱرْفَعْ قَلْبَكَ الصَّغيرَ ٱبْتِهالاً إلى السُّهولِ ٱلَّتي تَتَزاحَمُ مِنْ حَوْلِها ٱلحُروفُ والزَّرازيرُ. أَلَيْسَ في صَوْتِكَ صَوْتُ بناتِ آوى؟ أَلَيْسَ في صَوْتِكَ صَوْتُ شَرْخٍ؟ أَلَيْسَ فيكَ ما في ٱلمَديحِ كُلِّهِ مِنْ تَرَفٍ مَهْزوم؟ أنْتَ طِفْلٌ، وما ٱلَّذي يأسِرُ الرِّياحَ فيكَ غَيْرُ مدىً مُتْرَعٍ بالرِّياح؟ دَعْني أنْبَسِطْ تَحْتَ دِرْعِكَ كما تَنْبَسِطُ ٱلفَجيعَةُ، فاتِحاً ذراعَيَّ لِلْبُقولِ وللثَّعالِبِ، كأنَّما أنا هَوى ٱنْدِثارٍ، أو هَوى رَحيلٍ شاهِرٍ فُؤوسَهُ على ٱلخَلائِقِ... وأنْتَ طِفْلٌ، قُلْ لي ما ٱلَّذي رَأَيْتَ مِنْ طِفْلٍ؟ قُلْ رَأَيْتَ صَوْتَكَ عارِياً بَيْنَ ٱلأصْواتِ، لاهِثاً كَرِئَةٍ مَكْسورَةٍ تَتَدافَعُ مِنْ شُقوقِها ٱلحَدَآتُ وَتَنْبَجِسُ ٱلمَناجِلُ. آهِ أيُّها الطِّفْلُ، كَمْ سَمِعْتُكَ يَقْظانَ في ٱلحِكايَةِ

تَسْرُدُ لِلْحِكايَةِ قَلْبَكَ الصَّغيرَ؛ تَسْرُدُ لِلْحكايَةِ لَهْوَ ٱلأُقْحُوانِ، وَتَنْسى كَيْفَ طَعَنْتَ بِخِنْجَرِ النَّدى بُيوتَ بريڤا، وموسيسانا وعامودا، وكيستك وبهارنك وموزان وسيمتك، وحلكو وكوجك، والعنترية، وتربسبي، وعاكولة، وهرم رش، وهرم شيخو، و... إلخ إلخ.

أنْتَ طِفْلٌ، ها، تَجْمَعُ في جُيوبِكَ ٱلباقِلاءَ ٱلبَرِّيَّةَ، وأزاهيرَ ٱلبَشْتارِ السُّكَّرِيَّةَ. هُنا تَتَعَمَّدُ أنْ يَراكَ نواطيرُ ٱلقَمْحِ لِتُضَلِّلَ النَّواطيرَ. تِلْكَ مَلْهاتُكَ، تِلْكَ مَلْهاةُ عُمْرٍ سَكْرانَ كَدَمِكَ السَّكْرانِ. تِلْكَ مَلْهاةٌ نَصَبْتَها بَيْنَ فِخاخِكَ لِلْحُقولِ كُلِّها، وَضَحِكْتَ إذْ عَلِقَتِ ٱلحُقولُ حتّى تَضاحَكَ مِنْ حَوْلِكَ ٱلهواءُ. وَكُنْتَ أنْتَ وَٱلهواءُ عاقِدَيْنِ ٱمْتِداداتِكُما معاً، وَتَنْفُخانِ في بوقٍ واحِدٍ لِتَسْتَنْفِرا طَيْشَ ٱلمَخْلوقاتِ. لَقَدْ عَرَفْنا، يقيناً، بَعْدَ كُلِّ هذا الرَّحيلِ، أنَّكَ أنْتَ مَنْ حَفَرَ طريقَ عَرَباتِ التِّبْنِ وَمَوَّهَها لِيَكْسِرَ قوائِمَ بَغْلِ سمعان، وأنتَ مَنْ أوْصَلَ سِلْكَ ٱلكَهْرَباءِ بِبابِ فُرْنِ مرادو فَما أمْسَكَهُ أحَدٌ إلّا صُعِق. وأنْتَ مَنْ دَحْرَجَ ٱلمِدْحَلَةَ ٱلحَجَرِيَّةَ عَنْ سَطْحِ ٱلبَيْتِ على كَلْبِ فلمز فَشَلَّ نِصْفَهُ. وأنْتَ مَنْ قَتَلَ ديكَ هيلان ذا الرَّقَبَةِ ٱلعارِيَةِ وَٱلعَرْفِ

آلـمَقْصوصِ بِحَجَرٍ. وأنْتَ مَنْ رَشَّ آلبَهارَ في بِرْكَةِ إوَزّاتِ سقمور فَصِرْنَ مَسْعورات. وأنْتَ مَنْ سَرَقَ عصا كتام آلأعمى. وأنْتَ مَنْ كَسَرَ أحَدَ قَرْنَيْ كَبْشِ مير. وأنْتَ مَنْ نامَ، أخيراً، وَمِلْءُ حُلْمِهِ أنْ يَفْتَحَ مقابِرَ هلاليَّة قَبْراً قبراً ليرى كَيْفَ يَتَسامَرُ آلـمَوْتى في مَخابِئِهِم الضَّيِّقَةِ. لكنَّكَ طِفْلٌ، وَمَنْ ذا آلَّذي يُعاقِبُ طِفْلاً ضَرَبَتْهُ صواعِقُ آلأُقْحوانِ فَتَناثَرَ بُرْعُماً بُرْعُماً بَيْنَ نَباتِ حَديدٍ وَغَيْمِ حَديد؟ آهِ كَمْ قُلْنا: لا تَقْتَرِبْ أيُّها الطِّفْلُ، لا تَقْتَرِبْ مِنَ آلـحُطامِ، بَيْدَ أنَّكَ آقْتَرَبْتَ تَلْتَقِطُ مِنَ آلـحُطامِ بقايا خَزَفٍ لِتُزَيِّنَ آلمَراثي.

لَقَدْ عَرَفْنا، يقيناً، أنَّكَ كُنْتَ يَقْظانَ طَوالَ هذا السُّباتِ الضّارِبِ بجذورِهِ في خُطُواتِنا، وآلـمُرْتَسِمِ كَخَتْمٍ على آلفُتوحاتِ آلَّتي لَمْ تَكُنْ لنا؛ لكِنْ لِمَ أيْقَظْتَنا آلآنَ وأسْلَمْتَنا للدُّعابَةِ؟ كِبارٌ نَحْنُ أيُّها الطِّفْلُ، كِبارٌ يَلْهونَ بَقَعْقَعَةِ آلـحَديدِ أمامَ بابِ آلوَقْتِ، وَيَذْرُفونَ آلفِلْزَ آلبارِدَ. كِبارٌ نَحْنُ، لا نَبْسُطُ أقْدارَنا لِسُنونُوَةٍ عابِرَةٍ أوْ لِمَرَحٍ، ولا نَلْبَسُ إلّا حِكْمَةَ آلبَطْشِ. فإذا هَمَمْتَ، ثانيةً، أن تَخْتَبِىءَ من الأرْضِ وَراءَ فَراشَةٍ فلا تَنْتَظِرْنا، لأنَّنا سَنَقِفُ هُنا، تَحْتَ هذا الصَّليلِ

الصّامِتِ للأدْوارِ الصّامِتَةِ، رافعينَ قُرونَ ٱلماعِزِ في مَهَبِّ ٱلمَلْهاة.

كُنْتَ يَقْظانَ فأيْقَظْتَنا لِنَلْمَحَكَ عابِراً بَوّابَةَ النَّباتِ، وَوَراءَكَ نَيْزَكٌ من مياهٍ وريش. لِنَلْمَحَكَ وَسْطَ أسْلِحَةِ الضُّحى دافِعاً سُهولَ كيستك إلى نصيبين، غَيْرَ عابِىءٍ بِحَرَسِ ٱلمُدُنِ ٱلَّذين أطْلَقوا على مَرَحِكَ سِهامَ تاريخٍ أبْكَم. كُنْتَ مُمْتَدّاً، آنذاكَ، مِثْلَ قَلْبٍ سَكْرانَ، وَبَقيتَ مُمْتَدّاً مِثْلَ قَلْبٍ سَكْرانَ، فها أنْتَ تَرانا ـ نَحْنُ ٱلَّذين ٱنْحَسَروا ـ راكضينَ مِنْ جُرُفٍ إلى جُرُفٍ لِنوقِفَ ٱنْحِسارَ ٱلجِهاتِ عَنّا، خِشْيَةَ أنْ نرى ٱلحاضِرَ ٱلَّذي لا جِهاتِ لَهُ. إيهِ، ظَلَّ مُمْتَدّاً أيُّها الصَّغيرُ، ظَلَّ صَغيراً كَما تَشْتَهيكَ ٱلجُذورُ، وٱكْسِرْ ما شِئْتَ من ٱلجِرارِ وٱلأباريقِ، فأنْتَ حُلْوٌ في طَيْشِكَ، حُلْوٌ في سُلْطانِكَ الطّاغي، حُلْوٌ حينَ تَخْلَعُ سِياجاتِ ٱلوَرْدِ وَتَبْطُشُ بٱلوَرْدِ؛ حُلْوٌ حينَ تَرْكَبُ ظَهْرَ ٱلكَبْشِ فَيَهيجُ، حُلْوٌ حينَ تَرْمي ٱلينابيعَ بٱلحَجَرِ فَيُجْفِلُ ٱلبَقَرُ الشّارِبُ، حُلْوٌ حينَ تَسْلَخُ ٱلحِرْباواتِ أو تَعْبَثُ بأعْشاشِ ٱلعَصافيرِ؛ حُلْوٌ حينَ تَسْرِقُ ٱلبُقولَ وَتَنْصُبُ الفِخاخَ لِلْحَمامِ؛ حُلْوٌ حينَ تُحْرِقُ ٱلقِطَطَ وَٱلبَيادِرَ؛ حُلْوٌ حينَ تُطْلِقُ الثّيرانَ مِنَ الزَّرائِبِ فَتَشْرُدُ

الثّيرانُ؛ حُلْوٌ حينَ تَرْبُطُ مَناقيرَ الدِّيكَةِ الرُّوميَّةِ؛ حُلْوٌ حينَ تَهْذي عَنْ كواكِبَ زاحِفَةٍ ومياهٍ تَرْتَدي جَناحَ الطُّيور؛ حُلْوٌ حينَ تَهْذي عَنْ سائِسٍ يسوقُ ٱلغُيومَ بِسَوْطِهِ، وَعَنْ عَرَباتٍ في قاعِ النَّهْرِ؛ حُلْوٌ حينَ تَهْذي عَنْ ثَعالِبِ الظَّلامِ وتُيوسِهِ، وَعَنْ بِغالٍ ذاتِ شَعْرٍ كَشَعْرِ النِّساءِ. حُلْوٌ حُلْوٌ أنْتَ، فَدَعْنا بِٱللّٰهِ عَلَيْك.

غَيْرَ أنَّكَ، أنْتَ ٱليَقْظانَ، تُوْقِظُنا لِنَسْرُدَ ٱلمَهْزَلَة.

(انتهى المدخل، وتليه المُنْفَصِلات الخمسةُ في السيرة الناقصة).

فاصل أول

العنف الهندسي

كُنّا صِغاراً يا صاحبي، صِغاراً جِدّاً، مِثْلَ فِراخِ ٱلإِوَزِّ، واقِفينَ على طَرَفَي الشّارِعِ كَسُطورِ ٱلكِتابَةِ. وكانَ ثَمَّتَ هَرَجٌ كَبيرٌ، هَرَجٌ مَهولٌ. وكانَ ٱلمُعَلِّمونَ، ٱلَّذينَ يَقْفِزونَ بَيْنَ الصُّفوفِ مُلَوِّحينَ بِعِصِيِّهِم، أَشْبَهَ بِقِطَطٍ مَذْعورَةٍ، يَصْرُخونَ: «ٱنْتَبِهوا، لَوِّحوا بأيْديكُم حينَ يَمُرُّ الرَّئيس»... وَمَرَّ الرَّئيسُ، مَرَّ وَسْطَنا مُلَوِّحاً بِيَدَيْهِ، ثُمَّ ٱخْتَلَطَتِ الصُّفوفُ ٱلهَنْدَسِيَّةُ وراءَ ٱلمَوْكِبِ، وَتَحَوَّلَتْ إلى كُتَلٍ سَوْداءَ مُتَدَحْرِجَةٍ، عَنيفةٍ في فَوْضاها.

سَقَطْتُ على ٱلأَرْضِ مِراراً، تَصْطَدِمُ بيَ ٱلأَجْسادُ وٱلأَرْجُلُ، وأنا أُجاهِدُ لِلْخروجِ مِنَ ٱلبُحَيْرَةِ ٱلآدَميَّةِ، وَحينَ وَصَلْتُ إلى ٱلبَيْتِ كانَ وَجْهي أَقْرَبَ إلى التُّرابِ مِنْهُ إلى وَجْهِ طِفْلٍ.

تلكَ كانَتْ بدايَةَ ٱلعُنْفِ يا صاحبي، بدايَةٌ ٱمْتَدَّتْ أُسبوعَيْنِ في مَدينَةٍ صَغيرَةٍ قُرْبَ جِبالِ طوروس؛ بدايَةَ فَرَحٍ رَسْمِيٍّ

«عَنيفٍ». وكانَ عَلَيْنا أنْ نَهْتِفَ طَوالَ ٱلوَقْتِ، داخِلَ حُجُراتِ الدِّراسَةِ وخارِجَها، وأنْ نُزَيِّنَ ٱلجُدْرانَ مَرّاتٍ وَمَرّاتٍ، حَيْثُ يَقْتَضي ٱلأمْرُ ولا يَقْتَضي، وأنْ نُعَلِّقَ أعْلاماً صَغيرةً على صُدورِنا، حَيْثُ يَقْتَضي ٱلأمْرُ ولا يَقْتَضي، وأنْ نَرْسُمَ فَرَحاً غامِضاً على وُجوهِنا، دونَما ٱلتِفاتٍ إلى أعْماقِنا.

كانَ عُنْفُ ٱلفَرَحِ «الرَّسْمِيِّ» عُنْفاً يَفوقُ طاقَةَ طِفْلٍ لارَسْمِيٍّ، وَمَعَ ذلِكَ كانَ عَلَيَّ أنْ أتَحَمَّلَهُ في خُضوعٍ ساحِقٍ، وأنْ أصيرَ عَنيفاً بِدَوْري، عَنيفاً إلى دَرَجَةٍ تَفوقُ طاقَةَ طِفْل.

تِلْكَ كانَتْ بِدايَةَ ٱلعُنْفِ يا صاحبي، بِدايَةً دَعَتْني إلى سَرِقَةِ الطَّباشيرِ ٱلمُلَوَّنَةِ مِنَ ٱلمَدْرَسَةِ، لِأَمْلأَ مُرَبَّعاتِ السّورِ ٱلحَجَرِيِّ في ٱلحَديقَةِ ٱلعامَّةِ حُروفاً هيَ حُروفُ ٱسْمي، وَحُروفاً أُخرى هي حُروفُ صِنْفِ القَلَمِ الرَّصاصِ ٱلَّذي أكْتُبُ بِهِ (H. B.) وكانَ ٱلاسْمانِ مَدْخَلاً إلى كَسْرِ «السُّلوكِ ٱلعامِّ»، سُلوكِ «النَّظيفينَ»، وَسُلوكِ ٱلحِرْصِ على «النَّظافَةِ» ٱلعامَّةِ. لكنَّ ٱلعُنْفَ ٱلَّذي ظَنَنْتُهُ خاصّاً بي تَسَلَّلَ إلى بَيْتِنا مُنْذُ ذلكَ المُرورِ ٱلعَنيفِ للرَّئيسِ، وٱتَّخَذَ أشْكالاً تَدْريجيَّةً في ظهورِهِ داخِلَ عائِلَةٍ تَبْلُغُ أحَدَ عَشَرَ فَرْداً.

كانَتْ باحَةُ بَيْتِنا يا صاحبي، آلباحَةُ آلواسِعَةُ جِدّاً، وآلمُحاطَةُ بسورٍ عالٍ، تُقْبِلُ رُوَيْداً رُوَيْداً على وَحْشَةٍ لَمْ تَعْهَدْها. فالضُّيوفُ ـ آلغُرَباءُ مِنْهُم وَآلمَعْروفونَ ـ آلَّذين كانوا يَأْتونَ وَيَمْضونَ دُونَما سَبَبٍ لِلْمَجيءِ أو لِلْمُغادَرَةِ، يَتَناقَصونَ يَوْماً بَعْدَ آخَرَ، تَبْعاً لِتَناقُصِ أملاكِنا، وكانَ أبي يَزْدادُ تَجَهُّماً وطَأْطَأَةً، يَزْدادُ عُنْفاً صامِتاً لا يُفْصِحُ عن كُنْهِهِ إلّا داخِلَ آلأَسْواقِ التِّجاريَّةِ في آلمَدينةِ، حَيْثُ يَصْطَدِمُ التُّجّارُ آليائِسونَ، في مُضارباتِهِم على آلحُبوبِ، فَتَرْتَفِعُ أَكْثَرُ مِنْ مائَةِ يَدٍ تَحْمِلُ خُطّافاتٍ حَديديَّةً وَتَهْوي فَيَتَناثَرُ آللَّحْمُ آلعاري.

كانَتْ تِلْكَ بِدايَةَ آلفَرَحِ «الرَّسْميِّ» آلعَنيفِ، وَبدايَةَ آلفَقْرِ الشَّعْبيِّ آلعنيفِ. بِدايَةً خَرَجَتْ مِنَ آلمَدْرَسَةِ إلى آلأَسْواقِ التِّجاريَّةِ، وَدَخَلَتِ آلبُيوتَ وَلَمْ تَخْرُجْ مِنْها.

وَكُنْتُ طِفلاً يا صاحبي، لا أَخْرُجُ مِنَ آلبَيْتِ صباحاً إلّا بَعْدَ خُروجِ أبي مِنَ آلبَيْتِ، ليَتَسَنّى لي أنْ أَصْرُخَ في وَجْهِ أُمّي: «أنا لا أُحِبُّ الشّاي. لا أُحِبُّ الشّاااااي». ثم أَرْكُلُ آلإبْريقَ فَأَدْلُقَهُ كامِلاً، وَأَقْذِفُ بآلكَأْسِ قَدْرَ طاقَتي إلى آلحائِطِ.

ثُمَّ أهْرُبُ إلى ٱلْمَدْرَسَةِ، وأعودُ أهْرُبُ مِنَ ٱلْمَدْرَسَةِ إلى مُسْتَنْقَعِ قاسمو لأُراقِبَ أفاعيَ ٱلماء.

كانَ ذلكَ دَأْبي كُلَّ صباحٍ، كانَ دَأْبَ إخْوَتي أيْضاً، مُنْذُ أنْ مَلأَ أبي ٱلبَيْتَ بأشْباحٍ تَحْمِلُ ٱلخَطاطيفَ ٱلحَديديَّةَ، بأشْباحٍ هاذِيَةٍ تَلُفُّ رُؤوسَها بِخِطّاتٍ مُرَقَّطَةٍ تَكْثُرُ عَلَيْها لَطَخاتُ دَمٍ جافّ.

وٱتَّسَعَتِ ٱلبِدايَةُ؛ ٱتَّسَعَتْ كدوائِرِ ٱلماءِ في بِرْكَةٍ رَمَوْها بِحَجَرٍ. وصارَتِ ٱلجِرارُ ٱلخَزَفِيَّةُ، ٱلمَرْكوزَةُ على قَواعِدَ مِنَ ٱلخَشَبِ داخِلَ ٱلبَيْتِ، تَتَساقَطُ واحِدَةً تِلْوَ أُخرى، تَتَساقَطُ وَتَتَناثَرُ. وتَأْتي جِرارٌ جديدةٌ لِتَتَساقَطَ وَتَتَناثَرَ. وَعَرَفْنا، نَحْنُ ٱلإخْوَةَ، أنَّ ذلكَ لا يَشْفي غَليلَنا، فَصِرْنا نَرْمي زُجاجَ النَّوافِذِ بٱلحِجارَةِ، وَنَغيبُ بَعْدَها عَنِ ٱلبَيْتِ يَوْماً أو يَوْمَيْنِ، حتّى تَهْدَأَ أُمُّنا، فَنَعودُ نَكْسِرُ جَرَّةً أو نَخْلَعُ شُجَيْرَةَ وَرْدٍ مِنْ جُذورِها، وَنَهْرُبُ مِنْ جَديد.

وٱتَّسَعَتِ ٱلبِدايَةُ، وٱتَّسَعَتِ ٱلكَراهيَّةُ، وٱسْتَفْحَلَتِ ٱلعَداوَةُ بَيْنَنا وَبَيْنَ أُمِّنا. نَهْرُبُ مِنَ ٱلبَيْتِ كَثيراً، وَحينَ يَسْقُطُ أحدُنا في قَبْضَتِها يَغيبُ عَنِ ٱلوَعْي. أُمّي لَمْ تَكُنْ تَكْتَفي بالضَّرْبِ

بآلعَصا، كانتْ تَضْرِبُ بِكُلِّ ما يَقَعُ في يَدَيْها، أحَجَراً كانَ أم حَديداً. ويَسيلُ دَمُنا، نَحْنُ آلأطْفالَ، وقد قَدَرْتُ أنْ أنْفُذَ مِنْها ذاتَ مَرَّةٍ يا صاحبي، فَرَكَضْتُ إلى رُكْنٍ مِنْ باحَةِ آلبَيْتِ تَحْتَفِظُ فيهِ بِسَرْبٍ مِنَ آلأرانِبِ، خَلَعْتُ الشَّبَكَ آلمَعْدِنِيَّ مِنْ حَوْلِها، وَهَوَيْتُ عَلَيْها بإبْريقٍ نُحاسِيٍّ ذي قاعِدَةٍ مُسْتَديرةٍ حادَّةٍ. صارَتِ آلأرانِبُ تَتَخَبَّطُ. تَمُدُّ قوائِمَها آلخَلْفِيَّةَ ثُمَّ تَرْتَعِشُ لِتَهْدَأَ هُدوءاً لا حُدودَ لَهُ.

إثْنا عَشَرَ أرْنباً حَصيلَةُ آلمَجْزَرَةِ، وَعِشْرونَ يَوْماً مِنَ التَّسَكُّعِ حَوْلَ آلبَيْتِ دونَما جُرْأةٍ على دُخولِهِ. أنامُ بَيْنَ شُجَيْراتِ آلقُطْنِ في حَقْلٍ قريبٍ، وآكُلُ مِمّا يَسْرِقُهُ لي إخْوَتي.

وضاقَتِ آلبدايَةُ لِتَصيرَ كالرَّسَنِ. ضاقَتِ آلمَدينَةُ الصَّغيرةُ آلمُتاخِمَةُ لِجبالِ طوروسَ. يَتَحَدَّثُ النّاسُ بَعْضُهم إلى بَعْضٍ بما يُشْبِهُ آلهَمْسَ، وأبي يَزْدادُ هَرَماً. وَحْدَهُمُ آلعَتّالونَ آلَّذينَ أغْدَقَ عَلَيْهِم أبي، في مَجْدِهِ، بآلمَؤوناتِ مِنَ آلحِنْطَةِ، يَشُدّونَ أزْرَهُ. وكانوا جَهَلَةً عنيفينَ مِنْ أجْلِ آلخُبْزِ. يَقولونَ: «لِيَكُنْ... لَنْ تَكونَ صَفْقَةٌ إلّا وَلَكَ حِصَّةٌ فيها». وَيُهَدِّدونَ سائِقي الشّاحِناتِ. لكنَّ الدَّوْلَةَ تَوَلَّتْ وَحْدَها تَسْويقَ كُلِّ شَيءٍ،

فانْقَسَمَ ٱلعَتّالونَ على أنْفُسِهِم، صاروا فُرادى، يَسْعى واحِدُهُم بِخَطّافِهِ ٱلحَديديِّ إلى سَحْبِ لُقْمَةِ ٱلآخَرِ مِنْ فَمِه.

كُنّا نَرى إلى ذلكَ، نَحْنُ ٱلأطفالَ، وَنَقْتَسِمُ ٱلعُنْفَ، نَتَخاطَفُهُ كما نَتَخاطَفُ ٱلحَلوى ٱلمُتَّسِخَةَ مِنَ ٱلأيْدي ٱلمُتَّسِخَةِ. وكانَ مَلَكوتُنا هو ٱلمَلكوتَ ٱلأبْعَدَ عَنِ السَّماءِ، كانَ مَلَكوتاً مِنَ ٱلغُبارِ وَمِنْ فَرَحِ السِّباحَةِ في مُسْتَنْقَعِ قاسمو، أوِ الرَّكْضِ بَيْنَ السَّنابِلِ لِنَتْرُكَها وَراءَنا عَصْفاً مأكولاً. وَنَتَبارى في قَنْصِ الدَّجاجاتِ الشّارِدَةِ بَيْنَ ٱلحُقولِ بِمَقاليعِنا: تَتَخَبَّطُ وَتَهْوي. تَرْكُضُ وَتَهْوي. تَفْرُدُ أجْنِحَتَها لِصْقَ ٱلأرْضِ وَتَفْتَحُ مناقيرَها ٱلَّتي تَمْتَلِىءُ بالتُّرابِ، ثُمَّ تَهْدَأُ.

كُنّا أطْفالاً يا صاحبي، أطفالاً يُحِبّونَ وَصْفَ ٱلحَيَواناتِ وهيَ تَموتُ في بُطءٍ. نُحِبُّ وَضْعَ وَرَقِ ٱلخَرْشَنَةِ في أُنوفِنا حتّى يَسيلَ الدَّمُ، ونَتَباهى بِٱلَّذي يَسيلُ دَمُهُ أكْثَرَ، بِٱلَّذي يَحْمِلُ كَدَماتٍ أكْثَرَ، بِٱلَّذي تَزْدادُ ٱلجِراحُ ٱلعميقةُ في وَجْهِهِ أو يَدَيْهِ، ويا ما وَقَفْنا في ٱللَّيْلِ تَحْتَ ٱلمَصابيحِ الشَّحيحةِ في الشَّوارِعِ، نَنْتَظِرُ وصولَ عَرَباتِ ٱلخُضَرِ أوِ ٱلبَطّيخِ ٱلأخْضَرِ مِنَ ٱلقُرى وَٱلحقولِ ٱلمُجاوِرَةِ إلى سوقِ ٱلمدينَةِ. نَتَلَطّى حينَ

نَسْمَعُ حوافِرَ ٱلبِغالِ، وصَريرَ ٱلعَجَلاتِ ٱلخَشَبِيَّةِ. نَتَلَطّى حتّى تَجْتازَنا فَنُهَرْوِلُ، حُفاةً، وَرَاءَها، حامِلينَ، دائِماً، سكاكينَ صَغيرَةً أو شَفَراتِ حِلاقَةٍ، وَنَقْطَعُ ٱلحِبالَ فَتَتَدَحْرَجُ ٱلحُمولَةُ. نَحْمِلُ ما نَسْتَطيعُ حَمْلَهُ وَنَهْرُبُ، لا أحدَ يَسْتَطيعُ ٱللَّحاقَ بِنا وَنَحْنُ حُفاة. نأكُلُ قليلاً مِمّا خَطِفْناهُ، وَنَتَراشَقُ بِٱلباقي.

كُنّا صِغاراً يا صاحِبي، صِغاراً يَسْهَرونَ في ٱللَّيْلِ تَحْتَ مصابيحِ الطُّرُقاتِ. صِغاراً لا يُفَكِّرونَ إلّا في سَرِقَةٍ أوْ خَطْفٍ أوْ تَحْطيمٍ، وَيَكْرهونَ ٱلمَدْرَسَةَ، يَكْرهونَ الدَّفاتِرَ وٱلمُعَلّمينَ، وَيَرْتَجِفونَ في الصَّباحِ حينَ يَمُرُّ عَلَيْهِمُ النّاظِرُ لِيَرى أظافِرَهُم وشُعورَهُم. نَخافُ دائِماً. نَخافُ مِنَ ٱلبَيْتِ، وَمِنَ ٱلمَدْرَسَةِ، وَمِنَ ٱلشُّرْطِيِّ. وَنَتَمَنّى أنْ نُفيقَ ذاتَ صَباحٍ فَنَرى ٱلأرْضَ قَفْراً إلّا منّا.

كُنّا أطفالاً بلا طُفولَةٍ. وكانَ ٱلكِبارُ يَتَباهَوْنَ بِوَحْشِيَّتِنا. إنَّهُم يُحِبّونَ ٱلأطْفالَ ٱلقُساةَ. وَنَحْنُ نُحِبُّ الرِّجالَ ٱلقُساةَ. الرِّياضيّونَ يَفْتِنونَنا، وَنَقْتَدي بِٱلقَبَضاياتِ. لا طِفْلَ إلّا وفي جَيْبِهِ سِكّينٌ، أو على وَسْطِهِ سِلْسِلَةُ حديدٍ. وٱلكُلُّ يُتْقِنُ صُنْع مِقْلاعٍ مِنَ ٱلقِنَّبِ، أو صُنْعَ كِرْباجٍ مِنْ أشْرِطَةِ ٱلكَهْرَباءِ الرَّفيعَةِ،

وَٱلكُلُّ مَهْووسٌ بِجَمْعِ النُّفاياتِ النُّحاسِيَّةِ لأنَّها تُباعُ. وفي مَقْدورِ ٱلكُلِّ أنْ يُحَطِّمَ سيّارَةً ليأخُذَ مِنْها قِطْعَةً نُحاسيَّةً، يقودُهُ ثَمَنُها إلى السّينَما.

إنَّنا نُحِبُّ كيڤورك لأنَّهُ تَغَلَّبَ على سِتَّةِ رِجالٍ مُسَلَّحينَ. نُحِبُّ كنعانَ لأنَّهُ يَدْخُلُ أيَّةَ دارٍ للسّينَما مَجّاناً. نُحِبُّ شرو العتّالَ، لأنَّهُ يَتَقاضى أتْعابَهُ مِنْ كُلِّ تاجِرِ حُبوبٍ، مِنْ دونِ أنْ يَحْمِلَ كيساً واحِداً على ظَهْرِهِ، وَهُوَ عنيدٌ وسريعٌ في إشهارِ خِنْجَرِهِ. دَخَلَ السِّجْنَ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً. هذهِ رُموزُنا.

... وتضيقُ الطُّفولَةُ، وَتَضيقُ ٱلبِدايَةُ: بَدَأْتُ أعي شَيْئاً جَديداً لَمْ يَكُنْ في ٱلحُسْبانِ، عنيفٌ وصارِخٌ: أنْتَ كُرْدِيٌّ. الأكرادُ خَطِرونَ. مَمْنوعٌ أنْ تَتَحَدَّثَ بِٱلكُرْدِيَّةِ في ٱلمَدْرَسَةِ. هذا جديدٌ، لأنَّكَ تَعْرِفُ أنَّ ثلاثَةَ أرْباعِ هذه ٱلمَدينةِ ٱلمُتاخِمَةِ لِجبالِ طوروسَ هُمْ أكرادٌ. وها أنْتَ تَلْمُسُ ٱلمَسْأَلَةَ: المُعَلِّمونَ يُغالونَ في تَحْقيرِ التَّلامِذَةِ وَضَرْبِهِم. وَٱلبُداةُ ٱلَّذينَ يَهْتِفونَ لِكُلِّ نِظامٍ جديدٍ، يَفِدونَ إلى ٱلمَدينةِ، وَيُراقِبونَ ٱلوُجوهَ. أنْتَ طِفْلٌ، لكِنَّكَ لَسْتَ أعْمى. إنَّهُم يَكْرَهونَكَ سَلَفاً، ولا تَدْري لِماذا. المُعَلِّمُ يَكْرَهُكَ ويَكْرَهُكَ مُوَظَّفُ الدَّوْلَةِ والشُّرْطِيُّ. هذا شَرْطٌ

جديدٌ، فَلْأكُنْ عَنيفاً إذاً، عنيفاً أكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي تِجاهَ هذا آلاقْتِحامِ الشَّيْطانيِّ.

تَنْظُرُ، بِدَوْرِكَ، إلى أطْفالِ آلبَدْوِ شَزْراً في آلمَدْرَسَةِ. تَسْخَرُ مِنَ آلحِلاقَةِ آلغريبَةِ لِشَعْرِهِم، وَمِنَ آلوَشْمِ آلأزْرَقِ آلَّذي يُغَطّي أُنوفَهُم وَخُدودَهُم وأيْديهِم، وَمِنْ بِدائِيَّتِهِمُ آلمُفْرِطَةِ. لكنَّكَ لا تَعْرِفُ لِماذا يُفَضِّلونَهُم عَلَيْكَ. ولِذا تَنْتَظِرُهُم بَعْدَ آلانْصِرافِ مِنَ آلمَدْرَسَةِ، وَتَخْتَلِقُ أيَّ سَبَبٍ للمُشاجَرَةِ يَوْماً بَعْدَ يَوْم. يَطْلُبُ النّاظِرُ أنْ تَجْلُبَ وَلِيَّ أمْرِكَ فَيَأْتي والِدُكَ إلى آلمَدْرَسَةِ. يَحْتَقِرُهُ النّاظِرُ لِلُكْنَتِهِ آلأعْجَمِيَّةِ، لكنَّ والِدَكَ عنيفٌ ذو كِبْرياءٍ، يَقولُ للنّاظِرِ: «مَنْ أنْتَ لِتُخاطِبَني هكذا؟»، يقولُ النّاظِرُ: «رَبّ رَبَّك...». يَذْهَبُ أبي غاضِباً. وفي آليَوْمِ ذاتِهِ يَقِفُ عتّالانِ في الشّارِعِ آلَّذي يَضُمُّ بَيْتَ النّاظِرِ، وَيَسْحَلانِهِ على آلأرْضِ مِنْ قَدَمَيْهِ. يَشْتَكي النّاظِرُ إلى الشُّرْطَةِ. تأتي الشُّرْطَةُ فَيَرْفُضُ والدي آلمُضِيَّ مَعَهُم. يَجْتَمِعُ آلقَبَضاياتُ وآلأقْرِباءُ أجْمعينَ في غَضَبٍ كاسِحٍ. يَصِلُ آلأمْرُ إلى مُديرِ آلمِنْطَقَةِ، وَهُوَ بِرُتْبَةِ مُقَدَّم. يأتي آلمُقَدَّمُ في سيّارَةٍ فَخْمَةٍ، فَيَخْرُجُ إليهِ حسين آغا صارِخاً: «سأدوسُ قُبَّعَتَكَ إذا أخَذْتَ هذا الرَّجُلَ»، وَيُسَوّى آلأمْرُ في

هُدوءٍ، وفي هُدوءٍ يَتَخَلّى النّاظِرُ عن عَدائِيَّتِهِ، لكنَّ ٱلمَسْأَلَةَ لا تَنْتَهي، فَتُصْبِحُ الطُّفولَةُ جَحيماً، وكذلكَ ٱلبِدايَةُ ٱلَّتي لَوَّحْتَ فيها بِيَدَيْكَ الصَّغيرَتَيْنِ للرَّئيس.

وَتَتَراكَمُ ٱلأمورُ، فَتُمْعِنُ في الذَّهابِ، لَيْلاً، إلى حَقْلِ ٱلقُطْنِ لِتَجْمَعَ جَوْزَه ٱلأَخْضَرَ ٱلَّذي لَمْ يَتَفَتَّحْ بَعْدُ، وَتُمْعِنُ في ٱقْتِلاعِ نَباتِ العَجّور وَشُجَيْراتِ ٱلباذِنْجان، وَتُمْعِنُ في تَسَلُّق السُّطوحِ لِتَهْدِمَ أعْشاشَ ٱلعصافيرِ وَتَكْسِرَ بَيْضَها. وَيَصِلُ بِكَ ٱلأَمْرُ إلى مُغافَلَةِ حارِسِ ٱلحَيِّ، النّائِمِ دائِماً، لِتَسْرِقَ مُسَدَّسَهُ ٱلميريَّ، أنْتَ وَجَمْعٌ من رِفاقِكَ، ثُمَّ تَحْتارونَ فَتُلْقونَهُ في نَهْرِ جغجغ. يَذْهَبُ ٱلحارِسُ إلى السِّجْنِ ثلاثَةَ أشْهُرٍ، بَيْنَما تَضْحَكُ مِنَ الأمْرِ وَتَتَنَدَّرُ بِهِ. أمّا والِدُكَ فَيَغْرَقُ في لُعْبَةٍ جديدةٍ، هي الصَّيْدُ. إنَّه يُطْلِقُ طَلْقَةَ ١٢ ملِّم على عُصْفورٍ واحِدٍ فَيَتَمَزَّقُ ٱلعُصْفورُ تَماماً. تُدْرِكُ أنَّ هذا لَيْسَ صَيْداً، فَتَبْدَأُ صَيْدَكَ أنْتَ، وَسْطَ الطُّفولَةِ ٱلَّتي لَمْ تَبْقَ طُفولَةً. تَنْصُبُ ٱلفِخاخَ هُنا وَهُناك، فَتَصْطادُ ٱلعصافيرَ والزَّرازيرَ والتّيتي، وَكُلَّما تَمَكَّنْتَ مِنْ طَيْرٍ نَزَعْتَ عَنْه ريشَهُ، وَدَفَنْتَهُ حَيّاً. لكنَّكَ كُنْتَ تُجَنُّ شَوْقاً إلى الظَّفَرِ بِهَزّازِ الذَّيْلِ، ٱلَّذي لَمْ تَتَمَكَّنْ مِنْه قَطُّ، فَهُوَ

ماكِرٌ جِدّاً، لا يَهْدَأُ في مَكانٍ: إنَّهُ التَّحدّي حَقّاً، التَّحدّي ٱلَّذي يَجْعَلُكَ حانِقاً إلى دَرَجَةٍ لا تُطاقُ، وَتُقْسِمُ أنْ تَسْلُقَهُ حيّاً إذا أمْسَكْتَ بِهِ.

أنْتَ طِفْلٌ بلا طُفولَةٍ، وٱلبِدايَةُ تَضيقُ، وَمَعَ ٱلبِدايَةِ تَأْتي الثُّلوجُ، ثُلوجُ السَّنَةِ ذاتِها ٱلَّتي رَفَعْتَ فيها ذراعَيْكَ تَحِيَّةً عنيفَةً لِمَجيءِ الرَّئيسِ. وَطوالَ خَمْسَةِ أيّامٍ كُنْتَ تَتَسَلَّقُ سُطوحَ ٱلجيرانِ لِتَسُدَّ مداخِنَ بُيوتِهِم بالثُّلوجِ. كانوا يُطارِدُونَكَ أحْياناً وَكُنْتَ ماهِراً في النَّجاةِ، تَماماً مِثْلَ مهارَتِكَ في صُنْعِ مُثَلَّجاتِكَ ٱلخاصَّةِ، ٱلَّتي هِيَ مزيجٌ مِنَ الثَّلْجِ وَدِبْسِ ٱلعِنَب.

أنْتَ تُحِبُّ الثَّلْجَ، تُحِبُّ هذا ٱللَّوْنَ الطّاغيَ ٱلَّذي يَسْطو على ٱلألْوانِ كُلِّها، تُحِبُّ ٱمْتِدادَهُ وَٱمْتِدادَ خُطاكَ فيه، لكنَّهُ يُعَقِّدُ ٱلأمورَ قَليلاً، لأنَّكَ حينَ تَدْخُلُ ٱلبَيْتَ وَقَدِ ٱمْتَلأَ حِذاؤكَ بالثَّلْجِ، وٱبْتَلَّ جَوْرَبُكَ، تُغافِلُ أُمَّكَ لِتَضَعَ ٱلجَوْرَبَ على ٱلمِدْفَأَةِ تَماماً، ولا تَمْضي دقائِقُ إلّا وَيَحْتَرِقُ. وَهُنا، أيْضاً، تَهْرُبُ مِنَ ٱلبَيْتِ خَوْفَ ٱلقِصاصِ. تَهْرُبُ إلى الثَّلْجِ ٱلبارِدِ وَتَرْتَجِفُ وَتَرْتَجِفُ وَتَرْتَجِفُ، حتّى يَغْدوَ لَوْنُكَ أزْرَقَ مُحْتَقِناً. تَشْتُمُ الثَّلْجَ وَتُحِبُّهُ. تَشْتُمُ ٱلبَيْتَ ولا تُحِبُّهُ. تَضْرِبُ

أُخْوَتَكَ لأنَّهُم يُفْسِدونَ السَّطْحَ الأمْلَسَ لِلثَّلْجِ في باحَةِ آلبَيْتِ وَهُمْ يَعْبَثونَ. وأخيراً، تَنْطوي في زاوِيَةٍ ما، حَزيناً جِدّاً، وحينَ لا تَعْرِفُ كَيْفَ تُحَدِّدُ سَبَباً لِحُزْنِكَ تَعودُ إلى آلبَيْتِ مُسْتَسْلِماً، فَتَتَلَقَّفُكَ آلأيْدي، وَيسيلُ مِنْ أنْفِكَ الدَّمُ، أنتَ الطِّفْل.

تَهْدَأُ قليلاً وَقَدِ آحْمَرَّتْ عَيْناكَ. تُفَكِّرُ في فِعْلٍ ما، فِعْلٍ صاخِبٍ أوْ مُدَمِّرٍ. تَقْتَرِبُ مِنَ المِدْفَأةِ لِتَفْتَحَ مَسيلَ آلمازوتِ على آخِرِهِ، وَتَضُجُّ آلمِدْفَأَةُ وَتَحْمَرُّ كَرَأْسِ لُفافَةِ والِدِكَ. وَهُنا تَتَمَنّى أنْ يَزْدادَ آلوَهْجُ، أنْ تَنْفَجِرَ آلمِدْفَأَةُ وَتُحْرِقَ آلبَيْتَ، لكنْ لا شَيْءَ يَحْصُلُ، بَلْ تَتَفَجَّرُ أنْتَ، تَتَفَجَّرُ طُفولَتُكَ طيناً وَطُيوراً عارِيَةً مَيْتَةً. تَتَفَجَّرُ طفولَتُكَ خُطّافاتٍ حديديَّةً وسكاكينَ، وَجِراراً مَكْسورَةً، وثِياباً مُلَوَّثَةً بالدَّمِ، وفِخاخاً، وبنادِقَ صَيْدٍ، وَبَطّيخاً أحْمَرَ مُهَشَّماً على آلأرْصِفَة.

فاصل ثان

في ارتطام الجهات

ها نَحْنُ، في قِنْبازاتِنا الصَّغيرةِ، مُتَحَلِّقونَ حَوْلَ ديكَيْنِ رُومِيَّيْنِ. أتَعْرِفونَ الدّيكَ الرُّوميَّ، الدّيكَ ٱلَّذي يَفْرُدُ ذَيْلَهُ كَمِرْوَحَةٍ كَبيرةٍ وَتَتَدَلّى زَوائِدُهُ ٱللَّحْمِيَّةُ مِنْ فَوْقِ مِنْقارِهِ وَمِنْ تَحْتِهِ؟ أتَعْرِفونَ أميرَ الدِّيَكَةِ، ٱلأميرَ الضَّخْمَ، ٱلَّذي تَبيضُ أُنثاهُ بَيْضَةً في حَجْمِ ثلاثَةِ بَيْضاتٍ مِنْ بَيْضِ الدَّجاجِ؟ أتَعْرِفونَ بَيْضَةَ الدَّجاجَةِ الرّوميَّةِ، البَيْضَةَ ٱلمُرَقَّطَةَ ٱلَّتي تَكْفي واحِدَةٌ مِنْها وَجْبَةً لطفلٍ مِثْلي؟... ما أحْلى الدّيكَ الرّوميَّ وأُنثاهُ، ما أحْلى هذا ٱلعِراكَ الصَّعْبَ بَيْنَ ديكَيْنِ رومِيَّيْنِ.

ها نَحْنُ نَسْمَعُ خَبْطَةَ ٱلأجْنِحَةِ وَخَبْطَةَ ٱلمَناقيرِ. نَسْمَعُ الصَّوْتَ ٱلمُتَوَهِّجَ لِذَكَرَيْنِ مُمْتَلِئَيْنِ ذُكورَةً، يَعْرِفُ أحَدُهُما أنَّ ٱلغَلَبَةَ صِنْوُ ٱلآنْكِسارِ، لكنَّ الصِّراعَ يَجْعَلُ ٱللُّعْبَةَ أكْثَرَ مِنْ لُعْبَةٍ، بَلْ يَجْعَلُها تَوْأَمَ حياةٍ لا تَسْتَوي إلّا بٱللُّعْبَةِ. لذلِكَ تَشْتَدُّ خَبْطَةُ ٱلأجْنِحَةِ، وَيَشْتَدُّ ٱحْمِرارُ

اَللَّحْمِ، تَشْتَدُّ الاَنْتِفاخاتُ واَلهواجِسُ، وَيَعْلو صُراخُنا.

يَقْتَرِبُ الدّيكُ مِنَ اَلآخَرِ وَيَعْلوهُ قَبْلَ أنْ يَنْقُرَهُ على الرَّأسِ. يَتَطايَرُ الرّيشُ، وَتَتَطايَرُ اَلعُيونُ. نَقْرَةٌ مِنْ هذا وَنَقْرَةٌ مِنْ ذاك. الذَّيْلُ مَفْرودٌ على آخِرِهِ، وَاَلأجْنِحَةُ تُلامِسُ اَلأرْضَ كأيْدي اَلمُصارِعينَ قَبْلَ اَلالْتِحامِ. وَنَصْرُخُ هيّا أيُّها الدّيك... هيّا يا اَبْنَ اَلكَلْب.

يَبْتَعِدُ الدّيكانِ كأنَّهُما يَتَمَهَّلانِ لاَنْقِضاضٍ أخيرٍ. وَنَتَرَقَّبُ: هيّا يا اَبْنَ اَلكَلْبِ. وَحينَ يَهْدآنِ قَليلاً، نَدْفَعُ أحَدَهُما في اَتِّجاهِ اَلآخَرِ، بَلْ نَجُرُّهُ جَرّاً، فَيَبْدَأُ اَلعِراكُ مِنْ جَديد.

وَهُنا، وَقَبْلَ أنْ يَسْقُطَ أحَدُ اَلخَصْمَيْنِ، تَرْكُضُ أُمُّنا صارِخَةً: «يا زَبانِيَة... أنْتُم وُحوش». وَنَرْكُضُ مِنْ ساحَةِ الدّارِ قَبْلَ أنْ ينالَنا حَجَرٌ أو ضَرْبَةُ عَصا.

نَعَمْ يا صاحِبي، كُنّا صِغاراً آنَذاكَ، صِغاراً يَلْهونَ بِصِراعِ الدِّيَكَةِ، أو يَسْحَبونَ اَلبَيْضَ مِنْ تَحْتِ الدَّجاجاتِ قَبْلَ أنْ يَفْقُسَ اَلبَيْضُ. ويا ما كَسَرْنا اَلبَيْضَ فَوَجَدْنا فيهِ الصّيصانَ اَلعارِيَةَ، الصّيصانَ الدَّبِقَةَ اَلمُبْتَلَّةَ اَلَّتي لَمْ تَكْتَمِلْ، ويا ما وَجَدْنا صَفاراً مُغَطّىً بالدَّمِ، أوْ عَلَقاتٍ شَبيهةً بِصِغارِ الضَّفادِعِ.

نَحْنُ نُحِبُّ ٱلأَشْياءَ قَبْلَ أنْ تَكْتَمِلَ، نُحِبُّ صِراعَ الدِّيَكَةِ حينَ لا يكونُ فيها غَلَبَةٌ لِدِيكٍ، وَنُحِبُّ ٱلبَيْضَ ٱلَّذي لَمْ تَكْتَمِلْ فيهِ ٱلأجِنَّةُ. نُحِبُّ ٱلمناقِيرَ ٱلقوِيَّةَ، وَصَخَبَ الرّيشِ. هكذا نَحْنُ يا صاحبي، وهكذا هي حياتُنا. لَمْ نَكُنْ نَحْنُ سَبَباً في صِراعِ ٱلحَيَواناتِ. إنَّها مُنْدَفِعَةٌ إلى ذلكَ بِغَريزَتِها. لكِنَّنا كُنّا نَزيدُ ٱلأمْرَ إثارَةً حينَ نَجْعَلُ الصِّراعَ صِراعاً لا بُدَّ مِنْهُ... أتَعْرِفُ كَيْفَ يا صاحِبي؟ سأقولُ لكَ إنَّنا كُنّا نَدْفَعُ ٱلأكْباشَ بَعْضَها صَوْبَ بَعْضٍ نُمْسِكُها مِنْ قُرونِها، وَلَمْ يَكُنِ ٱلأمرُ يَحْتاجُ إلى جُهْدٍ كبيرٍ. يَكْفينا أنْ نُقَرِّبَ كَبْشاً مِنْ كَبْشٍ فَيَبْدَأُ ٱلعِراك. وعِراكُ ٱلأكْباشِ لا يُشْبِهُ عِراكَ الدِّيَكَةِ الرّوميَّةِ. إنَّها عنيفَةٌ، تَرْتَفِعُ وَتَتَصادَمُ في ٱلهواءِ فَيَنْتَفِضُ بَيْنَ أصْوافِها ٱلغُبارُ ٱلحَنون.

تَتَشابَكُ ٱلقُرونُ فَتَهْدَأُ، كأنَّها لَنْ تَتَعارَكَ بَعْدَ ذلِكَ، لكِنَّها تَنْقَضُّ حينَ تُفْلِتُ قُرونَها. الجَبينُ على ٱلجَبينِ، وَصَوْتُ النَّطْحِ كَصَوْتِ الطَّبْل.

تَتَراجَعُ قَليلاً ثُمَّ تَنْقَضُّ ثانِيَةً. تَتَراجَعُ وَتَنْقَضُّ. يَسْقُطُ كَبْشٌ على ٱلأرْضِ ثُمَّ يَنْهَضُ، يَسْقُطُ ثانِيَةً ثُمَّ يَنْهَضُ لِيَهْرُبَ

بَعيداً. وَلَقَدْ رَأَيْنا أَكْباشاً هارِبَةً مَكْسورَةَ ٱلقُرونِ، تَظَلُّ تَعْوي كاَلكِلابِ أيّاماً حتّى يَلْتَئِمَ جُرْحُها.

عادَةً، يَحْتَفِظُ ٱلأهْلونَ بِكَبْشٍ واحِدٍ، كَبْشٍ مُنْتَصِرٍ يَظَلُّ يَحومُ حَوْلَ نِسائِهِ. وٱلمُنْتَصِرُ مُدَلَّلٌ، يَضَعونَ على صَدْرِهِ مادَّةً مُلَوَّنَةً لِيَعْرِفوا كَمْ مِنَ ٱلإناثِ مَرَرْنَ مِنْ تَحْتِهِ، وَيُطَوِّقونَ عُنُقَهُ بِجَرَسٍ وَبِبَعْضِ ٱلخَرَزِ: إنَّهُ يَقْتَرِبُ مِنَ النِّعاجِ وَيَعْلوها في حَرَكَةٍ غريبَةٍ. تَرْكُضُ النَّعْجَةُ أوَّلَ ٱلأمْرِ ثُمَّ تَسْتَسْلِمُ في هُدوءٍ لا يُعَكِّرُهُ إلّا لُهاثُ ٱلكَبْشِ وَحَرَكَةُ أَلْيَتِهِ ٱلَّتي تَتَمايَلُ يَميناً ويَساراً. نَصْرُخُ: هيّا... هيّا يا ٱبْنَ ٱلكَلْبِ، وَيَنْظُرُ واحِدُنا إلى ٱلآخَرِ في خُبْثٍ واضِحٍ.

كُلُّ ٱلحَيَواناتِ كِلابٌ، أو شَبيهَةٌ بِٱلكِلابِ: الدَّجاجُ والنِّعاجُ وٱلعَصافيرُ، هكذا نَفْهَمُها نَحْنُ الصِّغارَ، وهكذا نَشْتُمُها. بَيْدَ أنّي كُنْتُ مُعْجَباً بِبَغْلَيْ باقي كازمو. وباقي كازمو، سائِسُ عَرَبَةٍ، وَعَرَبَتُهُ، (ٱلحَنْطورُ)، تَنْقُلُ الرُّكّابَ مِنْ أوَّلِ مَدينةِ ٱلقامِشْلي إلى آخِرِها.

كانَ باقي كازمو يَضَعُ سِياجاً صَغيراً مِنَ ٱلأسْلاكِ الشّائِكَةِ وَراءَ عَرَبَتِهِ، حتّى لا نَجْلِسَ على ٱلعارِضَةِ ٱلَّتي تَصِلُ ما بَيْنَ

ٱلعَجلَتَيْنِ ٱلخَلْفِيَّتَيْن. وكانَ مِنْ عادَتِنا أنْ نَجْلِسَ على ٱلعارِضَةِ تِلْكَ، كَيْ نَخْتَصِرَ ٱلمَسافاتِ، وكانَ هذا دَأْبَنا مَعَ كُلِّ عَرَبَةٍ مِنْ عَرَباتِ نَقْلِ الرُّكّابِ. لكنَّ بَعْضَ ٱلأشْقياءِ مِنّا، حينَ لا يَقْدِرُ على الرَّكْضِ وراءَ ٱلعَرَبَةِ، يَصْرُخُ: «سوط... سوط...»، وَتِلْكَ إشارَةٌ يَفْهَمُها ٱلحُوذِيّونَ، وَيَفْهَمُها باقي كازمو، ٱلَّذي يُلْهِبُ بِسَوْطِهِ بَغْلَيهِ لِيَرْكُضا، ثُمَّ يَلْتَفِتُ إلى ٱلوَراءِ وَيَصْرُخُ: «خُذوا»، فَيَلْتَهِبُ ظَهْرُنا مِنْ ضَرْبَةِ سَوْطِهِ، فَنُلْقي بأنْفُسِنا على الرَّصيفِ وَنَتَدَحْرَجُ. وَكُنّا نَتَمَنّى أنْ نَسْلَخَ بَغْلَيْهِ ذاتَ يَوْمٍ. لكِنَّني كُنْتُ مُعْجَباً بِهِما، مُعْجَباً بناصِيَتَيْهِما ٱللَّتَيْنِ يَتَدَلّى عَلَيْهِما ٱلخَرَزُ والشَّناشيل.

وٱلحَقَّ أقولُ يا صاحبي، كانَ في وُسْعِنا أنْ نَسْلَخَ ٱلحَيواناتِ. أتَعْرِفُ كَيْفَ نَسْلَخُ ٱلحيواناتِ ٱلمَيْتَةَ؟ دَعْني أُخْبِرْكَ ما لا تَعْرِفُهُ مِنْ أمْرِ ذلكَ:

كانَ أطْفالُ حارَتِنا فُقَراءَ. كانوا فُقَراءَ حتّى ٱلعَظْمِ، يَأْكُلُ بَعْضُهُم طينَ ٱلجُدْرانِ، وكانوا إذا أكْثروا مِنْ تناوُلِ الطّينِ يأخُذونَهُم إلى أطِبّاءِ ٱلمَدينَةِ، فَيَقولُ ٱلأطِبّاءُ إنَّها عادَةٌ خبيثَةٌ، (لا أقولُ ذلكَ مِنْ قَبيلِ ٱلمُبالَغَةِ، ٱسْألوا ٱلأطِبّاءَ عن آكِلي

الطّينِ)، وكانَ هؤلاءِ ٱلأطْفالُ مُسْتَعِدّينَ لِفِعْلِ أيِّ شَيْءٍ مِنْ أجْلِ كَسْبِ مَصْروفٍ صَغير.

... وعادَةً، حينَ يُصْبِحُ ٱلبَيْطَرِيّونَ أطِبّاءَ لِلْبَشَرِ، تَزْدادُ ٱلحَيَواناتُ النّافِقَةُ، (وٱلبَشَرُ النّافِقونَ). وكانَ ثَمَّتَ وادٍ قريبٌ مِنَ ٱلمَدينةِ، يَرْمي فيهِ النّاسُ حَيواناتِهِمُ ٱلمَيْتَةَ، وَحَيْثُ تَكونُ ٱلحَيَواناتُ ٱلمَيْتَةُ يكونُ ٱلأطْفال.

هُناك كانَتْ سكاكينُ ٱلمَطابِخِ ٱلمَسْروقَةُ تَفْعَلُ فِعْلَها، فَتَسْلَخُ ٱلجُلودَ عَنِ ٱللُّحومِ النَّتِنَةِ، لكنَّ رائِحَةَ ٱلكَسْبِ كانَتْ أقْوى مِنْ كُلِّ رائِحَةٍ... وهكذا يَخْرُجُ طِفْلٌ، أوْ طِفْلانِ، بِغَنيمةٍ دَسِمَةٍ، حَيْثُ تُساوِي جَزَّةٌ مِنَ الصّوفِ ليرةً أو ليرتَيْن. نَعَمْ يا صاحِبي، الجَزَّةُ تُساوي ليرتَيْنِ، وٱللّيرَتانِ تُساوِيانِ دُخولَ ٱلمَسْبَحِ الشَّعْبيِّ أوِ السّينما أرْبَعَ مرّات.

كُنّا أطْفالاً نَهْتَمُّ بٱلمَوْتى، وَنَعيشُ بٱلمَوْتى. هذا دَأْبُنا. لكنَّنا نَعيشُ بأشياءَ أُخرى غَيْرِ ٱلخُبْز.

إنَّنا نَعيشُ مِنَ التَّهْريبِ أيْضاً... أتَعْرِفُ كَيْفَ يعيشُ ٱلأطفالُ مِنَ التَّهْريبِ؟ تلك مَسْأَلَةٌ مُعَقَّدَةٌ، لكنْ دَعْني أُفَسِّرْها لَكَ:

مَدينَتُنا على تُخومِ تُرْكيا. بَيْنَنا وَبَيْنَها خَطٌّ مَديدٌ مِنَ

آلأسْلاكِ الشّائِكَةِ، لكِنَّهُ لا يَثْنينا عَنْ عَزْمِنا على دُخولِ بلادٍ لا نَعْرِفُها... وَنَدْخُلُ تُرْكيا عَبْرَ دَغْلٍ صَغيرٍ من أشْجارِ آلكينا وَآلعُلَّيْق. يَقولُ لَنا دَليلُنا الصَّغيرُ مِثْلَنا، (١٢ سنة)، إنَّه يَعْرِفُ مَكانَ آلألْغامِ، وآلأتْراكُ لا يَعْرِفونَ كَيْفَ يَنْصُبونَها جَيّداً. ويَقولُ دَليلُنا الصَّغيرُ: إذا وَطِئْتُمْ مَكاناً لَيِّناً، وَسَمِعْتُمْ صَوْتَ طَرْطَقَةٍ ضَعيفةٍ فَهُناكَ لُغْمٌ. وإذا وَطِئْتُمْ لُغْماً فلا تَتَحَرَّكوا قَطُّ، وأنا كفيلٌ بآلباقي... وَنَدْخُلُ ماردينَ، مَدينةَ الزَّبيبِ وَمُشْتَقّاتِ آلعِنَبِ. نُبادِلُ النّاسَ هُناكَ التَّمْرَ بالتَّبْغِ. (لا نَخْلَ في تُرْكيا، وَكيلو التَّمْرِ يُساوي خَمْسَ عُلَبٍ مِنَ التَّبْغِ آلفاخِرِ). ونَبيعُ التَّبْغَ، حينَ نَعودُ، إلى آلبقّالينَ بِسِعْرٍ بَخْس.

كُنّا أطْفالاً يا صاحبي، لا نَعْرِفُ أنَّ مَمَرّاتِ آلأدْغالِ هيَ مَمَرّاتٌ تَصِلُ بِلاداً بِبِلادٍ، بَلْ كُنّا نَشْعُرُ أنَّ آلأرْضَ مُسْتَوِيَةٌ تَماماً، وأنَّ آلحُدودَ آلَّتي يَرْسُمُها آلكِبارُ هيَ حُدودُ آلكِبارِ وَحْدَهُم. لذلِكَ، نَصَبْنا فِخاخَنا تَحْتَ آلأسْلاكِ الشّائِكَةِ، تَحْديداً، حَيْثُ تَحُطُّ آليَماماتُ آلبَرِّيَّةُ بِحُرِّيَّةٍ لَمْ نَعْتَدْها في بِلادِنا. وَكُنّا إذا حَظينا بِيَمامَةٍ رَكَضْنا إلَيْها بِفَرَحٍ وَبِرُعْبٍ، خِشْيَةَ أنْ يُطْلِقَ آلجُنودُ آلأتْراكُ النّارَ عَلَيْنا. (لا تَمُرُّ لَيْلَةٌ إلّا نَسْمَعُ فيها طَلَقاتِ

ناريَّةً مُصَوَّبَةً على ٱلمُهَرّبينَ)، لكنَّ تُرْكيا قَريبةٌ جِدّاً، قَريبَةٌ إلى دَرَجَةِ ٱلمُصاهَرَةِ، وما زِلْنا نُحِبُّ الآسِتانة، (يُحِبُّها آباؤنا)، ولا نُحِبُّ أتاتوركَ، بِرَغْمِ أننا نُرَدِّدُ في عَفْوِيَّةٍ عَنْ واحِدٍ من سُلالَتِهِ:

«يـا شـا يـا شـاشـا جَـمـال غـورسـيـل بـاشـا»

في هذهِ ٱلأثْناءِ، في أثْناءِ ٱلأعْوامِ الطَّريَّةِ جِدّاً كَفَخْذِ ٱلبَقَرَةِ، كُنّا نَهْتَمُّ بأشْياءَ أُخْرى، وَنَنْتَظِرُها بِفَرَحٍ لا يُوصَفُ: أَحَدُها مَوْسِمُ ٱلحَصادِ، والثّاني مَوْسِمُ سَلْقِ ٱلقَمْحِ لِجَرْشِهِ، وَجَعْلِهِ بُرْغُلاً. كانَتْ هاتانِ مُناسَبَتَين طَرِيَّتَينِ كأعْمارِنا. في ٱلحَصادِ نَنْتَظِرُ أنْ تَتَهَيَّأَ ٱلحَصّاداتُ الضَّخْمَةُ ذواتُ ٱلمَراوِحِ ٱلخَشَبِيَّةِ وأمْشاطِ ٱلحَديد. وكانَ يَلْزَمُها - مِنْ أجْلِ أنْ تَتَهَيَّأَ - وَقْتٌ مِنَ الصِّيانَةِ مَلِيءٌ بِٱلمَرَحِ: يُغَيِّرونَ ٱلأمْشاطَ ٱلحَديدَ، يَفُكّونَ ٱلمَراوِحَ قِطْعَةً قِطْعَةً، وكذلكَ الدَّرّاساتُ ٱلَّتي تَفْصِلُ ٱلقَمْحَ عَنِ التِّبْنِ، (كُلُّ ذَلِكَ يَتِمُّ في ٱلخَلاءِ، حَيْثُ تُنْصَبُ خَيْمَةٌ كَبيرةٌ، وَيَجْتَمِعُ عَدَدٌ هائِلٌ مِنَ ٱلعامِلينَ).

كانَتِ ٱلآلاتُ الصَّغيرةُ تَسْتَهْوينا: المَطارِقُ وَمِفَكّاتُ ٱلبراغي. الكمّاشاتُ وٱلأمْشاطُ ٱلحديدُ الصَّغيرةُ. كُنّا نَسْرِقُها أحْياناً، وَنُوهِمُ أنْفُسَنا أنَّنا نُعيدُ صِياغَةَ ٱلعالَمِ على حيطانِ ٱللِّبْنِ.

نَقْشُرُ ٱلحيطانَ بآلآلاتِ، نَقْشُرُ مِساحاتٍ كَبيرةً فَتَبْدو قَوالِبُ الطِّينِ مِنْ تَحْتِها مُتَرَاصَّةً في صَلابَةٍ. نُخَبِّىءُ آلآلاتِ في حُفَرٍ تَحْتَ ٱلأَرْضِ، وَنُغَطِّيها بالتُّرابِ، ثُمَّ نَقْتَرِبُ مَرَّةً ثانِيَةً مِنْ عُمّالِ الصِّيانَةِ. نُغافِلُهُم لِنَضَعَ أيدِيَنا في الزُّيوتِ والشُّحومِ. نَفْرُكُ أيدِيَنا بَعْضَها بِبَعْضٍ، فَيَنْتابُنا شُعورُ عُمّالٍ حَقيقيّين.

وَلِلْحَصادِ، بَعْدَ ذلِكَ، نَكْهَةٌ خاصَّةٌ: الحصّاداتُ تُعَرّي ٱلأَرْضَ مِنْ ذلكَ النَّباتِ الذَّهبيِّ ٱلهَشِّ، تماماً كَما نَتَعَرّى مِنْ قِنْبازاتنا قَبْلَ ٱلآنْزِلاقة إلى التُّرَع. وآلحَصّادتُ أشْبَهُ بغيلانٍ أليفةٍ، نَرْكُضُ مِنْ وَرائِها حَيْثُ يَتَناثَرُ ٱلقَشُّ عالِياً بَفِعْلِ ٱلمَراوِحِ، بَعْدَ أنْ تَنْفَصِلَ ٱلحِنْطَةُ عَنْ سَنابِلِها. نَرْكُضُ وَراءَها لِتَلُفَّنا زَوابعُ ٱلقَشِّ. نُبَعْثِرُهُ وَنَتَخَبَّطُ فيهِ فَتَمْتَلِىءُ ذُؤاباتُنا وثِيابُنا بآلقُشور.

وآلكبارُ يَرْكُضونَ أيْضاً وَراءَ ٱلحَصّاداتِ. الرِّجالُ والنِّساءُ. إنَّهُم يَجْمَعونَ ٱلقَشَّ في حُزَمٍ كَبيرةٍ وَيَنْقُلونَها على ظُهورِ ٱلحميرِ، لِتُصْبِحَ عَلَفاً في ما بَعْدُ، أو لِتَمْتَزِج بالتُّرابِ ٱلأحْمَرِ آلَّذي يَصْنَعونَ مِنْهُ لَبِناتِ آلبِناء... كُلُّ شَيْءٍ، هُنا، مِنْ طينٍ يا صاحِبي، الأرْضُ طينٌ وآلبُيوتُ طينٌ، وكذلكَ الطُّرُقُ. وَحَيْثُ يَكونُ الطِّينُ يَكونُ ٱلقَشُّ. وَنَعْتَقِدُ، بَعْدَ ذلكَ، أنَّنا

وُلِدْنا مِنَ ٱلقَشِّ، وأنَّنا سَنَصيرُ إلى قَشٍّ، وَأنَّ حُدودَ ٱلأرْضِ هيَ حُدودُ الرّياحِ ٱلَّتي سَتَحْمِلُنا مَعَها. أمّا مَوْسِمُ سَلْقِ ٱلحِنْطَةِ فَهُوَ ٱلمِهْرَجانُ. إنَّنا نَشْتَري الصَّناديقَ ٱلخَشَبَ ٱلفارِغَةَ، وكذلكَ ٱلإطاراتِ ٱلمَطّاطيَّةَ. نَضَعُ الدَّسْتَ ٱلكبيرَ على حِجارَةٍ ضَخْمَةٍ وَنُشْعِلُ النّارَ. تَغْلي ٱلمياهُ رُوَيْداً رُوَيْداً طُولَ النَّهارِ. تَنْتَفِخُ ٱلحُبوبُ وَتَلينُ. تَنْتَفِخُ وَتَنْفَجِرُ مِنْ شِدَّةِ سَلْقِها. حِينَئِذٍ تَنْبَسِطُ ٱلحُصُرُ على السُّطوحِ، وَتَعْلو الدِّلاءُ مُمْتَلِئَةً وَتَهْبِطُ فارِغَةً. تَعْلو وَتَهْبِطُ، وَيَنْبَسِطُ السَّليقُ ٱلأصْفَرُ دَلْواً إلى جانِبِ دَلْوٍ.

أطْفالُ ٱلحارَةِ كُلُّهُم يَجْتَمِعونَ قُرْبَ الدَّسْتِ الضَّخْمِ، كُلٌّ يَحْمِلُ طاسَةً أو صَحْناً. يَنْتَظِرونَ مِنَ الصَّباحِ. يَذْهَبُ ٱلبَعْضُ ويَأْتي ٱلبَعْضُ ٱلآخَرُ، في مُناوَبَةٍ طَويلةٍ، كأنَّما يَخْشَوْنَ فَواتَ ٱلأوانِ. وَحينَ يَتِمُّ السَّلْقُ، يأخُذونَ حِصَصَهُمُ الصَّغيرةَ. يَرُشّونَ على ٱلحِنْطَةِ قَليلاً مِنَ السُّكَّرِ، أوْ يَمْزِجونَها بالسَّمْنِ وٱلمِلْحِ، ويأكُلونَها في شَهِيَّةٍ حَقيقيَّةٍ.

تِلْكَ مَأْدُبَتُنا الصَّغيرةُ يا صَاحبي، لكِنَّ ٱلمَأْدُبَةَ ٱلكبيرَةَ، مَأْدُبَةَ الدَّمِ ٱلَّذي يُغَطّي باحاتِ ٱلبيوتِ، فَلَها مَوْسِمُها أيْضاً.

في آخِرِ الصَّيْفِ، وَبَعْدَ ثاني دُفْعَةٍ مِنَ ٱلمَطَرِ ٱلَّذي يَتَساقَطُ

أحْمَرَ كالطّينِ، تَبْدَأُ آلمَجْزَرَةُ، إذْ يَبْدَأُ آلجَزّارونَ بِشَحْذِ بَساطيرِهِم وسكاكينِهِم، فَتَتَساقَطُ آلحَيَواناتُ الصَّغيرَةُ وآلكبيرةُ، فَوْجاً فَوْجاً، وَيَكْثُرُ آللَّحْمُ والثَّريد.

كُلُّ بَيْتٍ يُهَيِّىءُ خِرافَهُ أوْ أبْقارَهُ للذَّبْحِ. على مَدى أشْهُرٍ يَتِمُّ تَعْليفُها حتّى تَمْتَلِىءَ أجْسامُها، لِتصيرَ مَؤونَةَ خريفٍ وَشِتاءٍ كامِلَيْنِ.

وَكُلُّ بَيْتٍ يَتَعاقَدُ مَعَ جَزّارٍ، وَآلجَزّارُ لا ينالُ أجْراً نَقْديّاً، بَلْ يَسْتَأْثِرُ لِنَفْسِهِ بِجِلْدِ الضَّحيَّةِ وأمْعائِها: هذا هُوَ بَدَلُ أتْعابِهِ.

كُنّا صِغاراً يا صَاحبي، نَتَحَلَّقُ حَوْلَ هذا الرَّجُلِ آلجَلِفِ، الرَّجُلِ الصّامِتِ آلَّذي يَلْوي عُنُقَ آلبَقَرَةِ مِنْ قُرونِها حتّى تَسْقُطَ أرْضاً، ثُمَّ تَتَحَرَّكُ يَدُهُ حَرَكَةً خفيفَةً جِدّاً، حَرَكَةً حَذِقَةً، وَيَنْفِرُ الدَّمُ عالياً، يَنْفِرُ في خَيْطٍ رَفيعٍ وقَوِيٍّ. وحينَ تَتَّسِعُ مَسافَةُ آلجُرْحِ بَيْنَ الرّأْسِ وآلجِذْعِ تَبْدَأُ آلينابيعُ آلحَمْراءُ السّاخِنَةُ آنْدِفاعاتِها، وَتَسيلُ على التُّرابِ فاتِحَةً فيهِ أخاديدَ ضَيِّقَةً، أو تَفيضُ فَتَتْرُكُ على آلأرْضِ بِرْكَةً يَعْلوها بُخارٌ خَفيف.

جَميلٌ هُوَ دَمُ آلحَيَوانِ، قُرْمُزِيٌّ أو قانٍ وَلَهُ رائِحَةٌ تَجْذُبُ آلقِطَطَ وَآلكِلابَ فَتَلِغُ فيهِ. وَحينَ يُهيلونَ التُّرابَ على الدَّمِ،

يَسْتَلُّ ٱلجَزّارُ مِدْيَةً صَغيرَةً حادَّةً كَشَفْرَةِ ٱلحِلاقَةِ. يَنْسَلِتُ ٱلجِلْدُ عَنِ ٱللَّحْمِ كالثَّوْبِ، في تُؤَدَةٍ وَهُدوءٍ. وٱلجَزّارُ حاذِقٌ في فِعْلِ ذلكَ. وَقَدْ يَعْمِدُ إلى وَضْعِ يَدِهِ بَيْنَ ٱلجِلْدِ وَٱللَّحْمِ، بَعْدَ أنْ يَضَعَ ٱلمِدْيَةَ ٱلمُدَمّاةَ في فَمِهِ، وفي ضَرَباتٍ خَفيفَةٍ يَنْحَسِرُ ٱلجِلْدُ، يَنْحَسِرُ في صَوْتٍ أَشْبَهَ بِنَزْعِ ٱللَّصقاتِ الصَّمْغيَّةِ عَنْ ظَهْرِ والدي. وَهَكذا، قِطْعَةً قِطْعَةً، تأخُذُ ٱللُّحومُ طَريقَها إلى حَيْثُ يَنْبَغي أنْ تَكونَ: تُجَفَّفُ ٱلأَضْلاعُ على حِبالِ ٱلغَسيلِ. يُقَدَّدُ ٱللَّحْمُ ٱلأَحْمَرُ، وَتُذابُ الشُّحومُ. ثُمَّ تُوضَعُ كُلُّها في الصَّفائِحِ. يَسْتَهْلِكُ ٱلأَهْلُ مُحْتَوياتِ بَعْضِها، وَيَخْتُمونَ ٱلبَعْضَ ٱلآخَرَ بٱلقَصْديرِ لأيّامِ الشِّتاء.

وفي هذا ٱلمَوْسِمِ، حَيْثُ تَتَراكَمُ النُّفاياتُ مِنَ ٱلعِظامِ وٱلهَمْلِ في ٱلحُقولِ، تَكْثُرُ ٱلحَدَآتُ الصَّغيرةُ، والضَّخْمَةُ الشَّبيهَةُ بالدِّيَكَةِ الرّوميَّةِ. نُراقِبُها مِنْ بَعيدٍ وَنَخْشاها، نُراقِبُها وَهِيَ تَنْقُرُ ٱلغِرْبانَ كُلَّما ٱقْتَرَبَتْ مِنَ ٱلجِيَفِ. وَحَيْثُ نَسْتَثيرُها في حَرَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ، تَفْرُدُ أجْنِحَتَها ٱلكَبيرةَ وَتَعْلو في كِبْرِياءٍ مُدْهِشَةٍ. ولأنَّ ٱلحُقولَ قَريبةٌ مِنَ ٱلبُيوتِ، مُتَشابِكَةٌ مَعَها أو مُتَداخِلَةٌ، يَبْدَأُ طَقْسٌ لَيْليٌّ خاصٌّ، طَقْسٌ مِنْ بناتِ آوى. طَقْسٌ

صاحِبٌ يُخيفُنا، نَحْنُ الصِّغارَ، لكنَّهُ يَنْثُرُ على ٱلأرْضِ الصّامِتَةِ الموحِشَةِ رَنيناً مِنَ ٱلحياة.

وٱبنُ آوى لَيْسَ جَباناً قَطُّ كما يُشيعونَ. إنَّهُ شَرِسٌ حَيْثُ يَتَوَجَّبُ أنْ يَكونَ شَرِساً. أتَعْرِفُ يا صاحبي؟ إسْأَلْ حَسَنَ الصُّوفيَّ ٱلَّذي دَهَمَ حَيَواناً مِنْ هذهِ ٱلفصيلَةِ نَهاراً.

كانَ ٱلحَيَوانُ شارِداً، فٱبنُ آوى أميرٌ في ٱللَّيْلِ فَقَطْ. طارَدَهُ حسن بِحِصانِهِ وَبخَيْزُرانَةٍ طويلةٍ. كانَ يَضْرِبُ ٱلحيوانَ الشّارِدَ كُلّما ٱقْتَرَبَ مِنْهُ، فَيَقْفِزُ ٱبْنُ آوى قَفْزَةً تَصِلُ فيها مَخالِبُهُ إلى عَيْنَيِ ٱلحِصانِ. ويَقولُ حَسَن إنَّ عِرَاكَ ٱبْنِ آوى دامَ ساعتَيْنِ، إلى أنْ سَقَطَ مِنَ ٱلإعْياءِ، فَوَطِئَهُ بحوافِرِ حِصانِهِ حتّى ٱلمَوْت. وحَسَنُ الصّوفيُّ، حينَ يَصِفُ شجاعَةَ ٱبنِ آوى، لا يُبالِغُ. أتَسْأَلُني لِماذا؟ لأنَّ حَسَنَ الصّوفيَّ كانَ يُغَطّي وَجْهَهُ بِحَطَّتِهِ وَيَدْهَمُ ـ مُداهَمَةَ ٱلمَوْتِ ٱلأخيرَةَ ـ قُرى ٱبْنِ عبّاس ٱلبدويّ. يُطْلِقُ النّارَ مِنَ ٱلعراءِ ٱلمَكْشوفِ على ٱلبُيوتِ، وعلى ٱلمُخْتَبِئينَ خَلْفَها بِبَنادِقِهِم، ثُمَّ يَنْجو، سائِقاً أمامَهُ قطيعاً مِنَ ٱلغَنَم.

وكانَ حَسَنُ لا يَبْتَعِدُ بٱلقطيعِ طَويلاً، خِشْيَةَ أنْ يَلْحَقَ بِهِ ٱلمُطارِدونَ، بَلْ يُؤْثِرُ أنْ يَتْرُكَ، بَعْدَ كُلِّ فَرْسَخٍ، قِسْماً مِنْهُ. إلّا

أَنَّهُ يَحْتَفِظُ، أخيراً، بِنَعْجَتَيْنِ أو ثلاثٍ، وهذا ما يَكْفيه.

... كانَ زَمَنُ نَهْبٍ، يا صاحبي، في أواخِرِ هذا ٱلقَرْنِ.
وفي أواخِرِ هذا ٱلقَرْنِ، أو أقلِّهِ، كُنّا أطْفالاً مَنْذورينَ للنَّهْبِ.

فاصل ثالث

في الـحريق وفي الصَّيْد

كُنّا نَنْقُلُ ٱلماءَ في صَفيحَةٍ صَدِئَةٍ، راكِضينَ بَيْنَ النَّهْرِ وَجُحْرِ ٱلخُلْدِ ٱلأعْمى. نَصُبُّ ٱلماءَ في فُتْحَةِ ٱلجُحْرِ وَنَعودُ فَنَمْلأُ الصَّفيحَةَ، وَنَعْرِفُ أَنَّنا لَنْ نَنْتَظِرَ طَويلاً.

بَعْدَ حينٍ يَطْفَحُ ٱلجُحْرُ بِٱلماءِ. تَعْلو فُقّاعاتٌ صَغيرةٌ، وَرُوَيداً رُوَيْداً يَخْرُجُ ٱلخُلدُ ٱلمُبْتَلُّ. وٱلخُلْدُ ٱلأعْمى أعْمى بالطَّبْعِ، لكِنَّ حاسَّةَ الشَّمِّ ٱلقَوِيَّةَ لَدَيْهِ تُعْطيهِ بَصيرةً لا يَصْطَدِمُ مَعَها بِشَيْءٍ. إلّا أنَّنا نُحيطُ بِهِ أخيراً. نُمْسِكُه مِنْ ذَنَبِهِ وَنَضَعُهُ في الصَّفيحَةِ.

هذهِ هي طريقَتُنا في ٱلتِقاطِ ٱلخُلْدِ، وفي ٱلتِقاطِ يَرابيعِ ٱلحُقولِ. وَٱللُّعْبَةُ لا تَنْتَهي عِنْدَ هذا ٱلحَدّ.

يَلْهَثُ ٱلخُلْدُ مَذْعوراً، وَنَبْتَهِجُ لِذُعْرِهِ. نَحْفِرُ حُفْرَةً واسِعَةً وَنَمْلأُها بِماءِ النَّهْرِ، ثُمَّ نُطْلِقُ ٱلخُلْدَ فيها فَيَسْبَحُ مِنْ ناحِيَةٍ إلى

ناحِيَةٍ، وَكُلَّما هَمَّ بِٱلخُروجِ دَفَعْناهُ إلى ٱلماءِ بِعَصا. لا تَمْضي ساعَةٌ إلّا وَيَكونُ قَدِ ٱنْتَفَخَ كَٱلقِرْبَةِ فَتَهْدَأُ حَرَكَتُهُ. يُحاوِلُ ٱلخُروجَ في يأسٍ، وَحينَ يَعْيا عَنْ ذلكَ يَنْهارُ. ساعَتَئِذٍ تَنْهالُ عَلَيْهِ حِجارَتُنا. يَفْتَحُ فَمَهُ ٱلمُدَمّى وَيَغوصُ لِيَطْفوَ جُثَّةً هامِدَةً. وهذا ما نَفْعَلُهُ بِٱليرابيعِ أيْضاً. لكنَّ جُحورَ ٱليَرابيعِ مُتَعَدِّدَةُ ٱلمَخارِجِ، وَيَبْعُدُ بَعْضُها عَنْ بَعْضٍ مِقْدارَ مِتْرَيْنِ، وَكُلُّها مُتَّصِلَةٌ مِنْ تَحْتِ ٱلأرْضِ. لذلكَ نَسُدُّ ٱلجُحورَ جَميعاً، إلّا واحِداً، حَيْثُ نَصُبُّ ٱلماءَ فَتَخْرُجُ ٱلواحِدَةُ تِلْوَ ٱلأُخْرى مُنْتَفِخَةً مِنْ كَثْرَةِ ما ٱبْتَلَعَتْهُ.

كُنّا صِغاراً آنَئِذٍ، صِغاراً يَلْهونَ بِمُراقَبَةِ ٱليَرابيعِ وَهِيَ تَخْرُجُ مِنَ ٱلجُحورِ رافِعَةً قوائِمَها ٱلأمامِيَّةَ. تَتَلَفَّتُ سريعاً وَتَحُكُّ مناخيرَها في حَرَكَةٍ مُضْحِكَةٍ.

كانَ هَمُّنا أنْ نَتَصَيَّدَها لِنَلْهُوَ بِعذاباتِها حتّى ٱلمَوْتِ، لكنَّ سُكّانَ ٱلقُرى كانوا يَأْكلونَها، يأْكُلونَ يَرابيعَ ٱلحَقْلِ كَما يأْكُلونَ ٱلقَطا وَٱلقنافِذَ.

وَلِلْقنافِذِ عِنْدَنا ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ ساعاتُ لَهْوٍ لا تَخْرُجُ مِنْها إلّا مَسْلوخَةً.

كُنّا نَمْضي، بَعْدَ ٱلمَغيبِ، إلى ٱلعَراءِ. نَتَحَيَّنُ ٱللَّيالي ٱلَّتي يَتَكَوَّرُ فيها ٱلقَمَرُ. وَحَيْثُ يَبْدأُ ٱلقَمَرُ ٱكْتِساحَهُ تَبْدَأُ ٱلقَنافِذُ ٱكْتِساحَها. وَٱلقَنافِذُ بَطيئَةُ ٱلحَرَكَةِ بعامَّةٍ، لكنَّ دُروعَها الشَّوْكيَّةَ تَجْعَلُ ٱلإمْساكَ بها مَسأَلَةً شاقَّةً. بَيْدَ أنَّنا كُنّا نَحْتاطُ فَنَجْلِبُ مَعَنا ٱلقباقيبَ. نَضَعُها في أرْجُلِنا وندوسُها. وَكُلَّما ٱشْتَدَّ الضَّغْطُ على ٱلقُنْفُذِ نَفَرَ رأسُهُ خارِجَ الدِّرْعِ. حينَئِذٍ لا نَحْتاجُ إلّا إلى سِكّينٍ حادَّةٍ. يَرْتَخي الدِّرْعُ بَعْدَ الذَّبْحِ، فَنَشُقُّهُ مِنْ بَطْنِهِ، وَنُقَشِّرُهُ كاَلمَوْزَةِ.

لكنَّ ٱلقنافِذَ وٱليَرابيعَ ٱلمَسْلوخَةَ وَٱلمُنْتَفِخَةَ تَعودُ حَيَّةً في أحْلامِنا.تَعودُ مُجَنَّحَةً ولها أذيالُ السَّحالي. وَنَهْذي في اللَّيلِ، نَهْذي فيوقِظُنا أهْلونا، فَلا نَغْفو بَعْدَ ذلِكَ إلّا وقَدْ طَلَعَ الفَجْرُ المُؤْنِسُ. إلّا أنَّ حَيَواتِنا ـ نَحْنُ أطْفالَ الشِّمالِ العاري ـ لا أُنْسَ فيها غَيْرُ صَريرِ الزّيزانِ وخَشْخَشَةِ الزَّواحِفِ بَيْنَ العُشْبِ اليابِس.

ولأنَّنا خُلِقْنا هكذا، كُنّا نُحاوِلُ أنْ نَخْلُقَ، بدَوْرِنا، من هذا ٱليَباسِ غِطاءً لِلْحُلُمِ، فَنَجْتَمِعُ في ٱلخرائِبِ ٱلفَرَنْسِيَّةِ، وَهِيَ بَقايا بيوتٍ أو ثُكُناتٍ مِنْ عَهْدِ ٱلاحْتِلالِ، لِصْقَ نَهْرِ الجغجغ، وَلِصْقَ الطّاحونَةِ ٱلمائِيَّةِ ٱلوحيدَةِ، ٱلَّتي لا تَزالُ حَيَّةً بِفِعْلِ ٱلحَرَكَةِ

ٱلعَمْياءِ لِبَغْلَيْنِ يَطْحَنانِ في دَوَرانِهِما ٱلقَمْحَ وَٱلحَياةَ تَحْتَ الرَّحى. وهناكَ، في ٱلخرائِبِ تِلْكَ، كُنّا نَلُفُّ الشّايَ السّيلانيَّ ٱلَّذي نَسْرِقُهُ في وَرَقِ الدَّفاتِرِ، وَنُشْعِلُ ٱللُّفافاتِ مُقَلّدينَ ٱلكِبارَ. لكنَّ ٱلمُقامِرينَ ٱلمُتَسَكِّعينَ كانوا يُزاحِمونَنا على مَأْوانا. وٱلمُقامِرونَ، أولئِكَ، فِتْيانٌ يَرْئِسُهُم دائِماً أحَدُ الزُّعرانِ ٱلكِبارِ. يَجْتَمِعونَ في ٱلخرائِبِ لِيَتَقاسَموا ما غَنِموهُ مِنَ ٱلقَرَوِيّينَ السُّذَّجِ بِألاعيبِهِم. وَهُمْ عُتاةٌ، يَطْردونَنا حينَ يَأْتونَ، ولا يَنْقَضي نَهارُهُم في ٱلاقْتِسامِ مِنْ دونِ أنْ يَنالَ أحدُهُم طَعْنَةً في خاصِرَتِهِ أو ظَهْرِهِ. لكنَّهُم يَنْجونَ دائِماً مِنَ ٱلمَوْتِ، إلّا رشاد الأحول، ٱلَّذي لَمْ يَكْتَفِ زَميلُهُ بِطَعْنِهِ مَرَّةً واحِدَةً، بَلْ شَقَّهُ مِنَ الصَّدْرِ حتّى ٱلبَطْنِ، وَمِنَ ٱلخاصِرَةِ إلى ٱلخاصِرَةِ، ظَلَّ يَصْرُخُ ـ وَهُوَ مُلْقىً وَقَدِ ٱنْدَلَقَتْ أحشاؤُهُ ـ خَمْسَ ساعاتٍ فَلَمْ يُنْجِدْهُ أحَدٌ. نَزَفَ آخِرَ قَطْرَةٍ مِنْ دَمِهِ وماتَ. وَظَلَلْنا نَحْنُ ٱلأطْفالَ نَسْمَعُ صُراخَهُ مَدى شَهْرٍ في أحْلامِنا، بَلْ في يَقَظَتِنا أيْضاً، حينَ يُصْبِحُ الظَّلامُ كَثيفاً كَجِدارٍ في تِلْكَ ٱلأرْضِ ٱلبَخيلَةِ بِٱلمَصابيحِ.

لكنَّ ٱلخرائِبَ ٱلفَرَنْسِيَّةَ تَظَلُّ مَلاذاً، بِرُغْمِ خَوْفِنا مِنَ ٱلخرائِبِ، بَلْ خَوْفِنا مِنْ كائِناتِ ٱلخرائِبِ، وَهِيَ كائِناتٌ

نَسْتَشْعِرُها هائِمَةً حَوْلَنا، تُلامِسُنا أنْفاسُها أحْياناً، أوْ نَكادُ نَجْزُمُ أنَّنا نَسْمَعُ وشْوَشاتِها: إنَّها لامرئيَّةٌ، إنَّها مُسوخُ ماضٍ لا يَعْرِفُهُ إلّا ٱلكِبارُ، إنَّها غيلانٌ وَمَرَدَةٌ بَيْضاءُ تماماً، لها عُيونٌ مَشْقوقَةٌ حتّى آذانِها، وَتَتَهَيّأُ في أيِّ شَكْلٍ تَخْتارُهُ. لكِنَّ أوسمانو يَقولُ: لا تَخافوها ما دامَ مَعَكُمْ دَبّوسٌ مَعْدِنيٌّ، أو إبْرَةُ خِياطَةٍ. وَنَقولُ: أوسمانو كَيْف؟ فَيُجيبُ: إنَّها تَخْشى ٱلإبَرَ، أسَرَتْ جَدَّتي أحَدَ هذهِ ٱلمُسوخِ ٱللّامرئيَّةِ حينَ غَرَزَتْ فيهِ إبْرَةَ ٱلخياطَةِ فأصْبَحَ طَوْعَ بنانِها.

... وأُوسمانو شابٌّ مُحْبَطٌ، طَلَبَ يَدَ ٱبْنَةِ عَمِّهِ فَرَفَضَهُ عَمُّهُ لأنَّهُ يَعيشُ مِنَ ٱلحَرامِ. وأمامَ هذا الرَّفْضِ قَرَّرَ أنْ يَعْمَلَ بِعَرَقِ جَبينِهِ فٱشْتَغَلَ ماسِحَ أحْذِيَةٍ. وأوسمانو يَنْتَمي إلى فَرْعٍ مِنَ ٱلأكْرادِ يُلَقَّبونَ بـ«كولي»، وٱلكوليّونَ ذَوو بأسٍ، يَنْتَصِرُ بَعْضُهُم لِبَعْضٍ حتّى ٱلمَوْت.

كان ٱلكوليّونَ عتّالينَ جاؤوا مِنْ تُرْكيا. ٱغْتَنى بَعْضُهُم وَظَلَّ ٱلبَعْضُ ٱلآخَرُ على حالِهِ. يَتَمَسّكونَ بٱلفَضيلَةِ ولا يُقيمونَ وَزْناً لِلْمالِ أو لِلْجاهِ. وأُوسمانو ٱلكوليُّ مُحْبَطٌ، لَيْسَ مِنْ فَقْرِهِ، بَلْ مِنْ ماضيه.

وأُوسمانو يَجْمَعُنا ـ نَحْنُ الصِّغارَ ـ مِنْ حَوْلِهِ، فَيَسْرُدُ وقائِعَ حَصَلَتْ وأُخْرى لَمْ تَحْصُل قَطُّ. وحينَ يَجْمَعُنا نَفْتَحُ أفواهَنا دَهِشينَ مِنْ حِكاياتِهِ: تَعَلَّقَتِ ٱلمُسوخُ ٱللاّمَرْئيَّةُ بِدَرّاجَتِهِ في مكانٍ قَفْرٍ بَيْنَ قُرى عامودا. هذا ما يَقولُهُ، ويُضيفُ أنَّ ٱلجُرْأَةَ وَضَبْطَ النَّفْسِ هُما، وَحْدَهُما، سِلاحُ ٱلمَرْءِ في مواجَهَةِ ٱلكائِناتِ ٱللاّمَرْئيَّةِ، وَٱلجبانُ يَسْقُطُ صَريعاً مِنَ الذُّعْرِ. يقولُ أُوسمانو إنَّ جَدَّتَهُ حينَ أَسَرَتْ أَحَدَ هذهِ ٱلكائناتِ بإبْرَةِ ٱلخِياطَةِ، صارَ ٱلكائِنُ ٱللاّمَرْئيُّ مَرْئيّاً، أليفاً، يَضَعُ يَدَهُ على جِرارِ السَّمْنِ فَتَفيضُ ٱلجِرارُ، وَتَظَلُّ تَفيضُ حتّى تَأْمُرَهُ ٱلجَدَّةُ بالتَّوَقُّفِ فَيَقِفُ. وَيَقولُ أوسمانو إنَّ جَدَّتَهُ أطْلَقَتِ ٱلكائِنَ، بَعْدَ سنينَ، وَبَعْدَما أقْسَمَ ٱليَمينَ على ٱلكَفِّ عَنْ إخافَةِ ٱلبَشَر.

نَعَمْ، أطْلَقَتْهُ. نَزَعَتْ مِنْهُ إبْرَةَ ٱلخِياطَةِ وَأطْلَقَتْهُ، (لَمْ نَسْأَلْهُ قَطُّ أيْنَ غَرَزَتِ ٱلإبْرَةَ، وَكَيْف). وَبَيْنَ ٱلحِكايَةِ وَٱلحِكايَةِ يَضَعُ أُوسمانو يَدَهُ في جَيْبِ سُتْرَتِهِ الدّاخِليِّ وَيَسْحَبُ صورَةً غامِضَةً: فتاةٌ شَقْراءُ تَجْلِسُ على رُكْبَةِ أوسمانو، وأمامَهُ طاوِلَةٌ عَلَيْها بَعْضُ الزُّجاجاتِ وٱلكؤوسِ. نَعَمْ، إنَّها صورَةٌ غامِضَةٌ لنا، نَحْنُ ٱلأطْفالَ، لكِنَّ أوسمانو يُوضِحُ ٱلأمْر: «كنتُ في اسطنبولَ، وهذه

صديقتي»، ونصرخ «يا أللَّه... أنْتَ بارِعٌ أوسمانو... شَقْراء!» وَيَنْظُرُ بَعْضُنا إلى بَعْضٍ، أو نَسْأَلُهُ: «أتَعْرِفُ صَديقَتُكَ ٱللُّغَةَ ٱلكُرْدِيَّةَ؟»، وَيَنْظُرُ إلينا أوسمانو في ٱسْتِخْفافٍ: «إنَّها مُتَمَدِّنَةٌ جِدّاً جِدّاً»، وٱلمَدَنِيَّةُ، كما يَفْهَمُها أوسمانو، هي ثَوْبٌ قَصيرٌ، وَوَجْهٌ سافِرٌ مُتَبَرِّجٌ، وَلُغَةٌ غَريبةٌ. وٱلحَقُّ مَعَهُ، فَثيابُ أُمَّهاتِنا طَويلَةٌ وَمُعَقَّدَةٌ جِدّاً، وَهُنَّ لا يَسْتَعْمِلْنَ أحْمَرَ الشِّفاهِ، ولا يَفْقَهْنَ أيَّةَ لُغَةٍ في ٱلأرْضِ. «يا لِأوسمانو ٱلعظيمِ» نَهْتِفُ في سَريرَتِنا.

... وَنَنْسى أوسمانو، نَنْسى عَمَّهُ ٱلَّذي جاءَ مِنْ تُرْكيا هارِباً، حينَ وَقَفَ ذاتَ مَساءٍ على بابِ أحمد سالو. وَقَفَ شاهِراً خِنْجَرَهُ ٱلمَعْقوفَ، فَخَرَجَتْ مِنْ تَحْتِ يَدِهِ ٱثْنَتا عَشْرَةَ جُثَّةً... عَشْرَةُ رِجالٍ وٱمْرأتان. وَنَحْنُ أطْفالٌ، وَٱلأطْفالُ لا يَسْألونَ عَنْ أسْبابِ ٱلمَجْزَرَةِ، بَلْ يَعْجَبونَ بٱليَدِ ٱلجسورَةِ ٱلَّتي لا تَخْذُلُ صاحِبَها حينَ تَهْوي بِمِنْجَلٍ أو بِخِنْجَرٍ.

ولأنَّنا مُعْجَبونَ بٱلخارِقِ، بٱلجَسورِ وَٱلقَوِيّ، نَسْرِقُ الزَّيْتَ وَنَدْهَنُ بِهِ أجْسادَنا النّاحِلَةَ على ضِفَّةِ النَّهْرِ. نَقومُ بٱسْتِعْراضاتٍ مُضْحِكَةٍ، ٱسْتِعْراضاتٍ رياضيَّةٍ لَيْسَ فيها عَضَلٌ بل عِظام. وَنَنْزِلُ إلى ٱلماءِ بَعْدَ ٱلاسْتِعْراضِ فلا يَزولُ الزَّيْتُ. نُدَلِّكُ

أجْسادَنا بالطِّينِ وبآلأشنيّاتِ آلخَضْراءِ آلقاسِيَةِ ولا يُزالُ الزَّيْتُ. يَتَبَقَّعُ النَّهْرُ ولا يُزالُ الزَّيْتُ. نَرْجِعُ إلى بُيوتِنا وَثيابُنا الدّاخليَّةُ آلبَيْضاءُ تَحَوَّلَتْ إلى ما يُشْبِهُ آلجِلْدَ آلأسْمَرَ آلمَحْروقَ. نَخْلَعُها في مكانٍ مُنْعَزِلٍ لِنُلْقيَ بِها بَعيداً بَعيداً. ثُمَّ نَرْتَدي، على غَفْلَةٍ مِنْ أهْلِنا، ثِياباً داخِليَّةً نَظيفَةً. وَيَمْضي وَقْتٌ طَويلٌ قَبْلَ أنْ يَكْتَشِفوا النَّقْصَ آلحاصِلَ في غِياراتِنا.

لكنَّنا، هُناكَ، على ضِفافِ آلخابورِ، لَسْنا مُجْبَرينَ على مُمارَسَةِ هذا التَّمْويهِ. فَحَيْثُ نَكونُ بَعيدينَ عَنْ أهْلِنا، نَكونُ بَعيدينَ عَنِ الرُّعْبِ أيْضاً، بَعيدينَ عَنْ ذلكَ آلاضْمِحْلالِ الرّاعِبِ لِطُفولَتِنا. ولا يأتي هذا آلمَوْسِمُ آلمُتْرَعُ بآلحُرِّيَّةِ إلّا صَيْفاً، آنَ يَسْتَدْعينا عَمُّنا آلأكْبَرُ إلى آلعِنايَةِ بِمُسْتَوْدعاتِ آلحُبوبِ آلَّتي يَمْلِكُها قُرْبَ آلخابور.

وَمُشارَكَتُنا هيَ مُشارَكَةٌ صَغيرةٌ، تُقْتَصَرُ على جَمْعِ آلحُبوبِ آلمُتَسَرِّبَةِ مِنَ آلأكْياسِ آلمَثْقوبَةِ كُلَّما حَمَلَتِ الشّاحِناتُ أطْناناً مِنْها عَنِ آلأرْض. وَيَوْماً يَوْماً نُدْرِكُ أنَّنا جَمَعْنا مِنْ تِلْكَ آلحُبوبِ ما يَكْفي قُوتَ عائِلَةٍ كامِلَةٍ طَوالَ السَّنَة.

كانَتِ الشّاحِناتُ تَأْتي مُمْتَلِئَةً فَتُفْرِغُ حُمولاتِها، أوْ تَأْتي

فارِغَةً فَتَمْتَلِىءُ بِحُمولاتِها، وَبَيْنَ ٱلمَجيءِ والرَّواحِ يَأْخُذُنا ماءُ ٱلخابورِ في نُزْهَتِهِ. وٱلخابورُ أميرٌ بَيْنَ ٱلأنْهارِ، عَريضٌ وَمُتَدَفِّقٌ كعاصِفَةٍ. تَتَزاحَمُ على ضِفَّتَيْهِ أشْجارُ الصَّفْصافِ ٱلمُتَّصِلَةُ بِشَبَكاتٍ مِنَ ٱلعُلَّيْقِ ذي التّوتِ ٱلبَرّيِّ الأحْمَرِ، أو يُرْخي شَجَرُ ٱلغَرَبِ غُصونَهُ، وَيُرْسِلُها على ٱلمَاءِ كَشَعْرٍ مَحْلولٍ. كُنّا نَخْتارُ لِنُزْهاتِنا ٱلأماكِنَ ٱلقريبَةَ مِنَ النَّواعيرِ. نَخْلَعُ ثِيابَنا وَنَنْزِلُ إلى ٱلماءِ، حامِلينَ حَبّاتٍ مِنَ ٱلبَطّيخِ الأحْمَرِ. وَحينَ تَبْرُدُ تِلْكَ ٱلحَبّاتُ نَقْتَسِمُها لِنَبْتَرِدَ نَحْنُ في هاجِراتِ الشِّمالِ ٱلَّتي يَذوبُ فيها أسْفَلْتُ الطُّرُقِ نَهاراً.

وَهُناكَ قُرْبَ النَّواعيرِ وَأنينِها ٱلمُتواصِلِ، كانَتْ تَحُطُّ ٱلقَرَوِيّاتُ كأسْرابٍ مِنَ ٱلحَجَلِ، هارِباتٍ مِنَ الظَّهيرةِ إلى ٱلماءِ. وَٱلقَرَوِيّاتُ يَعْمَلْنَ في ٱلحُقولِ كَمُياوِماتٍ. يَقْطُفْنَ مَحاصيلَ ٱلباذِنْجانِ وَٱلفُلْفُلِ وَٱليَقْطينِ وَٱلخِيارِ، مُقابِلَ جُزْءٍ مِمّا قَطَفْنَ. كُلَّ يَوْمٍ يأتي فَوْجٌ جديدٌ، وَكُلُّ فَوْجٍ يُهَرْوِلُ إلى ٱلماءِ في الظَّهيرةِ. ذلكَ دَأْبُهُنَّ.

كُنَّ يَنْزِلْنَ إلى ٱلماءِ بأثوابِهِنَّ الطَّويلَةِ، بَعْدَ أنْ يَتَحَرَّرْنَ مِنَ ٱلمَناديلِ. وَٱلقَرَوِيّاتُ حافياتٌ عادَةً، ولا يَرْتَدينَ ثياباً داخِلِيَّة.

كنّا أطْفالاً آنئذٍ، لا تَعْنينا أجْسادُهُنَّ ٱلَّتي ٱلْتَصَقَتْ بِٱلأثْوابِ فٱتَّخَذَ كُلُّ تَكْويرٍ فيها ٱنْفِلاتاً عَذْباً. ولا تَعْنينا مُداعباتُهُنَّ بَعْضِهُنَّ لِبَعْضٍ. أو بَعْضُهُنَّ لنا ـ نَحْنُ ٱلعُراةَ تَماماً. وكانَتْ أثوابُهُنَّ تَطْفو على ٱلماءِ، تَعْلو حتّى أعناقِهِنَّ حينَ يَغْطُسْنَ، وإذْ يَنْهَضْنَ يُرخينَها في رِفْقٍ. وَكُنّا نَسْتَغْرِبُ أنْ يكونَ لِلْمَرْأةِ شَعْرٌ في جَسَدِها، وَنَظُنُّهُ مُقْتَصَراً على الرِّجالِ. لكنَّ ٱلغريبَ حَقّاً هُوَ أنَّهُنَّ كُلَّما ٱكْتَفَيْنَ مِنْ لَهْوِهِنَّ الصّاخِبِ في ٱلماءِ، خَلَعْنَ أثوابَهُنَّ وَنَشَرْنَها على ٱلعُلَّيْقِ لِتَجِفَّ، وَيَبْقَيْنَ عارِياتٍ، يَتَخَفَّيْنَ وَراءَ الشَّجَرِ حيناً، أوْ يَبْرُزْنَ مِنْ دونِ ٱكْتِراثٍ بِٱلعُيونِ ٱلَّتي تَسْتَقْرِئُهُنَّ. آنَئِذٍ كُنّا نَتَساءَلُ عَنْ أسْبابِ نُزولِهِنَّ إلى ٱلماءِ بأثْوابِهِنَّ، ما دُمْنَ يُجَفِّفْنَها بَعْدَ ذَلكَ وَهُنَّ عارِيات.

بَيْدَ أنَّ ٱلعَداوَةَ كانَتْ تَسْتَفْحِلُ بَيْنَنا وَبَيْنَهُنَّ، حينَ يَخْتَفي ثَوْبُ إحداهُنَّ أو مِنْديلُها. كُنَّ يَتَّهِمْنَ بَعْضَهُنَّ بَعْضاً وحينَ يَتْعَبْنَ مِنَ ٱلجِدالِ يَتَّهِمْنَنا فَيَجْرُرْنَنا مِنَ النَّواصي فَنَعَضُّهُنَّ، وإذْ نُفْلِتُ وَنَبْتَعِدُ ـ ولا نزالُ عُراةً ـ نُؤدّي حَرَكاتٍ بخواصِرِنا أشَدَّ وَقْعاً عَلَيْهِنَّ مِنَ الشَّتائِمِ. وَنَتَمادَى في حَرَكاتِنا لأنَّ ذلكَ يُغيظُهُنَّ: نُمْسِكُ بأغْصانٍ يابِسَةٍ وَنَضَعُها بَيْنَ أفْخاذِنا صارِخين:

هيّا يا بنات الـ... فَيَقْذِفْنَنا بِٱلحِجارَةِ. وَبَعْدَ زَمَنٍ من هذا ٱللَّهْوِ، زَمَنٍ قَصيرٍ، كَرِهْنا ٱلخابورَ لأنَّه ٱخْتَطَفَ مِنّا عَبْدَ ٱلمجيد جاجان. بَحَثَ أَهْلُهُ عَنْ جُثَّتِهِ أرْبَعَةَ أيّامٍ، وحينَ وَجدوهُ كانَ مُنْتَفِخاً كالطَّبْلِ، وَقَدْ أَكَلَتْ عَيْنَيْهِ ٱلأَسْماك.

لكنَّ كُرْهَنا للخابورِ لَمْ يوقِفِ ٱلخابورَ. ظَلَّ أميراً صاخِباً يَجْمَعُ مِنْ حَوْلِهِ قُرىً صاخِبَةً، قُرىً تَتَقاسَمُ ٱلجُغْرافيا وٱلفاكِهَةَ وٱلأعْرافَ، بَدْءاً بالأشوريّينَ، وٱنْتِهاءً بالأكْرادِ وٱليزيديّين.

كانَتِ ٱلقُرى ٱلأشوريَّةُ لا تُبارى في زِراعَةِ ٱلكُرومِ، أمّا ٱلقُرى ٱلكُرْدِيَّةُ وَٱليزيديَّةُ فلا تُبارى في الرَّعْي وَتَرْبيَةِ الدَّواجِنِ، وفي بَعْضِ ٱلمَزْروعاتِ الصَّغيرةِ كٱلقِثّاءِ وَٱلقُطْنِ. وَلَمْ يَكُنْ كُلُّ هذا لافِتاً للنَّظَرِ قِياساً إلى غَرابَةِ ٱليزيديّينَ.

كُنّا أطْفالاً آنَئِذٍ، لا يَعْنينا التّاريخُ ٱلَّذي يُصَنِّفُ ٱليزيديّينَ فِرْقَةً باطِنيَّةً، لا يَعْنينا مَنْشَأُهُم، أو دَوْرُ بريطانيا في صُنْعِهِم أقلِّيَّةً مِنْ أقَلِّيّاتِ الشَّرْقِ كما ٱعْتادَتْ أنْ تَفْعَلَ بِعالَمِنا ٱلغارِقِ في ماضيهِ حتّى ٱلاخْتِناقِ، أوِ الرّاكِنِ إلى الرِّضا حتّى ٱلاخْتِناق. كُنّا ما بَيْنَ مُسْتَغْرِبٍ أو مُنْدَهِشٍ، آنَئِذٍ، بأولئِكَ الرِّجالِ ٱلَّذينَ يَضْفُرونَ جَدائِلَهُم كالنِّساءِ، وَيُرْخونَ شوارِبَهُمُ ٱلكَثَّةَ فلا تَبينُ

شِفاهُهُم. كانوا قَذِرينَ لا يَسْتَحِمّونَ، يُقَدّسونَ ٱلمَلِكَ الطّاووسَ، أيِ الشَّيْطانَ ٱلأَكْبَرَ كما يَقولون.

وَلِعمّي، صاحِبِ ٱلمُسْتَوْدعاتِ قُرْبَ ٱلخابورِ، شَريكٌ يزيديٌّ يُدْعى «الحاجّ». لَمْ يَحِجَّ إلى ٱلكَعْبَةِ قَطُّ، لكنَّهُ يُدْعى «الحاجّ»، ولا نَسْأَلُ عن ذلكَ. و«الحاجُّ» تاجِرٌ حَذِقٌ، كُنّا نُحِسُّهُ قائِماً كُلَّ لَيْلَةٍ، يُتَمْتِمُ بِصلاةٍ غَريبةٍ، حينَ نَهْجَعُ جَميعاً في قاعَةٍ أَشْبَهَ بِثُكْنَةٍ. لكنْ في النَّهارِ، كُنّا نَعْمِدُ إلى ألاعيبِنا مَعَ هذا ٱلكَهْلِ. نَشْتُمُ الشَّيْطانَ، أو نَتَعَوَّذُ مِنْهُ كُلَّما مَرَرْنا بِهِ، فَيَحْمَرُّ وَجْهُهُ، وَيَتَعَوَّذُ مِنّا. نَبْصُقُ على ٱلأَرْضِ في تَعَمُّدٍ ظاهِرٍ، لأنَّ الشَّيْطانَ يَسْكُنُ ٱلكثافَةَ، الظَّلامَ وٱلأَرْضَ، فَيَتَعَوَّذُ مِنّا. وأخيراً نَرْسُمُ مِنْ حَوْلِهِ دائِرَةً على ٱلأَرْضِ التُّرابيَّةِ. وٱليزيديُّ لا يَخْرُجُ مِنَ الدّائِرَةِ حتّى ٱلمَوْتِ، أو حتّى يَمْحوَها مَنْ رَسَمَها. يَصْرُخُ «الحاجُّ» في فَزَعٍ واضِحٍ: ٱمْحوا الدّائِرَةَ يا أَوْلادَ ٱلكَلْبِ. وَنَصْرُخُ فيهِ: أَنْتَ ٱبْنُ ٱلكَلْبِ وَسَليلُ الشَّيْطانِ. وَيَهُبُّ مِنَ ٱلكبارِ أخيراً مَنْ يُنْجِدُ «الحاجَّ» فَيَمْحو الدّائِرَةَ، وَيُطارِدُنا.

يَوْمَها يُقاصِصُنا عَمُّنا، يُقاصِصُنا في عُنْفٍ يَصِلُ أَحْياناً إلى إعادَةِ أَحَدِنا إلى أَهْلِهِ، وَيَعْتَذِرُ عنّا إلى «الحاجِّ» الرَّهيب.

وَعَوْدَتُنا مِنَ ٱلحُرِّيَّةِ تِلْكَ، مِنْ حُرِّيَّةِ ٱلخابورِ ٱلأميرِ وضِفافِهِ ٱلَّتي تُحاذي جِبالَ عَبْدِ ٱلعزيزِ حَيْثُ تَكْثُرُ مَغاوِرُ ٱلحمامِ ٱلبَرّيِّ، هِيَ عَوْدَةٌ إلى الرُّعْبِ الرَّتيبِ، عَوْدَةٌ إلى ٱلغُبارِ وَٱلقِصاصِ، عَوْدَةٌ إلى طُفولَةٍ مُضَرَّجَةٍ بِخَريفِ ٱلمَدينةِ ومَدارِسِها، وبٱلمَطَرِ ٱلَّذي يَجْرُفُ غُبارَ الصَّيْفِ مِن ٱلأعالي فلا يَتَساقَطُ إلّا الطّينُ.

بَيْدَ أنَّنا، حينَ الرُّجوعِ ثانِيَةً إلى قَفَصِ ٱلكِبارِ وَسُلْطَتِهِم ٱلعَريقَةِ، نَفْتَحُ مَجْرىً لأهوائِنا، مَجْرىً لِلْخَرابِ وَٱلعذاباتِ. نُحَطِّمُ ما تَبَقّى مِنَ الطُّفولَةِ، وما تَبَقّى لِلْكِبارِ مِنْ حُلُمٍ بِطفولَتِنا. نَرُشُّ ٱلكازَ على قِطَّةٍ وَنُشْعِلُ ذَنَبَها. تَرْكُضُ القِطَّةُ في هِياجٍ مَجْنونٍ. تَصْطَدِمُ بِجُدْرانِ ٱلبُيوتِ وَتَقْفِزُ أمتاراً عَنِ ٱلأرْضِ. يَمْتَدُّ ٱللَّهَبُ مِنْ ذَيْلِها إلى جِسْمِها كُلِّه. تَظَلُّ تَرْكُضُ وَنَرْكُضُ خَلْفَها. تَصِلُ إلى ٱلبيادِرِ لِصْقَ ٱلبُيوتِ قَبْلَ أنْ تَنْفَجِرَ جُمْجُمَتُها كَما يَنْفَجِرُ ٱلبالون. وما أسْهَلَ ٱشْتِعالَ ٱلبيادِرِ بِدَوْرِها. كَوْمَةً كَوْمَةً يَمْتَدُّ ٱلحريقُ، وَمِتْراً مِتْراً يَرْتَفِعُ ٱللَّهَبُ.

نَتَراجَعُ لِنُنْذِرَ ٱلكِبارَ وكأنْ لا شَأْنَ لنا بِما جَرى. يَخْرُجُ ٱلكِبارُ بِدِلاءِ ٱلمياهِ، وحينَ لا تَنْفَعُ ٱلمِياهُ تَأْتي الرُّفوشُ لِتُهيلَ التُّرابَ على النّارِ. وَوَقْتَ يَنْشَغِلُ ٱلكِبارُ بِرُفوشِهِم، والنِّساءُ

بآلمُراقَبَةِ، نَتَسَلَّلُ نَحْنُ إلى حَوْشِ عَفْدال. نَرْبُطُ آلمُفَرْقَعاتِ إلى أذْيالِ آلعُجولِ وَنَفْتَحُ آلبَوّابَةَ آلخَشَبِيَّةَ الضَّخْمَةَ. نُشْعِلُ آلفتائِلَ وَنُسْرِعُ خارِجينَ لِنَعُدَّ: واحِدْ، إثْنان... ولا نُكْمِلُ ثَلاثاً إلّا وَيَدُبُّ آلهِياجُ في آلحَوْشِ: تَدورُ آلعُجولُ حَوْلَ نَفْسِها فَتَخْلَعُ آلأوتادَ مِنَ آلأرْضِ، وَتَنْطَلِقُ عَبْرَ آلبَوّابَةِ مَجْنونَةً.

يَقْضي آلُ عَفْدالَ سَحابَةَ نَهارِهِم مُطارِدينَ آلعُجولَ الشّارِدَةَ في آلأزِقَّةِ وفي آلحُقولِ. وحينَ يَظْفَرونَ بِها يَلْعَنونَ الشَّرْقَ وآلغَرْبَ وآلقَمَرَ والنُّجومَ، مِنَ التَّعَب.

وَنَلْعَنُ آلقَمَرَ وَالنُّجومَ، نَلْعَنُها نَحْنُ أيْضاً، صارِخينَ في عُواءٍ خافِتٍ كَحَيواناتٍ مَطْعونَةٍ على أقْدامِ آلهَضَباتِ، مُتَّجِهينَ صَوْبَ الظَّلامِ السّاحِرِ، الظَّلامِ آلَّذي يَمْحو آلمَدينَةَ وَيُحيلُها بُحَيْراتٍ يَتَقَصَّفُ قَصَبُ ضِفافِها مِنَ الرَّكْضِ آلمَجْنونِ لأجْسادٍ نِصْفُها أقْدامُ جواميس، وَنِصْفُها نَباتاتُ آلحَرْشوف. نِصْفُها يرابيعُ، وَنِصْفُها آلآخَرُ شَعْرٌ مَسْدولٌ كَشَعْرِ النِّساءِ... وَنُمْعِنُ في آلاتِّجاهِ ذاتِهِ، كأنَّما أقدامُنا رِياحٌ مَهَبُّها هُوَ آلمَهَبُّ آلخَفِيُّ بَيْنَ عامودا وحلكو: غُبارٌ غُبارٌ، وآلأرْض لا تَتَكَشَّفُ لِصواري طُفولَتِنا إلّا ثَوْراً يَحْمِلُ على قَرْنَيْهِ كُرَةَ آلكِبارِ آلمَوْتى.

فاصل رابع

في انهيار بريفا

أنْتِ ماذا يا بريڤا؟ أنْتِ طَعْنَةٌ مِنَ الطّينِ. أنْتِ خَفَقاتُ الطّينِ وَقَلْبُهُ ٱلغُباريُّ الشّارِدُ. أنْتِ جَناحُ القُرى يا بريڤا، يا سَحابَةً غَبْراءَ ناحِلَةً تَلْمُسُ الأرْضَ في خَجَلٍ، وتَتَكَوَّمُ بَيْتاً بيتاً حَوْلَ نَبْعٍ خَفِيٍّ مِنَ الغُبارِ والتَّعَبِ. أقَرْيَةٌ أنْتِ حَقّاً؟ أمْ صَليلُ الظّلامِ حينَ رَسا أوَّلَ مَرَّةٍ في ٱلأرْضِ فأنْبَتَ ٱلوَحْشَةَ؟ ذاهِلَةٌ أنْتِ يا بريڤا، ذاهِلَةٌ كأنَّما فاجَأْتِ نَفْسَكِ، ذاتَ يَوْمٍ، في مَرايا ٱلقُرى، فَرَأَيْتِ شَبَحاً لا قَدَمَيْنِ لَهُ، شَبَحاً زاحِفاً بَيْنَ ٱلخَرْنوبِ وأوْراقِ ٱلكَمَأِ، يَمُدُّ يَدَيْهِ، في تَوَسُّلٍ أخيرٍ، إلى غَيْبٍ يَقودُ أباطيلَهُ كالثّيرانِ ولا يَلْتَفِتُ. إيه بريڤا، يا شَبَحَ قَرْيَةٍ، ويا نافِذَةَ التُّرابِ على التُّرابِ، لَمْ يَكُنْ لِيَسْمَعَ بِكِ أحَدٌ، لَوْلا بوغي، لولا هذا ٱلمارِدُ الذي خَلَقَتْهُ ٱلأحاديثُ أو خَلَقَ ٱلأحاديثَ. لَمْ نَرَ بوغي ٱلَّذي أُضيفَتْ إلى ٱسْمِهِ كُنْيَةُ بريڤا فصارَ بوغي بريڤا. لَمْ نَرَهُ نَحْنُ ٱلأطْفالَ، لكنَّنا رَأَيْنا قَبْرَهُ على قِمَّةِ هَضْبَةِ موزان.

سَلَكْنا طريقَ ٱلهَضْبَةِ مِنْ قَرْيَةِ موزان ذاتِها، بَيْنَ شُجَيْراتِ ٱلعِنَبِ، خاطِفينَ ٱلعناقيدَ السَّوْداءَ هُنا وَهُناك، ناثِرينَ حَبّاتِها وَرَاءَنا كَمَنْ يَتْرُكُ للقادِمينَ أثَراً لا يقودُ إلّا إلى ٱلعَبَثِ. وكانَتِ ٱلعناقيدُ حُلْوَةً جِدّاً، ذاتَ حبّاتٍ صغيرةٍ يَعْلوها مِنَ ٱلغُبارِ ما يَعْلو ٱلأرْضَ. وَكُنّا نَلْتَهِمُها غَيْرَ عابِئينَ بذلِكَ الطَّعْمِ ٱلمَزيجِ ٱلخاصِّ، أو نَعْتَصِرُها بَيْنَ أيْدينا مِنَ ٱلبَطَرِ فَتَسْتَحيلُ إلى عُصارَةٍ مِنَ الطّينِ الدَّبِقِ ٱلأسْوَدِ، وَمِنْ ثَمَّ نَغْسِلُ أيْدِيَنا بِتُرابِ الطَّريقِ ٱلَّذي لا يَلْبَثُ أنْ يَخْتَفيَ على أطْرافِ ٱلهَضْبَةِ فَنَسْلُكُ أخاديدَ السُّيولِ الضَّيِّقَةَ ٱلَّتي تُوصِلُنا إلى ٱلقِمَّةِ بَعْدَ جُهْدٍ.

وَقِمَّةُ هَضْبَةِ موزان مُنْبَسِطَةٌ، مَلأى بِقُبورٍ لا معالِمَ لَها، وَنَتَجَنَّبُ ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ أنْ نَطَأَ أيّاً مِنْها خِشْيَةَ إيقاظِ ٱلمَوْتى، وكذلك نتجنَّبُ الجحورَ المنتشرةَ هنا وهناك، لأنَّها خاصَّةٌ بِحَيَواناتِ ٱلمَوْتى، ٱلَّتي تَخْرُجُ بِجِرائِها لَيْلاً فَتَأْكُلُ ٱلجُثَثَ وَتَعْبَثُ بٱلعِظامِ. وإذْ تَشْبَعُ، تَرْفَعُ حَناجِرَها بِعُواءٍ مَمْزوجٍ بأنينِ ٱللَّيْلِ ومَخْلوقاتِهِ.

وفي وَسَطِ ٱلقِمَّةِ ٱلمُنْبَسِطَةِ، في وَسَطِ ٱلقُبورِ ٱلَّتي تَساوَتْ بٱلأرْضِ فَما يَبينُ مِنْها إلّا شَواهِدُها، في وَسَطِ ذاكَ السُّكونِ

آلمُرْهَقِ السَّكْرانِ آلَّذي لا نُدَماء لَهُ، يَتَمَدَّدُ بوغي بريڤا مُغَطّىً برقائِقَ مِنَ آلخَزَفِ، على طولِ ثلاثَةِ أمتارٍ: إنَّه الأطْوَلُ حقّاً، وآلأعْرَضُ حَقّاً، لكنَّه مُهْمَلٌ إلى دَرَجَةٍ يُرْثى لها، وَكانَ حَرِيّاً بالنَّدّاباتِ آللّائي شَيَّعْنَهُ، ذاتَ يَوْمٍ، أنْ يَبْقَيْنَ صاعِداتٍ هابِطاتٍ عَنِ آلهَضْبَةِ ألْفَ عامٍ، وأنْ يَتَّصِلَ عَوِيلُهُنَّ كما تَتَّصِلُ أقْدامُ آلهَضْبَةِ بِجُذورِ الشِّمالِ. فما هكذا ينتهي بوغي بريڤا، وما هكذا يَتَلاشى صَوْتُهُ آلَّذي يَصْعَدُ، رُوَيْداً رُوَيْداً، مِنْ أعْماقِنا، (نَحْنُ آلواقِفينَ أمامَ عَظَمَةِ آلخَرابِ بِعيونٍ تَمْلأُها ثلاثَةُ أمتارٍ مِنْ جَسَدٍ مُغَطّىً برقائِقَ مِنَ آلخَزَفِ). وَصَوْتُهُ واثِقٌ ـ كما يَشْهَدُ الرُّواةُ ـ وهادِئٌ كَجَسَدِهِ آلهادِئِ آلمديدِ. وَيُضيفونَ أنَّه كانَ يَقْطَعُ آلقُرى راجِلاً، إذْ لَمْ يَصْمُدْ تَحْتَ ثِقْلِهِ أيُّ بَغْلٍ، وأشَدُّ آلبغالِ كانَ يَمْضي بِهِ خُطْوَتَيْنِ قَبْلَ أنْ يَنْحَنيَ عَمودُهُ آلفِقْرِيُّ فَيَلْمُسَ ببطْنِهِ آلأرْضَ.

وأسْهَبَ الرُّواةُ في آلحديثِ عَنْ شُؤونٍ أُخْرى في حياةِ آلمارِدِ، عَنْ دَلْوِهِ آلخاصِّ آلَّذي يَسَعُ عِشْرينَ دَلْواً عاديّاً. يَشُدُّهُ بوغي وَحْدَهُ مِنَ آلبِئْرِ ويَسْقي آلماشِيَةَ. عَنْ تَناوُلِهِ ما يَسَعُ تَنّوراً كامِلاً مِنَ آلأرْغِفَةِ. عَنِ آلأبْوابِ آلعالِيَةِ آلَّتي تَضيقُ بِطولِهِ

فَيَنْحَني لِيَدْخُلَها. عَنْ كَلْبِهِ ٱلَّذي يُعادِلُ بِضَخامَتِهِ ٱلحِمارَ، فما يَظْهرانِ على التُّخومِ إلّا مَعاً، شَكْلَيْنِ خُرافِيَّيْنِ لَمْ تَحْجُبْهُما زَوْبَعَةٌ قَطُّ، وَلَمْ يَطْلَعْ فَجْرٌ إلّا وهُما يَخْرُجانِ مِنَ ٱلأُخْدودِ ٱلكَبيرِ شَرْقَ بريڤا، مِنَ ٱلأُخْدودِ ٱلَّذي كانَ نَهْراً ذاتَ يَوْمٍ، وأمْسى زَريبَةً صَيْفيَّةً لِغَنَمِ بوغي وأكْباشِهِ. وَيَتَحَدَّثونَ عَنْ بقائِهِ أعْزَبَ فلا نَفْقَهُ ٱلمَسْأَلَةَ كما يَنْبَغي، لكنَّ ٱلواضِحَ أنَّه لَمْ يُحْرِجْ أحَداً بِطَلَبِ أُنْثى.

كان بوغي بريڤا هادِئاً إلى حينِ سَرَتْ هَمْهماتٌ خَفيضَةٌ بَيْنَ أهْلِ ٱلقَرْيَةِ: «الأقْوياءُ يَقْتَسِمونَ ٱلأرْضَ». وكانَ جَديداً أنْ يَأْتيَ أقْوياءُ غامِضونَ على أفْراسِهِم لِيَقولوا: «هذهِ تُخومُنا، وهذهِ تُخومُكُم». كانَتِ ٱلأرْضُ مُنْبَسِطَةً لا حدودَ فيها، مُنْبَسِطَةً واضِحَةً كٱلأسْئِلَةِ، وها هي تُمْسي مُلْتَوِيَةً كأجْوِبَةٍ غَريبَةٍ... وضاقَتِ ٱلأرْضُ مِنْ حَوْلِ بريڤا، حتّى ما عادَ النّاسُ بِقادِرينَ على ٱلخُروجِ بأغْنامِهِم أكْثَرَ مِنْ فَرْسَخٍ واحِدٍ. آنئِذٍ خَرَجَ بوغي ٱلواثِقُ على هُدوئِهِ ٱلواثِقِ. حَمَلَ حَجَراً يَبْلُغُ قُطْرُهُ مِتْراً أو يَزيدُ، وسارَ يُواكِبُهُ الرِّجالُ. ويَقولونَ إنَّهُم تَعِبوا مِنَ ٱلمَشْيِ وما تَعِبَ بوغي. وَيَقولونَ جَلَسوا يَمْسَحونَ عَرَقَهُم في الظَّهيرةِ وَلَمْ

يَتَوَقَّفْ بوغي، ويقولونَ رُئِيَ يَمْضي حتّى ٱخْتَفى عَنِ ٱلعُيونِ. وَيَقولونَ وَصَلَ بوغي إلى مَقْرُبَةٍ مِنْ بُيوتِ أولئِكَ ٱلأقْوياءِ ٱلغامِضينَ، ٱلَّذين أنْذَروا النّاسَ بٱقْتِسامِ ٱلأرْضِ، إذْ ذاكَ رَمى ٱلحَجَرَ عَنْ كَتِفِهِ قائِلاً: «هذهِ حدودُ بريڤا»، وقَفَلَ راجِعاً. ويقولونَ لَحِقَ بِهِ أحَدُ ٱلأقوياءِ على حِصانِهِ، وحينَ حاذاهُ دَفَعَ بوغي ٱلحِصانَ فَسَقَطَ أرْضاً، ثُمَّ أمْسَكَ بإحْدى قوائِمِهِ فَكَسَرَها، هاتِفاً بالرَّجُلِ: «لا تَلْحَقْ بي»، فَلَمْ يَلْحَقْ بِهِ أحَدٌ بَعْدَ ذلِكَ.

لكنْ، لا أحَدَ يقولُ لنا ماذا يَفْعَلُ قَبْرُ بوغي بريڤا على هَضْبَةِ موزان، وَهُما قَرْيَتانِ ثَمَّتَ مَسافَةٌ طَويلَةٌ بَيْنَهُما؟ أو ماذا حَلَّ بِكَلْبِهِ ٱلمارِدِ مِثْلَهُ، ٱلَّذي شوهِدَ مِراراً على قِمَّةِ ٱلهَضْبَةِ، رافِعاً صَوْتَهُ بِعُواءٍ مَريرٍ، مَدى ثلاثِ سنينَ، مُلْتَمِعاً تَحْتَ ضَوْءِ ٱلقَمَرِ أوْ وَمْضِ ٱلبُروقِ؟ ماتَ على ما نَعْتَقِدُ نَحْنُ ٱلأطْفالَ، ماتَ مِثْلَ صاحِبِهِ، دونَما صَخَبٍ أو نذير. أوَتَعْرِفونَ كَيْفَ ماتَ بوغي بريڤا؟

يَقولُ الرُّواةُ إنَّ وباءً أصابَ غَنَم بوغي. بَدَأَ صوفُها يَهُرُّ وأجْسامُها تَتَقَرَّحُ، ثُمَّ هَوَتِ الواحِدَ تِلْوَ الآخَر.

ذاتَ فَجْرٍ لَمْ يَخْرُجْ بوغي مِن الأُخْدودِ النَّهْرِيِّ. رَأَوْهُ

مُسْنِداً ظَهْرَهُ إلى حافَّةِ ٱلجُرُفِ وَقَدْ جَمَعَ حَوْلَهُ ٱلكثيرَ مِنَ ٱلصّوفِ ٱلمُتَّسِخِ، بَيْنَما راحَ كَلْبُه يَحومُ وَيَعْوي. وَنَسْأَلُ ـ نَحْنُ ٱلأَطْفالَ ـ أكانَتْ عَيْناهُ مُغْمَضَتَيْنِ أم مُفَتَّحَتَيْنِ فلا يَرُدُّ أَحَدٌ.

... وَنَهْبِطُ ٱلهَضْبَةَ ٱلغَضاريَّةَ، ٱلَّتي تَفَتَّحَتْ مَرّاتٍ عَديدَةً عَنْ جِرارٍ مِنَ ٱلكَهْرمانِ الثَّمينِ وَٱلفِضَّةِ، مُتَّجِهينَ عَبْرَ السُّهولِ الشَّرْقيَّةِ ٱلجَرْداءِ إلى ٱلمَدينَةِ، لكنَّ ٱلمدينَةَ لَمْ تَعُدْ ذاتَها، بَلْ هِيَ أَشْبَهُ ٱلآنَ بِثُكْنَةٍ لِخَفَرِ ٱلبادِيَةِ، أيِ ٱلهَجّانَةِ كما يُسَمّونَهُم. وَنَحْنُ لَمْ نَسْأَلْ قَطُّ عَنْ سَبَبِ وُجودِ هَؤلاءِ ٱلعَسْكَرِيّينَ ٱلبُداةِ، بَيْدَ أَنَّهُم أفْصَحوا، بِجَلافَةٍ وَقَسْوَةٍ، عن تَرْتيباتٍ خَفِيَّةٍ هيّأها «الكبارُ» للجَزيرَةِ.

كان زَمَنَ «إصْلاحاتٍ»، زَمَنَ ٱقْتِسامٍ مُدْهِشٍ لِلأَرْضِ بَيْنَ الدَّوْلَةِ والنّاسِ، لكنَّ النّاسَ تَنازَلوا عَنْ حِصَصِهِم للدَّوْلَةِ حينَ لَمْ يَجِدوا ٱلبِذارَ، وهكذا بَدَأَتِ ٱلأَمْبراطوريّاتُ الصَّغيرةُ في ٱلانْهيارِ، أمْبراطوريّاتُ ٱلأَقْوياءِ وكذلكَ أحْلامُ الصِّغارِ الضُّعفاءِ: كُلُّ شَيْءٍ مَضى كالسَّيْلِ يَجْرُفُ آخِرَ معالِمِ ٱلماضي بِطُفولَتِهِ وَبريقِهِ ٱلخُرافيِّ ٱلجميلِ. وحينَ هَدَأَ السَّيْلُ كانَ كُلُّ شَيْءٍ مُغَطّىً بطينٍ أحْمَرَ لا أَثَرَ لِلْحياةِ فيه.

إنْقَرَضَ ٱلقَمْحُ في فِرْدَوْسِ ٱلقَمْحِ، وَبِتْنا ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ نَتَزاحَمُ في الصَّباحاتِ على أبْوابِ ٱلأفْرانِ، وَقَدْ نَقْضي سَحابَةً مِنَ النَّهارِ قَبْلَ أنْ نَطولَ إلى ٱلأرْغِفَةِ، لأنَّ الهَجّانَةَ ذَوو أوْلَوِيَّةٍ، ويا ما قَذَفَ هؤلاءِ ٱلعُتاةُ بِطِفْلٍ أوْ بِشَيْخٍ خارِجَ الزِّحامِ، لِيَأْخذوا مَكانَهُ في الصُّفوفِ. ويا ما ٱجْتازوا الصُّفوفَ وَصَفَعوا الفرّانينَ، أو داسوهُمْ بٱلأحْذِيَةِ ٱلعَسْكَرِيَّةِ حتّى يَنْفُرَ الدَّمُ مِنَ ٱلآذانِ وٱلأفواه.

لَمْ يَعُدْ يَنْفَعُ ٱلأقوياءَ كَثْرَةُ أنْصارِهِم بَعْدَ مَجِيءِ ٱلهَجّانَةِ، وَلَمْ يَنْفَعِ الضُّعفاءَ ضَعْفُهُم بَعْدَ مَجيءِ الهَجّانَةِ، وكانَ ٱقْتِحامُهُم للمدينةِ ٱقْتِحاماً ذا تَوْقيتٍ مُواكِبٍ لِتَوْقيتِ ٱنْقِراضِ ٱلقَمْحِ، ومُواكِباً لأسْئِلَةِ النّاسِ: «أيْنَ خُبْزُنا»؟

كُنّا أطْفالاً آنئِذٍ، يَأْخُذُنا الدَّهَشُ مِنْ عَنود ـ ٱلأُنْثى ٱلَّتي تَرْتَدي حَطَّةً كالرِّجالِ، ودَشْداشَةً كالرِّجالِ، وَسُتْرَةً كالرِّجالِ، وَتَتَمَنْطَقُ بِمُسَدَّسٍ كالرِّجالِ. وَلَها سَيّاراتُها وَمُرافِقوها. لكنَّ عَنود، ٱبْنَةَ كَبيرِ شُيوخِ ٱلبادِيَةِ، لَمْ يَدُمْ مَجْدُها طَويلاً بَعْدَ مَجيءِ ٱلهَجّانَةِ. وَعَرَفْنا، مَعَ تَصْعيدِ مَوْجَةِ «ٱلإصْلاحاتِ ٱلجَميلَةِ»، وإذْ صارَ لنا حُكْمُنا على حاضِرٍ خُرافيٍّ، أنَّ كُلَّ

شَيْخٍ مِنْ شُيوخِ ٱلبادِيَةِ، وَكُلَّ قَوِيٍّ بأتباعِهِ في ٱلماضي، أُعيدَتْ إلَيْهِ أمْبراطورِيَّتَهُ... أمّا الضُّعفاءُ فَيَئِسوا حتّى ٱلعَظْمِ، وَمَعَ ٱليَأْسِ بَدَأَتْ تَتَكَوَّمُ جُثَثُ ٱلهَجّانَةِ في ٱلمُنْعَطَفاتِ وَٱلأَوْدِيَة.

ضَجَّتِ النّاسُ مِنَ ٱلبَطْشِ ٱليَوْمِيِّ، وَمِنْ هَؤلاءِ ٱلَّذينَ يَرْتَدونَ خطّاتٍ حَمْراءَ ولا يَدْفعونَ إيجاراتِ بُيوتِهِم. ضَجَّتْ مِنَ ٱلَّذينَ يَأْخذونَ رَغيفَها الصَّباحيَّ، وَيَقْتَحِمونَ ٱلبُيوتَ إذا تَشاجَرَ طِفْلانِ. وحينَ أدْرَكوا أنَّ هؤلاءِ جاؤوا لِيَمْحوا ٱلأسْئِلَةَ في ٱلأفْواهِ، نَصَبوا لَهُمُ ٱلفِخاخَ ٱللَّيْليَّةَ، وَنَثَروا بالرُّفوشِ وَٱلمناجِلِ أعْضاءَهُم. ولمّا تَفاقَمَ ٱلأمْرُ، حَمَلَ ٱلهَجّانَةُ أحْلامَهُمُ الصَّحْراويَّةَ ٱلمُمْتَزِجَةَ بِٱلبَعْرِ إلى ٱلبادِيَةِ ثانِيَةً، وَلَمْ يَعودوا بَعْدَ ذلكَ قَطُّ.

لكنَّ ٱلأمْبراطوريّاتِ الصَّغيرَةَ، ٱلَّتي تَداعَتْ، تَداعَتْ. وَمَعَ هذا التَّوافُدِ ٱلكثيفِ لِلْكآبَةِ السَّماويَّةِ، بَدَأَتِ ٱلمَقاهي تَنْفِرُ طالِعَةً مِنْ زاوِيَةٍ هُنا وزاوِيَةٍ هُناك. وكانَتْ مقاهيَ مَسْقوفَةً بِحُصُرِ ٱلقَشِّ، يَجْتَمِعُ الرِّجالُ فيها عَصْراً، أوْ يَقْضونَ أكْثَرَ ٱللَّيْلِ على ضَوْءِ ٱلفوانيسِ، صارِخينَ لاعِنينَ وَرَقَ ٱللَّعِبِ ٱلَّذي يَجْعَلُ حُظوظَهُم أشَدَّ مَهْزَلَةً، أو يَقْذِفُ بَعْضُهُم بَعْضاً بِكراسي

ٱلبوصِ، وَمِنْ ثَمَّ يَنْجَلي ٱلأَمْرُ فَيَعودون إلى صَخَبٍ وصُراخٍ لا عُنْفَ فيهِما.

بَدَأَ كُرْهُنا صَغيراً وَنَما، يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، لِيَشْمَلَ ٱلـمَقاهيَ، وَقِطارَ ٱلـمَدينَةِ ٱلوَحيدَ، ومَطاحِنَ ٱلقَمْحِ ٱلآلِيَّةَ، وَمَصْنَعَ ٱلجَليدِ، وَٱلـمَطارَ، وَالطّائِراتِ، وَالنَّهْرَ، وَبُيوتَ الضَّواحي الطّينيَّةَ، وَٱلـمآذِنَ، وَٱلفَقْرَ. كَرِهْنا كُلَّ شَيْءٍ لأَنَّنا لَمْ نَمْتَلِكْ ـ وَسَطَ أحْلامِنا ٱلغامِضَةِ بِٱمْتِلاكِ لُعْبَةٍ ما، أو حَقيبَةٍ جَميلَةٍ ـ إلّا عَبَثَنا الصّارِخَ، فأَطْلَقْناهُ كَغَيْمَةٍ مُسْرِعَةٍ، وٱنْطَلَقْنا مَعَ عابو ٱلأَعْمى ٱلَّذي يَعْرِفُ ٱلأَرْضَ خُطْوَةً خُطْوَةً، وَٱلـمَدينَةَ زُقاقاً زُقاقاً، وَيَعْرِفُ ٱلـمَسالِكَ ٱلخَطِرَةَ إلى تُرْكيا، وَيُغَنّي كَكَلْبٍ مَبْحوح.

وعابو في الثَّلاثينَ، دَمِثٌ ذو صَوْتٍ خَشِنٍ أبَحَّ. لَمْ يَسْتَعْمِلْ، وَهُوَ ٱلأَعْمى، عَصاً قَطُّ، بَلْ يَقودُهُ طِفْلٌ عادَةً، أو يَتَقَرّى ٱلحيطانَ، وَيَجْتازُ عَرْضَ الطُّرُقِ ٱلَّتي يَعْرِفُها عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. وعابو لا يَخافُ. عابو مَلِكُ النَّهْرِ. وَنَتَسابَقُ راكِضينَ على الضِّفَّتَيْنِ حينَ يَهْبِطُ عارِياً إلى ٱلماءِ. يَغوصُ حتّى رَقَبَتِهِ وَهُوَ يَتَحَسَّسُ ٱلأَعْماقَ الضَّحْلَةَ بِيَدَيْهِ. وَبَيْنَ ٱلفَيْنَةِ وَٱلفَيْنَةِ يَرْمي إلينا بِشَبّوطٍ أوْ رعّادٍ نَهْرِيٍّ. وإذا كانَ الصَّيْدُ ضَئيلاً، يَعْمِدُ إلى

آلجُحورِ. يَحْشُرُ يَدَهُ فيها وَيُخرِجُها جاذِباً سَلْطَعوناً أو حَنْكَليساً. يَرْفَعُ آلغِطاءَ آلعَظْميَّ عَنْ ظَهْرِ السَّلْطعونِ ويَقولُ: «اُنْظروا، هذهِ ساعَتُهُ آللَّحْميَّةَ». أو يقولُ: «إحْذروا ذَيْلَ آلحَنْكَليسِ فهو سامٌّ»، وَيَقْطَعُ بأسنانِهِ مِقْدارَ عَشْرَةَ سَنْتِمتراتٍ مِنْ ذيلِهِ. وكان عابو يَلْتَقِطُ آلأفاعي أيْضاً. يَغوصُ بِها تَحْتَ آلماءِ لِيُمْسِكَها مِنْ عُنُقِها، وحينَ يَطْفو يَصيحُ: «هاتوا قَميصي». نُعطيهِ آلقَميصَ فَيَضَعُهُ عابو في فَمِ آلأفْعى، ثُمَّ يَشُدُّهُ فَيَخْلَعُ أسْنانَها. بَعْدَئِذٍ يَضَعُها في جَيْبِهِ آمِناً، وَيُخيفُ بِها آلآخرين.

... وَنَمْضي وَراء عابو لِنَطوفَ بآلمقاهي كُلِّها. يَقولُ لِلطِّفْلِ آلَّذي يَقودُهُ: «دُلَّني على فُلان» فَيَدُلُّهُ. يَقْتَرِبُ عابو مِنَ الرَّجُلِ وَيَهْمِسُ: «لي دَيْنٌ في ذِمَّتِكَ». يَضْحَكُ الرَّجُلُ وَيُناوِلُهُ نُقوداً. ولا يَنْقَضي النَّهارُ إلّا وَنَجْمَعُ ما يَكْفينا جَميعاً لِدُخولِ السّينَما. يَجْلِسُ عابو في الصّالَةِ وَوَجْهُهُ إلى آلأعلى. يَسْأَلُنا بَيْنَ آلحينِ وَآلحينِ عَنْ مَجْرى آلأحْداثِ، وإذْ نَسْرُدُها لَهُ تَنْفَرِجُ أساريرُهُ، أو يُقَهْقِهُ فَيُعْدينا بآلقَهْقَهَةِ.

وعابو زَوْجُ شَحّاذَتَيْنِ، جَمَعَهُما معاً في بَيْتِهِ الشَّبيهِ بِزَريبةٍ

ضَيِّقَةٍ في الضَّواحي. إحْداهُما تُدْعى شوشة، في ضَخامَةِ ٱلفيلِ، حافيَةٌ دائِماً، وَلِقَدَمَيْها ٱلمُفَلْطَحَتَيْنِ دَمْدَمَةٌ على ٱلأرْضِ كَدَمْدَمَةِ ٱلجاموس.

وَهِيَ لا تَخْرُجُ مِنْ أيِّ بَيْتٍ تَدْخُلُهُ إلّا بِغَنيمَةٍ، رَضِيَ أهْلُ ٱلبَيْتِ أمْ أبَوا. وٱلأُخرى تُدْعى باسي، وديعَةٌ لا يُجاوِزُ ذَكاؤُها ذَكاءَ دَجاجَةٍ، لكنَّ شوشة وباسي تَتَشاجَرانِ أبَداً في الطُّرُقاتِ، وأبَداً تَسْقُطُ باسي بِشَعْرِها ٱلأشْعَثِ أرْضاً، فَتَعْوي.

صِراعٌ أبَدِيٌّ بَيْنَ ضُرَّتَيْنِ، صِراعٌ يَقِفُ فيهِ عابو على ٱلحِيادِ، وَيَسْتَرْضي ٱلأقوى. صِراعٌ نُضْرِمُهُ، أكْثَرَ، نَحْنُ ٱلأطْفالَ، بِهِياجِنا، إذْ نَتَحَلَّقُ مِنْ حَوْلِهِما، وَنُؤَلِّبُ إحداهُما على ٱلأُخرى، فَتَتَناقَرانِ مِثْلَ ديكَيْنِ تَتَطايَرُ مِنْهُما ٱلخِرَقُ بَدَلَ الرّيشِ. وَنَذْكُرُ، بَعْدَئِذٍ، أنَّ باسي ماتَتْ، فَبَقيتْ شوشة سُلْطانَةً على عابو وَبَيْتِهِ.

وعابو لا يفوتُهُ عُرْسٌ، حاضِرٌ أبَداً كما حُضورُ الطُّنْبورِ أوِ الطَّبْلِ. وٱلأعراسُ تَجْري ـ هُناكَ، شِمالاً ـ في الصَّيْفِ. سَبْعَةَ أيّامٍ وَسَبْعَ ليالٍ. يَعْلو ٱلغُبارُ رؤوسَ الرّاقِصينَ، وَيُحيطُ كَغُلالَةٍ أُنْثَوِيَّةٍ بفوانيسِ ٱلكازِ ٱلمُعَلَّقَةِ إلى ٱلأعْمِدَةِ، وكذلكَ بِعَيْنَي عابو

ٱلبَيْضاوَيْنِ ٱللَّتَيْنِ تَرَيانِ ٱلأبْعَدَ، تَرَيانِ الدَّمَ وَدَوْرَتَهُ في ٱلعُروقِ، وَتَرَيانِ ٱلأسْماءَ في لُهاثِ ٱلآخَرين.

يَجْتَمِعُ الرّاقِصونَ في حَلْقَةٍ تَدورُ، وفي وَسَطِهِم الطَّبّالونَ بِطُبولِهِم ٱلَّتي لا إيقاعَ لها غَيْرُ الصَّخَبِ ٱلباسِلِ. وعلى مَبْعَدَةٍ مِنَ ٱلحَلْقَةِ نَجْلِسُ حَوْلَ عابو ٱلَّذي يَسْأَلُنا: «أإبْنَتا عاريف هُنا؟»، وَنُجيبُهُ: «نَعَم». وَيَسْأَلُ: «أأولادُ سَطّام وَمَهْرو هُنا؟»، وَنُجيب: «نعم». يَقولُ عندئذٍ: «هيّا نَتَرَصَّدِ ٱلبيادِرَ».

يَعْرِفُ عابو أنَّ أمْراً ما يَتَجَمَّعُ في ٱلغُبارِ ٱللَّيْليِّ. فٱبْنَتا عاريف ٱلجَميلتانِ مَشْهودٌ لَهُما بالتَّهَتُّكِ. يأخُذُهُما أخوهُما ٱلأكْبَرُ إلى ٱلأعْراسِ. وَيَعْقِدُ الصَّفقاتِ هُناكَ. وأولادُ الآغَيَيْنِ سطّام ومهرو مَشْهودٌ لَهُم بالتَّهَتُّكِ، لا يُخْفونَ أخْبارَ طَيْشِهِم وَلَهْوِهِمْ عَنْ أحَدٍ. يَحْضُرونَ ٱلأعْراسَ في سيّارَةٍ صَغيرةٍ مِنْ نَوْعِ اللاّنْدروڤر، حامِلينَ قناني ٱلجعَةِ، فَيَزْدَريهم رِجالُ الشِّمالِ ٱلمُتَعَفِّفونَ. لكِنَّنا نُدْرِكُ أنَّ لِلنِّساءِ رَأياً آخَرَ، وَنَظْرَةً يَنِمُّ مِنْها إعْجابٌ بٱلجَسارَة.

وَنَمْضي مَعَ عابو إلى ما وراءَ ٱلبُيوتِ ٱلمُتناثِرَةِ في الضّاحِيَةِ وَنَتَرَصَّدُ. وإذ يَحْمى وَطيسُ التُّرابِ تَحْتَ ٱلأرْجُلِ،

وَيَنْحَدِرُ عَرَقُ الطبّالينَ على صُدورِهِم حتّى يَصِلَ إلى ٱلأحْذِيَةِ، يُغافِلُ أوْلادُ سطّام ومهرو النّاسَ لِيَجْلِسوا على كَوْمَةٍ مِنْ أكْوامِ ٱلقَشِّ ٱلكثيرةِ، بَعيداً عَنِ الصَّخَبِ. وَمِنْ بَعْدِهِم، وعلى مَهَلٍ كما يَتَمَهَّلُ ٱلقَطا، تَتَسَلَّلُ ٱبْنتا عاريفَ وأخوهُما، آتينَ أكوامَ ٱلقَشِّ ذاتَها. وَقْتَها يَهْمِسُ «عابو»: «أأَتَوْا؟»، فَنُجيبُهُ: «هششش».

يَقِفُ ٱبْنُ عاريفَ ٱلقوّادُ بَعيداً عَنْ أُخْتَيْهِ وأوْلادِ سطّامَ ومهرو، ليُراقِبَ ٱلمَسالِكَ. وبالتَّناوُبِ، مَثْنىً مَثْنىً، وعلى أكوامِ ٱلقَشِّ السَّماوِيِّ، نرى أنْصافَ عُراةٍ، مِنَ السُّرَرِ فما دُونَها، وَنَرى أفْخاذاً على أكْتافِ الشُّبّانِ مُلْتَمِعَةً كَٱلخَناجِرِ.

يَتَقَصَّفُ ٱلقَشُّ وَيَتَأَوَّهُ. يَهْمِسُ عابو: «أَبَدَأوا»، فَنُجيبُهُ: «هششش».

وَيَرْتَفِعُ النَّشيجُ ٱلمَخْنوقُ، وَيَزْدادُ صَخَبُ ٱلقَشِّ، حتّى لنكادُ نَعْتَقِدُ أنَّ هؤلاءِ غَيْرُ آبِهينَ إلّا لاكْتِمالِ الدَّوْرَةِ في هذهِ ٱلفاكِهَةِ ٱلآدَمِيَّةِ، وأنَّ ألْفَ صَرْخَةٍ أوْ فُجاءَةٍ لَنْ تُزَحْزِحَ - في لَحْظَةِ النَّشيجِ ٱلغامِضِ تلكَ - نِصْفاً عارِياً عَنْ نِصْفٍ عارٍ، وأنَّ التَّهَتُّكَ ٱلَّذي يُجاهِرُ بِهِ أوْلادُ سطّام ومهرو لَمْ يَعُدْ تَهَتُّكاً ٱلآنَ،

بَلْ بَحْثٌ مُضْنٍ تَـنْتَـفِـخُ فيهِ عُروقُ الرَّقَبَةِ قَبْلَ ٱلعُثورِ على بِدايَةٍ تَنْتَفِخُ فيها عُروقُ الرَّقَبَةِ مِنْ جديدٍ.

بَعْدَئِذٍ يَنْسَحِبُ ٱلجميعُ، أوْلادُ سطّام ومهرو، وٱبْنتا عاريفَ وأخوهما، لكِنَّهُمْ يَتْركونَ خَلْفَهُم ـ على ٱلقَشِّ ـ تِلْكَ ٱللَّهْفَةَ ٱلمُدْهِشَةَ ٱلَّتي أتَوْا بها أوَّلَ ٱلأمْرِ. يَنْسَحِبونَ في ٱنْكِسارٍ. وإذْ يَصِلُ أوْلادُ ٱلآغَيَيْنِ إلى مَقْرُبَةٍ مِنْ حَلْقَةِ الرَّقْصِ يُطْلِقونَ عِياراتٍ نارِيَّةً في ٱلهواءِ، مِنْ مُسَدَّساتِهِم، كأنَّما يُخْفونَ وَجوهَهُم مِنَ ٱلبَحْثِ ٱلَّذي لَنْ يَنْتَهي، في قِناعِ الصَّخَبِ. وَنَنْسَحِبُ ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ بِدَوْرِنا، حاملين أسْئِلَةً جديدةً، أسْئِلَةً تَتَطاوَلُ كَنَشيجِ أوْلادِ سطّام وَمهرو، وَتَلْتَمِعُ كأفْخاذِ بناتِ عاريف.

فاصل خامس

فيِ الثَّلج والـخراب

يَتَساقَطُ الثَّلْجُ. سِتَّةَ أيّامٍ يَتَساقَطُ الثَّلْجُ مِنَ ٱلأعالي وَمِنْ أعْماقِنا. يَخْتَلِطُ ٱلأبْيَضُ عَلَيْنا حتّى نَرى الثَّلْجَ حصاداً تَتَلَقَّفُهُ ٱلمَذاري فَتَنْثُرُهُ على ٱلأشْكالِ. يَخْتَلِطُ عَلَيْنا فَنَرى بَيادِرَ بَيْضاءَ، وَبِغالاً بَيْضاءَ تَدورُ حَوْلَ الدَّريسِ بِنوارِجَ وَحوذِيّينَ مِنَ الثَّلْجِ.

ثَلْجٌ في ٱلمدافِىءِ. نارٌ مِنَ الثَّلْجِ في ٱلمَدافِىءِ سِتَّةَ أيّامٍ، وَسِتَّةَ أيّامٍ يَطُنُّ مِنْ حَوْلِنا نَحْلٌ مِنَ الثَّلْجِ، ويَعاسيبُ مِنَ الثَّلْجِ، وَطيورٌ مِنَ الثَّلْجِ، وَبُيوتٌ مِنَ الثَّلْجِ، وَقُرىً مِنَ الثَّلْجِ، وَنباتاتٌ مِنَ الثَّلْجِ تَتَسَلَّقُ ٱلجُدْرانَ حتّى تُجاوِزَ السُّطوحَ، فَتَمْضي عالياً في ٱلفَراغِ، حامِلَةً أضاميمَ مِنْ أزاهيرِ الثَّلْجِ، ومَدائِحَ بَيْضاءَ لِهذا ٱلجُنونِ ٱلأبْيَض.

كُنّا نَعْرِفُ كَيْفَ نَتَّقي نَحْلَ الصَّيْفِ، آنَ تَشْتَدُّ ٱلهاجِرَةُ وَيُمْسي سَكْرانَ مِنَ ٱلغَضَبِ، لكنْ ماذا نَفْعَلُ بِنَحْلِ الثَّلْجِ وإبَرِهِ ٱلخَفِيَّةِ ٱلّتي تَخْتَرِقُ ٱللِّحافَ إلى ٱلعِظامِ؟ كُنّا ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ

نَسْتَثيرُ نَحْلَ الصَّيْفِ. نَضَعُ عَصاً في ثَقْبِ ٱلقَفيرِ فَيَخْرُجُ هائِجاً فَنَضْرِبُهُ بِٱلمِذَبّاتِ، لكنَّ الثَّلْجَ نَحْلٌ حديديٌّ، فماذا يُمْكِنُ أنْ يَفْعَلَ ٱللَّحْمُ بِٱلحَديد؟ يا لِقَفيرِ ٱلفَضاءِ ٱلمَفْتوحِ، ويا لِمَلِكاتِ نَحْلِهِ وعامِلاتِهِ، يا لِجناحِ الثُّلوجِ: سِتَّةَ أيّامٍ وَكُلُّ شَيْءٍ مُوْصَدٌ بِمِزْلاجٍ أبْيَضَ، بَعْدَها تَتَنَفَّسُ ٱلبُيوتُ رُوَيْداً رُوَيْداً، وَتَتَزَيَّنُ السُّطوحُ بِخُطوطٍ سَوْداءَ مِنَ الزَّرازيرِ كَخُطوطِ ٱلكِتابَةِ. في وَسَطِ هذا ٱلحِبْرِ ٱلإلهيِّ ٱلأبْيَضِ تَمْتَزِجُ طُفولَتُنا بِطُفولَةِ ٱلكِبارِ. ٱلكِبارُ يَسْرُدونَ طُفولَتَهُم، وَنَحْنُ الصِّغارَ نُصْغي، (يا لِلْحَنينِ ٱلَّذي يَتَفَتَّحُ في الثَّلْج!).

كانَ ٱلكبارُ صِغاراً مِثْلَنا ذاتَ يَوْمٍ. يَقولُ ٱلقائِلونَ ذلِكَ ولا نُصَدِّقُهُم، لكِنَّنا نُصْغي كَمَنْ يَوَدُّ أنْ يَسْمَعَ ٱلأُكْذوبَةَ ٱلكَبيرةَ كُلَّها مِنْ قَبيلِ الطَّرافَةِ: أحقّاً كانَ لِلْكبارِ طُفولَةٌ ذاتَ يَوْمٍ؟ أحقّاً كانَ هَؤلاءِ أطْفالاً؟ هؤلاءِ ٱلَّذينَ خُلِقوا لِيُراقِبونا، خُلِقوا كِباراً لِيُزْمِعوا على ٱخْتِصارِنا، وٱخْتَصَرونا، فَها نَحْنُ شَدِهونَ مِنْ أكاذيبِهِم عَنْ طُفولَةٍ لَمْ تَكُنْ، يَسْرُدونها زاعِمينَ أنَّهم يُفْرِحونَنا بِها، لكِنَّهُم ـ يَقيناً ـ يَسْرُدونها لِيُقْنِعوا أنْفُسَهُم أنَّهم كانوا كائِناتٍ وَديعَةً في زَمَنٍ ما، زَمَنٍ مُوغِلٍ في ٱلجَحيم.

يَبْدَأُ السَّرْدُ، أوَّلَ ٱلأمْرِ، عَنْ عاصِفٍ مِنَ الثَّلْجِ أشَدَّ مِمّا رَأيْنا، وَيُسَمّونَهُ «الثَّلْج ٱلكبير». وَهُنا تَخْتَلِطُ ٱلوقائِعُ.

يَزْعُمُ ٱلكثيرونَ ـ مِمَّنْ يَتَمَلَّقونَ طبائِعَ ٱلبُسطاءِ في تَمَسُّكِهِم بِٱلأصالَةِ الرَّثَّةِ ـ أنَّ الرّيفيّينَ يَعْرِفونَ التَّواريخَ وَوقائِعِها مِنْ دونِ سِجِلٍّ. والأكيدُ أنَّهُم يُتْقِنونَ شَيْئاً مِنْ ذلكَ، يُتْقِنونَ مَعْرِفَةَ مواعيدِ ٱللَّيْلِ والنَّهارِ، طُولِهِما وَقِصَرِهِما. وَيَعْرِفونَ مواعيدَ ٱلمَطَرِ وهُبوبَ الرّياحِ، وكذلكَ دَوْراتِ ٱلبُذورِ، إنَّهُم يُتْقِنونَ ٱسْتِقراءَ السَّنَةِ ٱلَّتي يَعيشونَها تَفْصيلاً، لكنَّهُم، حينَ يُحاوِلونَ ٱسْتِعادَةَ ٱلماضي، وٱسْتِعادَةَ التَّواريخِ وَوَقائِعِها، فإنَّما يَخْلُطونَ ما حَصَلَ بِما لَم يَحْصُلْ، وَيَخْلُطونَ «سَوْفَ» بـ«كانَ»، وَيُحيلونَ ٱلحاضِرَ إلى مَصَبٍّ خُرافيٍّ لِجَداوِلَ مِنْ حَصى الذّاكِرَةِ. لذلكَ كُلِّهِ كانَ «الثَّلْجُ ٱلكَبيرُ» مَرْفَأَ كُلِّ حادِثٍ وَقَعَ قَبْلَ ذلكَ بكثيرٍ، أوْ بَعْدَ ذَلِكَ بكثيرٍ.

يَسْرُدُ ٱلكبارُ أن ٱللَّحْمَ كان يَتَساقَطُ مِنْ شِدَّةِ ٱلبَرْدِ عَنِ ٱلأقْدامِ حتّى تَبْدو ٱلأمْشاطُ ٱلعظمِيَّةُ. كانَتِ ٱلأقْدامُ تَنْتَفِخُ فَيَلْتَصِقُ ٱللَّحْمُ بِباطِنِ ٱلأحْذِيَةِ، وَتَأْكُلُ ٱلأغْنامُ بَعْضُها صوفَ بَعْضٍ مِنْ قِلَّةِ ٱلعَلَفِ. وَيَسْرُدونَ أنَّ الصَّيْفَ ٱلَّذي أعْقَبَ شِتاءَ

«الثَّلْجِ ٱلكبيرِ» كانَ صَيْفاً مُجْدِباً دَفَعَ النّاسَ إلى ٱلبَحْثِ عَنْ بقايا حُبوبٍ في رَوْثِ ٱلماشِيَةِ. وَيَسْرُدونَ أنَّ ثَمَنَ عُضْوِ الثَّوْرِ جاوَزَ ثَمَنَ نَعْجَةٍ مِمّا يُباعُ في أيّامِ الرَّخاءِ. وَنَتَلَقَّفُ ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ ٱلمَسْألَةَ بِدَهَشٍ بالِغٍ: «عُضْوُ الثَّوْرِ»؟ وَيَقولونَ: «نَعَمْ، عُضْوُ الثَّوْرِ... يَشْويهِ ٱلمَرْءُ على النّارِ قَليلاً ثُمَّ يَلوكُهُ مُتَوَهِّماً أنَّ في فَمِهِ طَعْمَ شواء». وَيَسْرُدونَ أنَّ النّاسَ أكَلَتِ ٱلغَنَمَ، وحينَ نَفِدَ ٱلغَنَمُ أكَلَتِ ٱلأحْصِنَةَ وٱلبِغالَ، وحينَ نَفِدَتِ ٱلأحْصِنَةُ وٱلبِغالُ أكَلَتِ ٱلحَميرَ، وحينَ نَفِدَتِ ٱلحَميرُ أكَلَتِ ٱلقِطَطَ. بَعْضُ النّاسِ تَوَقَّفَ عَنِ الأكْلِ، ٱنْتَفَخَتْ بُطونُهُم وَنَفَقوا، وَبَعْضُهُمُ ٱلآخَرُ أكْمَلَ ٱلمَسيرةَ فٱسْتَنْفَدَ ٱلكِلابَ والسَّحالي.

... وَيَمْضي ٱلكِبارُ على سَرْدِهِم، فلا نَرى في ما يَسْرُدونَ شَيْئاً مِنْ طُفولَتِنا، فَنَمْضي لِلْبَحْثِ عَنْها في الثَّلْجِ، وفي ما وَراءَ الثَّلْجِ، حَيْثُ تَدورُ مَغازِلُ الرِّياحِ فَتُحيلُ ٱلقُطْنَ السَّماوِيَّ ٱلبارِدَ إلى جَليدٍ صَلْبٍ كٱلخوذَةِ، وَحَيْثُ تَدورُ مغازِلُ ٱلأرْضِ فَتُحيلُ ٱلكائِنَ إلى خُرافَةٍ.

عَقِبَ أيّامِ الثَّلْجِ، وحينَ تَشَقَّقَتِ السُّهولُ فَنَفَرَتِ ٱلحيَاةُ مِنَ الشُّقوقِ لابِسَةً قِناعَ بُرْعُمٍ أو فَراشَةٍ، بَدَأَتْ مواكِبُ ٱلمُريدينَ

تَقْصِدُ بَيْتَ الشَّيْخِ أحْمَدَ ٱلخَزْنَوِيّ في الشِّمالِ الشَّرْقيّ. وَمُريدو ٱلخَزْنَوِيِّ مُتَعَصِّبونَ لَهُ، يَعْقِدونَ حَلَقاتِ الذِّكْرِ طَوالَ مَوْسِمِهم ذاكَ، وإذ يَعودونَ يَسْتَأْنِفونَ حَلَقاتِهِم في ٱلبُيوتِ، يَخْتارونَ بَيْتَ ٱلأَكْثَرِ تَقْوى عادَةً، وَهُناكَ كُنّا ـ نَحْنُ ٱلأَطْفالَ ـ نَضْحَكُ أوْ نَرْتَعِشُ مِمّا يَجْري.

قَبْلَ عَقْدِ ٱلحَلْقَةِ يَتَوَزَّعُ ٱلمُريدونَ خُبْزَ الشَّعيرِ ٱلَّذي جاؤوا بِهِ مِنْ بَيْتِ ٱلخَزْنَوِيِّ، ويكونُ لنا نَصيبُنا مِنَ التَّبَرُّكِ بِذلِكَ ٱلخُبْزِ ٱلقاسي. يَجيءُ ضارِبُ الدُّفِّ، (يُسَمّونَهُ «العُرْبانَة»)، ذي ٱلحَلَقاتِ النُّحاسِيَّةِ، وَتَبْدَأُ التَّواشيحُ هادِئَةً، ثُمَّ لا تَلْبَثُ أنْ تَكْتَسِحَ قاماتِ شَجَرِ الصَّفْصافِ عُلُوّاً.

يَتمايَلُ ٱلمُريدونَ. تَتَمايَلُ الرُّؤوسُ. يَخْتَلِطُ ٱلكلامُ فَيُمْسي هَمْهَمَةً وَدَمْدَمَةً. تَتَشَنَّجُ ٱلوُجوهُ وَتُرْغي ٱلأفْواهُ. يَتَساقَطُ ٱلبَعْضُ غائِباً عَنْ وَعْيِهِ فَيَصْرُخُ ٱلآخَرونَ: «جاءَهُمُ السِّرُّ». وَنَتَمَنّى ـ نَحْنُ ٱلأَطْفالَ ـ أنْ يَجيئَنا «السِّرُّ» ذاتَ يَوْمٍ، لكنَّ «السِّرَّ» لا يأتي. نُقْنِعُ أنْفُسَنا أنَّ ٱلمَسْأَلَةَ خاصَّةٌ بِٱلكِبارِ.

يَقولُ بَعْضُ ٱلمُريدينَ إنَّ الشَّيْخَ ٱلخَزْنَوِيَّ يَمْتَعِضُ مِنْ هَذِهِ ٱلحَلَقاتِ، لكنْ ماذا يَفْعَلُ ٱلخَزْنَوِيُّ وهَؤلاءِ هُمْ مَجْدُهُ؟ إنَّهُ

يُولِمُ لِلْمُريدينَ طَوالَ أُسبوعَيْنِ. يُوْلِمُ لِعَشَراتِ ٱلآلافِ مِنَ ٱلقاصِدينَ. السَّكاكينُ مَشْهورَةٌ أبَداً فَوْقَ أعْنَاقِ ٱلـخِرافِ، وَتَنانيرُ ٱلـخُبْزِ مُسْجَرَةٌ أبَداً أمامَ أرْغِفَةِ الشَّعيرِ. هذا دَأْبُ ٱلـخَزْنَوِيِّ ٱلأعْظَمِ مَجْداً في الشِّمالِ كُلّه، والأعْظَمِ هَيْبَةً. تَسْتَرضيهِ الحُكوماتُ المُتَعاقِبَةُ كالجَرادِ، وتَسْتَرْضيهِ العَشَائِرُ... وكذلكَ يَسْتَرْضيهِ ٱلأطْفالُ ٱلَّذينَ إذا أقْسَموا لَمْ يَحْنِثوا في ٱلقَسَمِ قَطُّ، لأنَّ ٱلـخَزْنويَّ يَتَهَيّأُ في الأحلامِ فَيَأخُذُ بِتلابيبِ ٱلكاذبينَ أو يَضْغَطُ ٱلأعْناقَ حتّى تَجْحَظَ ٱلعيونُ. ويا ما سَمِعْنا أنَّ فُلاناً مِن النّاسِ هَبَّ مِنْ نَوْمِهِ صارِخاً: «التَّوْبَة، التَّوْبَة يا شَيْخ أحمد».

... وَمُريدو الشَّيْخِ ٱلـخَزْنَوِيِّ تَقْليديُّونَ. نَحْفَظُهُم عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ. نَحْفَظُ حَرَكاتِهِم وَسُلوكَهُم. نَعْرِفُ النِّساءَ ٱلأكْثَرَ صُراخاً في ٱلـحَلَقاتِ، وٱلأكْثَرَ تَطَرُّفاً في تَصَرُّفاتِهِنَّ إذا جاءَهُنَّ «السِّرُّ». لكنَّ شكرو مُريدٌ غَريبٌ، مُريدٌ مُتَقَلِّبٌ طَريفٌ لِلْغايَةِ. يَقْطَعُ تِسْعينَ كيلومتراً مِنَ ٱلـمَدينَةِ إلى بَيْتِ ٱلـخَزْنَوِيِّ على قَدَمَيْهِ، زاعِماً أنَّ ٱلبَرَكَةَ تكونُ أكْبَرَ إذا كَبُرَتِ ٱلـمَشَقَّةُ. وشكرو مُتَوَسِّطُ الطُّولِ، عَريضٌ جِدّاً. يَلْبَسُ ثَلاثَةَ أثْوابٍ بعْضُها فَوْقَ

بَعْضٍ، وَيَرْتَدي تَحْتَها سِرْوالاً مِنَ الصّوفِ، وَفَوْقَها عَباءَةٌ سَميكةٌ مِنْ شَعْرِ ٱلماعِزِ. يَرْتَدي كُلَّ تِلْكَ الثّيابِ صَيْفاً شِتاءً، وَيَحْمِلُ في يَدِهِ هِراوَةً طَويلَةً مَرْبوطَةً إلى مِعْصَمِهِ بِخَيْطٍ مِنَ ٱلقُنَّبِ خِشْيَةَ أنْ تَضيعَ. وَلَهُ ـ فَوْقَ هذا ـ هَوَسٌ بِجَمْعِ ٱلخُيوطِ مِنَ الطُّرُقِ. كُلُّ جُيوبِهِ مَلأى بِٱلخيطانِ، وَحينَ تَفيضُ عَنْ جُيوبِهِ يَضَعُها في عمامَتِهِ.

لا عَمَلَ لشكرو غَيْرُ ٱلبَحْثِ عَنِ ٱلولائِمِ، وَلائِمِ ٱلأعْراسِ أوِ ٱلوِلاداتِ أو ٱلخِتانِ أو ٱلمَوْتِ. وَتَنْتابُهُ نَوْباتُ صَرَعٍ يُرْغي وَيُزْبِدُ فيها كَثَوْرٍ، ثُمَّ يُفيقُ مَنْهوكاً فَيَشْرَبُ سَطْلاً مِنَ ٱلماءِ يَنْدَلِقُ على لِحْيَتِهِ الطَّويلَةِ ٱلكَثَّةِ فَتَسْتَحيلُ إلى مِزْرابٍ. وَلَيْسَ لشكرو بَيْتٌ. يَنامُ كَيْفَما ٱتَّفَقَ لَيْلاً، في زَريبَةٍ أو في خِرْبَةٍ.

كُنّا نَخافُهُ، نَحْنُ ٱلأطْفالَ، نَخافُ عَيْنَيْهِ ٱلجاحِظَتَيْنِ وَنَوْباتِ صَرَعِهِ، على ٱلعَكْسِ مِنَ النِّساءِ ٱللّائي كُنَّ يَسْمَحْنَ له ـ وَهُوَ الذَّكَرُ ـ بِحضورِ ٱلحَلَقاتِ ٱلخاصَّةِ بِهِنَّ، مُتَعَلِّلاتٍ بقُصورِهِ ٱلعَقْليِّ. وكانَ شكرو يَتَحَيَّنُ ذلكَ، بَلْ يَزيدُ في بلاهَتِهِ لِيَنْعَمَ بِٱللُّعْبَةِ، فإذا ٱهْتاجَتْ إحْداهُنَّ وٱدَّعَتِ ٱلإغْماءَ في حَضْرَةِ ٱلإلَهِ، يَنْهَضُ شكرو إلَيْها فَيَحْمِلُها خارِجَ ٱلحَلْقَةِ. وَقَدْ ضُبِطَ مِراراً

وَهُوَ يَضَعُ ٱلـمُغْمى عَلَيْها في حِجْرِهِ على صورَةٍ تُنْبِىءُ لا بٱلـمُساعَدَةِ، بَلْ بِشَيْءٍ آخَرَ. وَرَأَيْنا مِراراً ـ نَحْنُ ٱلأَطْفالَ ـ أنَّ ٱلـمُغْمى عَلَيْهِنَّ كُنَّ يَثُبْنَ إلى رُشْدِهِنَّ، لا مِنْ إسْعافاتِ شكرو، بَلْ مِنْ شِدَّةِ ٱلْتِصاقِهِ بِهِنَّ، كُنَّ يَحْدُجْنَهُ شَزَراً حَدْجاً مُمْتَزِجاً بِشَهْوَةٍ خَفِيَّةٍ، وَيَشْتُمْنَهُ مُشيراتٍ بأَبْصارِهِنَّ إلى مَكانٍ مُتَأَهِّبٍ في جَسَدِهِ، فَيَضْحَكُ ضِحْكاً كالنَّشيجِ وَيَسْتَلْقي.

كانَ شكرو مَرِحاً عادَةً، لكنَّ «يَوْمَ الظَّلامِ» أحالَهُ إلى كائِنٍ مُتَجَهِّمٍ مَذْعورٍ. أتَعْرِفونَ «يَوْمَ الظَّلامِ»؟ أفَقْنا ذاتَ صباحٍ على ظَلامٍ غَريبٍ، ظَلامٍ أسْمَرَ، وكانَ ٱلـهَوْلُ مُرْتَسِماً على وُجوهِ ٱلكِبارِ. إنَّهُ الصَّباحُ حقّاً، لكنَّهُ صَباحٌ لا يرى فيهِ ٱلـمَرْءُ أبْعَدَ مِنْ مِتْرٍ واحِدٍ. خَرَجْنا إلى باحَةِ ٱلبَيْتِ فَكِدْنا نَضِلُّ الطَّريقَ إلى ٱلبابِ. الغُبارُ ٱلـمَلَكِيُّ، ٱلغُبارُ ٱلـجَسورُ ٱقْتَحَمَ ٱلأَرْضَ كُلَّها، كانَ يَنْدَلِقُ مِنَ الزُّجاجِ. يَتَسَرَّبُ مِنَ الزُّجاجِ كما يَتَسَرَّبُ شُعاعُ الشَّمْسِ. كانَ يَنامُ مَعَنا في ٱلأَسِرَّةِ حينَ أفَقْنا. كانَ داخِلَ ثيابِنا.

سَرَتِ ٱلـهَمْهَماتُ: «إنَّها ٱلعَلامَةُ». تَوَضَّأَ ٱلكِبارُ وساروا إلى ٱلـمَسْجِدِ فَسِرْنا وَراءَهُم نَتَقرّى ٱلحيطانَ كَما يَتَقَرّونَ، عُمْيانٌ

يَجُرُّهُمُ ٱلعُمْيانُ. وعلى بابِ ٱلمَسْجِدِ الضَّخْمِ ٱجْتَمَعَ رِجالُ ٱلحَيِّ كُلُّهُم. تَمْتَماتٌ وَتَعاوِيذُ. يَنْظُرونَ في ٱتِّجاهِ ٱلغَرْبِ ويَقولونَ: «سَتُشْرِقُ مِنْ هُنا».

كانَتْ لُعْبَةً غَريبَةً عَلَيْنا، لُعْبَةً بَدَأَتْ بِقَلَقٍ صَغيرٍ ما لَبِثَ أَنْ باتَ تَرَقُّباً حَقيقيّاً لِطُلوعِ الشَّمْسِ مِنَ ٱلغَرْب.

الغبارُ يَنْحَسِرُ قَليلاً. صِرْنا نَرى ٱلبُيوتَ على الرَّصيفِ ٱلمُقابِلِ، لكنَّ ٱلهَوْلَ هو ٱلهَوْلُ: يَروحُ شكْرو وَيَجيءُ في وَسَطِ الشّارِعِ، وحينَ يَرْفَعُ يَدَيْهِ في ٱتِّجاهِ ٱلغَيْبِ صارِخاً: «مَدَدْ خوجا... مَدَدْ» تَرْتَفِعُ هَراوَتُهُ ٱلمُعَلَّقَةُ بِخَيْطٍ إلى مِعْصَمِهِ. يَصيحُ بِهِ ٱلكبارُ: «إهْدأ يا شكرو»، فَيَرْكُضُ شكرو إلى ٱلإمامِ ٱلواقِفِ أمامَ بابِ ٱلمَسْجِدِ، يُقَبِّلُ يَدَيْهِ في ضَراعَةٍ، وَيَنْظُرُ إلى وَجْهِهِ مُتَوَسِّلاً. يَقولُ ٱلإمامُ: «لا خَوْفَ على ٱلمُؤْمِنينَ، لا خَوْفَ عَلَيْهِم».

لا نَعْرِفُ لِماذا يَقِفونَ عِنْدَ ٱلبابِ ولا يَدْخُلونَ، لكنَّ بَعْضَ التَّمْتَماتِ يُسَرّي عَنّا: «المَسْجِدُ مَلاذٌ أخيرٌ»... إذَنْ لَمْ يأتِ، بَعْدُ، الخَطَرُ ٱلفَادِحُ ٱلَّذي يُلْجِئُنا إلى ٱلمَسْجِدِ. نَتَنَفَّسُ قَليلاً، ثُمَّ نَكْتُمُ أنْفاسَنا حينَ نَسْمَعُ بِـ«الدَّجّالِ» و«ٱليأجوجِ وٱلمأجوج».

كائِناتٌ سَتَأْتي. كائِناتٌ ذاتُ لِحىً. كائِناتٌ لا يُجاوِزُ طولُها الذِّراعَ، تَأْكُلُ ٱلحَديدَ وَٱلحِجارَةَ... كائِناتٌ يقودُها أعْوَرُ على حِمارٍ أعْوَرَ، يَنْضَمُّ إليهِ ٱلعاصونَ في ٱلأرْضِ، وأكْثَرُهُم مِنَ النِّساءِ. وَهُنَّ سَيَتَقَدَّمْنَهُ عارِياتٍ يُغْوِينَ مَنْ صَمَدَ، وعلامَةُ ٱلمَجيءِ أنْ تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنَ ٱلغَرْبِ.

هذا هو الظَّلامُ النَّذيرُ إذاً، وهذا ٱلغُبارُ هُوَ غُبارُ السّورِ ٱلَّذي ٱنْهارَ، السّورِ ٱلَّذي ضَرَبَهُ ٱللّهُ مِنْ حَوْلِ ٱليَأْجوجِ وَٱلمَأْجوجِ فما ٱسْتطاعوا ٱجْتِيازَه.

يقولُ شكرو للإمامِ: «سَأَرُدُّهُم بٱلهراوَةِ»، يَقولُ لَهُ ٱلإمامُ: «إهْدَأْ». يقولُ شكرو: «سأعْصِبُ عَيْنَيَّ فلا تَقْدِرُ النِّساءُ على إغْوائي»، فَيَرُدُّ الإمامُ: «إهْدَأْ». يُهَرْوِلُ شكرو مِنْ جَديدٍ رائِحاً غادِياً في وَسَطِ الطَّريقِ، مُبْتَهِلاً: «مَدَدْ خوجا... مَدَدْ».

يَرْتَفِعُ ٱلغُبارُ عَنِ ٱلأرْضِ ظُهراً. تَظْهَرُ ٱلأشْكالُ كَما لَوْ خَرَجَتْ مِنْ بُحَيْرَةٍ تُرابيَّةٍ. يَنْظُرُ النّاسُ إلى أعْلى. تَلوحُ الشَّمْسُ خَلْفَ غُلالَةٍ مُعْتِمَةٍ قُرْصاً أحْمَرَ باهِتاً في وَسَطِ خُوذَةِ السّماءِ. يَحارُ ٱلكِبارُ: «إنَّها في ٱلمُنْتَصَفِ! أتُراها طَلَعَتْ مِنَ الشَّرْقِ أمْ مِنَ ٱلغَرْبِ»؟ يَتَرَيَّثونَ لِيَعْرِفوا في ٱلمَدى ٱلمُقْبِلِ أيْنَ تَميلُ.

لكنَّ شكرو لا يَتَرَيَّثُ. يُلقي بِعمامَتِهِ إلى ٱلأرْضِ وَيَصْرُخُ: «مِنَ ٱلغَرْبِ، مِنَ ٱلغَرْبِ... مَدَد». ثُمَّ تَنْتابُهُ نَوْبَةُ صَرَعٍ فَيَسْتَلْقي على ٱلقارِعَةِ كَسورِ ٱليأجوجِ ٱلَّذي ٱنْهار.

بَعْدَ حينٍ يَظْهَرُ خَطَأُ التَّقديرِ. تَأَجَّلَتِ ٱلقيامَةُ، وَتَأَجَّلَ خَرابُ ٱلعالَمِ، وعلى ٱلأرْضِ أنْ تَحْتَمِلَ عِبْئَها قُروناً أُخرى، أنْ تَحْتَمِلَ ٱلـمَوْتى وَدَسائِسَهم. وَهُنا يَنْفَضُّ ٱلكِبارُ عَنْ بابِ ٱلمَسْجِدِ وَنَبْقى نَحْنُ الصِّغارَ، فما يَمُرُّ بَعْضُ ٱلوَقْتِ إلّا نَرْكُضُ خَلْفَ أغْنامِ حَمْدانَ الرّاعي، ٱلَّذي خَرَجَ مِنْ حَظيرَتِهِ مُتَأَخِّراً ذلكَ النَّهارَ، لِلْمَرَّةِ ٱلأوْلى، بَعْدَ ثلاثينَ سَنَةً مِنَ ٱلبُكورِ.

لَيْسَ لِشكرو صَديقٌ ـ كَما نَعْلَمُ ـ غَيْرَ حمدان. وٱلأخيرُ يُؤْويهِ في حَظيرَتِهِ أكْثَرَ ٱللَّيالي. وحمدانُ في ٱلعِقْدِ الرّابِعِ مِنَ ٱلعُمْرِ، يَرْعى غَنَمَ أخيهِ ٱلـجَزّارِ غَرْبَ ٱلـمَدينَةِ. وَهَبَهُ أخوه، مُقابِلَ عَمَلِهِ، بَيْتاً مُسَيَّجاً بِسورٍ طينيٍّ واطِىءٍ. بَيْتاً مِنْ غُرْفَةٍ واحِدَةٍ، يَنامُ فيها مَعَ أتانِهِ وَكَلْبِهِ وَبَعْضِ ٱلـخِرافِ ٱلوليدَةِ، وٱنْضَمَّ إلَيْهِم شكرو بَعْدَ ذلك. أمّا ٱلباحَةُ ٱلواسِعَةُ فكانَتْ مِلْكاً لِلأغْنامِ. لكِنَّ صَداقَتَهُما لَمْ تَدُمْ طَويلاً، لأنَّ شكرو لَمْ يَكْتُمْ أسْرارَ صاحِبِهِ.

كَبُرَ حمدانُ ٱليَتيمُ في كَنَفِ أخيهِ ٱلَّذي أوْكَلَ إليهِ الرَّعْيَ مُنْذُ صِغَرِهِ، فَنَشَأَ لا يَفْقَهُ مِنَ ٱلمَدينَةِ والنّاسِ غَيْرَ ٱلأسْماءِ، ولا يُجاوِزُ عالَمُهُ دائِرَةً تَتَّسِعُ لِمائَةِ نَعْجَةٍ. كان وَحيداً تَماماً، وَلَمْ يَصُنْ شكرو أسْرارَ وَحْدَةِ حمدان: كانَ يَتَحَدَّثُ عَنْ علاقَةٍ غَريبةٍ بَيْنَ الرّاعي وَبَيْنَ النِّعاجِ. وٱسْتَدْرَجَ ٱلفُضوليّونَ ٱلكبارُ شكرو لِيَشْرَحَ تِلْكَ ٱلعلاقاتِ تَفْصيلاً فَلَمْ يُوَفِّرْ شارِدَةً أو وارِدَةً.

كانَ يَقولُ إنَّ حمدانَ يَنْهَضُ لَيْلاً فَيَحْشُرُ ٱلأتانَ في زاوِيَةٍ، ثُمَّ يَعْتَليها ٱعتِلاءَ الرَّجُلِ ٱلمَرْأَةَ، أو يَغْتَصِبُ النِّعاجَ فَوْقَ ٱلعِزْزالِ.

غَضِبَ حَمْدانُ مِنْ تَشْهيرِ شكرو، لكنَّ غَضَبَ أخيهِ مِنَ ٱلاثْنَيْنِ كانَ أشَدَّ. وَدَفْعاً لِلأقاويلِ قَرَّرَ تَزْويجَ الرّاعي، فَدَفَعَ أَلْفَ ليرةٍ مَهْراً إلى طِفْلَةٍ يَتيمةٍ في ٱلحادِيَةَ عَشْرَةَ مِنْ عُمْرِها. كانَتْ طِفْلَةً حقّاً، تَسْرُدُ لنا ـ نَحْنُ ٱلأطْفالَ ـ بِبَلاهَةٍ كَيْفَ يَضْرِبُها حَمْدانُ إذا تَمَنَّعَتْ عَلَيْه، وكَيْفَ يَخْلَعُ ثِيابَها بفَظاظَةٍ كَما يُقَشِّرُ البصَلَ، وَكَيْفَ يَسُدُّ فَمَها بِيَدِهِ ٱلخَشِنَةِ كَيْ لا يَسْمَعَ صُراخَها أحَدٌ... وَكَيْفَ... وَكَيْفَ... وَنَرْتَجِفُ ـ نَحْنُ

ٱلَّذينَ ٱسْتَدْرجوها ـ مِنْ هذا الطَّقْسِ كُلِّهِ، وَمِنْ هذا الرّاعي الشَّيْطانيِّ «زَوْجِ النَّعْجَةِ».

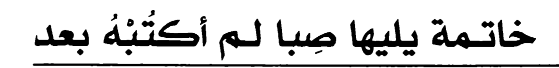
لَمْ يَكُنْ لَنا ـ نَحْنُ بُذورَ الشِّمالِ ـ إلّا أنْ نَخْرُجَ مِنَ الشُّقوقِ مُسْتَسْلِمينَ لِعاصِفَةِ الرُّعْبِ. الرُّعْبُ الرُّعْبُ الرُّعْبُ الرُّعْبُ. بِهِ تَبْدَأُ ٱلأرْضُ وَبِهِ تَنْتَهي. وَبالرُّعْبِ ذاتِهِ، بٱلهَذَيانِ ٱلَّذي يُسْدِلُهُ الرُّعْبُ على ٱلأعْماقِ، كانَ عَلَيْنا أنْ نَتَواصَلَ في وَسَطِ كَوْكَبٍ مِنْ صُراخِ زَوْجَةِ حمدانَ ٱلمَكْتومِ، مِنْ صُراخٍ مَديدٍ يَسْتَفْحِلُ وَيَسْتَشْري. وَكُنّا نَضْحَكُ دائِماً، نَرْتَجِفُ مِنَ الضَّحِكِ، نَضْحَكُ مُرْتَجِفينَ. وَكَيْفَ لا نَضْحَكُ من مَشْهَدِ فَتىً راكِضٍ في ٱلأزِقَّةِ وَخَلْفَهُ ٱلمُطارِدونَ؟ أتَعْرِفونَ لِماذا يُطارِدونَهُ؟ خَذَلَهُمْ في الدُّخولِ على عَروسِهِ، نَعَمْ... خَذَلَهُم فَطارَدوهُ كٱلمَلْعون.

جاءَ وَالِدُ بيرامَ لبيرامَ بِعَروسٍ مِنْ عُمْرِهِ، (كِلاهُما في الرّابِعَةَ عَشْرَةَ)، ثُمَّ أقامَ ٱلأرْضَ وأقْعَدَها طَبْلاً وَزَمْراً لِتَكونَ شاهِدَ ٱكْتِمالِ ٱلفُحولَةِ. وذاتَ لَيْلَةٍ مِنْ ليالي ٱلكَرْنَفالِ السَّبْعِ دَفَعَ ٱبْنَهُ إلى غُرْفَةٍ جَهَّزَتِ النِّساءُ فيها عَروسَهُ، وٱنْتَظَرَ مَعَ ٱلمُنْتَظِرينَ خُروجَ ٱلفَتى رافِعاً بَيْرَقَ ٱنْتِصارِهِ على غِشاءِ النِّعْمَةِ ٱلأزَلِيِّ.

وَطالَ ٱنْتِظارُ ٱلأبِ حتّى الصَّباحِ. وَقْتَذا ٱقْتَحَمَتِ النِّساءُ ٱلقَلِقاتُ مَضْجَعَ ٱلعَروسَيْنِ. رَكَضْنَ يَكْشِفْنَ عَنِ ٱلفتاةِ فَما رَأَيْنَها إلّا كَما دَخَلَتْ، كَنْزاً عَلَيْهِ ٱلقِفْلُ ذاتُهُ. وَلْوَلْنَ فٱرْتَعَدَ ٱلفَتى. جَرَرْنَهُ مِنْ شَعْرِهِ صارِخاتٍ: «إنَّه عِنّيييين». تَمَلَّصَ مِنْهُنَّ ٱلفَتى وَوَلّى هارِباً يَتَعَقَّبُهُ الصِّغارُ الصّاخِبونَ وٱلأقْرِباءُ ٱلَّذينَ خَذَلَهُم، فَغَطّوا وُجوهَهُم مِنَ النّاسِ خَجَلاً بِضْعَةَ أيّامٍ. وَنَضْحَكُ نَحْنُ ٱلأطْفالَ، نَضْحَكُ مِنَ ٱلفَتى ٱلخائِبِ وَنَنْضَمُّ إلى ٱلمُطارِدينَ. هكذا، دونَ إنْذارٍ نُعْلِنُ عَداءَنا. وَجَدْنا، أخيراً، مَنْ نُقاصِصُهُ غَيْرَ خائِفينَ مِنَ ٱلعِقابِ. نَحْمِلُ حِجارَةً خَشِنَةً، نَحْمِلُ التُّرابَ مِلْءَ قَبَضاتِنا وَنَضْرِبُ رأسَ ٱلفَتى. نُمْعِنُ في ٱنتِقامٍ لا سَبَبَ لَهُ. نُمْعِنُ في ٱكْتِشافِ حِقْدِنا على ٱلكائِنِ، على أيِّ كائِنٍ، وحينَ نَعْيا عَنِ ٱللَّحاقِ بِهِ طَويلاً، نَكيلُ لَهُ الشَّتائِمَ ٱلمُرَّةَ، وَنَعودُ أدْراجَنا إلى حَيْثُ نَسْمَعُ هَمْساً غَريباً: «أَلَمْ يُلَقِّنوا ٱلكَلْبَ أنْ يَفْعَلَ ذلكَ بِيَدِهِ إذا خَذَلَتْهُ ٱلفُحولَةُ؟... تفو». وَنَتَساءَلُ نَحْنُ: «بِيَدِهِ؟» مِنْ دونِ أنْ يَكونَ لِلأمْرِ أيُّ مَعْنىً. فٱليَدُ لِلأكلِ وَلِلضَّرْبِ وَلِلسَّرِقَةِ وَلِلَعِبِ البلي لا غَيْرَ. لكنَّ ٱلكِبارَ يَفْعلونَ بأيْديهِم أشْياءَ لَمْ تَخْطُرْ على بالِنا.

كانَ ذلكَ كُلُّهُ في ما مَضى مِنْ وَقْتٍ غريبٍ، أَلْقى على رُؤوسِنا نِثاراً مِنْ طحينٍ أسْمَرَ، وَمِنْ حُروفٍ وَنُحاسٍ وأباطيلَ حُلْوَةٍ كَجُذورِ السّوسِ. كان وَقْتاً لَيْسَ لنا، مِثْلَ ٱلأَوْقاتِ كُلِّها ٱلَّتي تَعاقَبَتْ على ٱلأَرْضِ. بَيْدَ أنَّ ٱلمَكْسورينَ مِثْلَنا لَمْ يَكونوا لِيَأْبَهوا لاَنْكِسارٍ جديدٍ، وَلَمْ يَكُنْ لأِحَدٍ أنْ يأخُذَ مِنْهُم ما لا يَمْلِكونَهُ. لذا وَضَعْنا الدَّبابيسَ في عَلَفِ بَقَراتِ سيروب، وَفَتَحْنا سُدودَ ٱلمياهِ على حُقولِ غربيت حتّى ٱخْتَنَقَتْ، ثُمَّ مَضَيْنا إلى مَخادِعِنا لِنَنْهَبَ لَيْلاً ما لَمْ نَقْدِرْ على نَهْبِهِ نَهاراً.

خاتمة يليها صِبا لم أكتُبْهُ بعد



وماذا بَعْدُ؟ ماذا عَنِ ٱلكَلْبَةِ السَّوْداءِ توسي ٱلَّتي لَمْ تَتْرُكْ قُنّاً إلّا وَسَرَقَتْ مِنْهُ بَيْضَةً أو صُوصاً؟ ماذا عَنْ قَتْلِها غَرَقاً في مُسْتَنْقَعِ موسيسانا بَعْدَما مَلأَتِ ٱلمَذاري ٱلحَديديَّةُ جَسَدَها ثُقوباً؟ ماذا عَنِ ٱلعُصفورِ ذي السّاقِ ٱلواحِدَةِ، ٱلعُصْفورِ التَّراجيديِّ ٱلَّذي كانَ يُزاحِمُ الدَّجاجاتِ على حُبوبِها فَتَنْقُرُهُ الدَّجاجاتُ فَيَنْتحي جانِباً يَنْتَظِرُ فُرْصَةً لاَخْتِلاسِ زادِهِ ٱلمَريرِ؟ ماذا عَنِ ٱصْطيادِكَ لَهُ بَعْدَ تَرَبُّصٍ طَويلٍ، وَعَنْ نَتْفِكَ لِجناحَيْهِ وإلقائِهِ إلى الدَّجاجاتِ لِيَتَناوَبْنَ عَلَيْهِ نَقْراً حتّى ٱلمَوْتِ؟ ماذا عَنْ أُخْوَةِ شاكِر ٱلعَتّالِ، ٱلَّذينَ حَوَّلوا عُرْسَ بَهْرَم إلى مَجْزَرَةٍ، لأنَّ أخاهُمْ كانَ يَطْمَعُ في الزَّواجِ مِنَ ٱلعروسِ؟ ماذا عَنْ خَطْفِهِمْ لِلْفتاةِ بَعْدَ مَقْتَلِ ٱلعَريسِ وَسِتَّةٍ آخرينَ؟ ماذا عَنِ ٱغْتِصابِها تَحْتَ مَطَرٍ مِنْ زغاريدِ النِّساءِ ٱللَّواتي تَشَفَّيْنَ مِنْ أهْلِ ٱلعروسِ لِرَفْضِهِم تَزْويجَها مِنْ شاكر؟ ماذا عَنْ حندر ٱلَّذي

آجْتازَ آلحُدودَ التُّرْكِيَّةَ في ثلاثينَ رَجُلاً على آلخُيولِ لِيَأْخُذَ عفدي مِنْ بَيْتِهِ سَحْلاً إلى تُرْكيا؟ ماذا عَنْ صُراخِ عَفْدي وَعَويلِه؟ ماذا عَنِ الدَّرَكِ النّائِمِ؟ ماذا عَنْ مخافِرِ آلحُدودِ آلَّتي لَمْ تُحَرِّكْ ساكِناً، وكانَتْ أعْنَفَ ما تكونُ حينَ يَشْتُمُ طِفْلٌ في بلادِهِم طِفْلاً آخَرَ، أو يُعْلِنُ كُرْدِيٌّ أنَّه كُرْديٌّ؟ ماذا عَنْ شاور السَّكْران أبَداً، عَنْ وُقوفِهِ أمامَ بَوّاباتِ السّينَما لَيْلاً نَهاراً، حامِلاً وَرَقَةَ حَظٍّ صَغيرةً لِيُقامِرَ على عُلَبِ پول مول؟ ماذا عَنْ سطيفو آلَّذي يَعْبُرُ الطُّرُقَ عارِياً بِنِصْفِهِ آلأعْلى، وَقَدْ كُتِبَتْ على ظَهْرِهِ كَلِمَةُ «طرزان» بِخَطٍّ عَريض؟ ماذا عَنِ حبسونو آلأبْلهِ؟ ماذا عَنِ آلعَتّالينَ آلَّذينَ تَعاقَبوا عليهِ آغتِصاباً داخِلَ سُورِ آلمَلْعَبِ آلبَلَدِيِّ، في وَضَحِ النَّهارِ، أمامَ حَشْدٍ مِنَ آلأطْفالِ الرّاجعينَ مِنَ آلمَدْرَسَة؟ ماذا عَنْ غوليسار الذّائِعَةِ الصّيتِ، قَهْرَمانَةِ آلعاهِراتِ آلمُرَخَّصاتِ، آلَّتي رَفَضَ آلأئِمَّةُ الصَّلاةَ على جُثْمانِها، وَرَفَضَتْها قُبورُ آلمسيحيّينَ وَآلمُسْلمينَ، فَدُفِنَتْ في أرْضٍ خاصَّةٍ، وَحيدةً بَعْدَ مَجْدٍ أمْبراطوريٍّ؟ ماذا عَنِ آلمَلّا أحْمد، إمامِ آلمَسْجِدِ الصَّغيرِ الثّاني في آلمَدينَةِ؟ ماذا عَنْ سُرْعَتِهِ آلمُفْرِطَةِ في آخْتِصارِ خُطْبَةِ آلجُمُعَةِ وصلاتِها معاً؟ ماذا عَنِ آلمُؤَذِّنِ

عبد الرَّحمن ٱلَّذي رُئِيَ مِراراً يُخْرِجُ مِنْ باطِنِ سُتْرَتِهِ مَجَلّاتٍ مُمْتَلِئَةً بِصُوَرٍ عارِيَةٍ؟ ماذا عن ثَوْرِ الصّوفيِّ محمود، ٱلَّذي ٱعْتَلى نِصْفَ بَقَراتِ ٱلأَرْضِ مُقابِلَ أجْرٍ عَنْ كُلٍّ واحِدَةٍ؟ ماذا عَنْ دريج ٱلَّذي قامَرَ بِزَوْجَتِهِ ذاتَ لَيْلَةٍ، حينَ نَفِدَتْ نُقودُهُ فٱنْتَهَبَ إخْوَتُها لَحْمَهُ بٱلخناجِرِ، فَعاشَ، بَعْدَ ذلكَ بِساقٍ ويَدٍ مَشْلولَتَيْنِ وأُذُنٍ واحدَةٍ؟ ماذا عَنِ ٱلحَيِّ ٱليهوديِّ وَخَوْفِنا ٱلغامِضِ مِنْهُ؟ ماذا عَنْ هَضْبَةِ قولو ٱلَّتي تَتَنَفَّسُ لَيْلاً، وماذا عَنْ سَعالي النَّهارِ في سَهْلَ معيريكا؟ ماذا عَنِ ٱلكِلابِ ذاتِ الرُّؤوسِ ٱلآدميَّةِ في مَقْبَرَةِ إنياس؟ ماذا عَنِ ٱلغَجَرِ ٱلمُقيمينَ في أرْضِ ٱلمقالِعِ ٱلجُنوبيَّةِ، عَنْ نِسائِهِم ٱللَّواتي حَيْثُما مَرَرْتَ بِصَخْرَةٍ رَأَيْتَ إحْداهُنَّ خَلْفَها، نِصْفَ عارِيَةٍ، تَحْتَ رَجُلٍ غَريبٍ؟ ماذا عَنْ أوسي ٱلكَهْلِ ٱلَّذي يَدورُ على ٱلأحْياءِ حامِلاً على ظَهْرِهِ صُنْدوقاً خَشَبيّاً يَبيعُ فيهِ ٱلبوظة؟ ماذا عَنِ الغُبارِ ٱلأبَدِيِّ، وماذا عَنْ بُروقِ الشِّمالِ أيُّها الطِّفْلُ؟

لَقَدْ أيْقَظْتَنا لِنَسْرُدَ ٱلمَهْزَلَة.

(يليه الذي لا يلي أي شيء)

بيروت، ١٩٧٩

هاتِهِ عاليًا،
هاتِ النّفيرَ على آخره ...

(سيرة الصِّبا)

إيذان

لِديكِ بَيْتِ رمّو، وَلِبَغْلِ زيري نُدَبِّجُ كَلِمَةَ آلإِنْشاءِ، وَلِلآدميِّ خِطابَ آللُّهاث. كُلٌّ وَسِحْرُهُ، فلا تُصْغوا إلى أحَدٍ أيُّها الصِّبْيَةُ.

سَيَقولونَ لَكُمْ كَمْ أحَبّوا، وَكَمْ كَدَحوا، وَكَمْ سَدّوا مَهَبَّ أقْدارِهِم بآلجَساراتِ. سَيَمْتَحِنونَكُم بِما لَمْ يَمْتَحِنوا أنْفُسَهُم بِهِ، وَسَيَرْفَعونَكُم قَليلاً قَليلاً كآلقِطَطِ إلى صُدورِهِم، مُتَمْتِمينَ: «تُصْبِحونَ على خَيْر، أيُّها الطَّيِّعون».

لا تُصْغوا إلى أحَدٍ. لا تَناموا. إرْفعوا آلغِطاءَ في نَزَقٍ، وآنْزِلوا عَنْ أسِرَّتِكُم هارِبينَ مِنَ آلبابِ. لا تَقْلَقوا حينَ تُصْبِحونَ خارِجاً، فالظَّلامُ لا يُخيفُ، بل يُخيفُ النَّهارُ. لا تَقْلَقوا، فأنا جاهِزٌ لِأَدُلَّكُم على آلمَخْبَإِ، حَيْثُ لا عَماراتِ، ولا مَدارِسَ، ولا وَقْتَ إلّا لَكُم، وَآلمَكانُ مُشاعٌ تَحوكونَ فيهِ آلأحابيلَ لِلأرْواحِ، وَتُقَهْقِهونَ حتّى تَتَشَظّى آلأرْضُ.

سآخُذُكم إلى آلعَراءِ؛ سآخُذُكم إلى آلفَحيحِ آلغامِضِ للسُّكونِ، حَيْثُ آلمَرْتَعُ آلأُبَّهِيُّ لِأقْدارِنا آلَّتي لا تَرْتَطِمُ بسورِ آلبَلَدِيَّةِ، أو بآلأشْجارِ آلمُنَمَّقَةِ في حَديقَةِ آلقائِمَّقام. سَيَخْتَبِىءُ بَعْضُنا من بَعْضٍ تَناوباً، وَسَنُضْرِمُ آلحَرائِقَ الصَّغيرَةَ حَوْلَ آلقنافِذِ. سَنُقَلِّدُ بناتِ آوى، زاحِفينَ على آلحُقولِ نَقْضَمُ آلخُضارَ مِثْلَها، وَسَنَنامُ، إذا تَعِبْنا، في آلأوْكارِ والشُّقوق.

سآخُذُكم إلى آلمُسْتَنْقعاتِ. سَنَتَعَرّى وَنَدْخُلُ آلمِياهَ لِنَجْمَعَ آلعَناكِبَ الطّافِيَةَ وَبُيوضَ آلأفاعي. وَسَيَقْذِفُ بَعْضُنا بَعْضاً بِجُذورِ آلأُشْنَةِ وَيَرَقاتِ الضَّفادِعِ. وإذْ نَجوعُ سَنَأْكُلُ آلحَرْشوفَ، وَآلحُمَّيْضَ، وَبُصَيْلاتِ البيڤونك. وسآخُذُكم إلى آلجِهَةِ آلَّتي لا يَراها إلّانا؛ جِهَةِ السّاحِرِيِّ؛ جِهَةِ التَّنَكُّراتِ آلكبَيرَةِ، حَيْثُ تَرْتَدي آلفُصولُ قِناعَ آلآدَمِيِّ، وَتَخْرُجُ آلغُيومُ وَآلأرانِبُ مِنْ أوْكارٍ واحِدَةٍ.

صَدِّقوني أيُّها الصِّبْيَةُ، أنْ نَصْحَبَ الظَّلامَ يَعْني أنْ نَرى عَبْرَ الشُّقوقِ الصَّغيرَةِ في تَوابيتِ أعْماقِنا مَمالِكَ لَمْ تَنْدَثِرْ بَعْدُ، على تُخومِ آلعَراءِ، هُناكَ، رافِلَةً في نِعْمَةِ أن تُنْسى، وعلى أسْوارِها آلبَنَفْسَجِيَّةِ مَرَحٌ يَعْبَثُ بالسَّناجِبِ.

لَسْتُ أُغْويكُم، لا. أُنْظُروا إلى مُرَوِّضيكُم، يَتَناوَبون على جَعْلِ مَسافاتِكُم أكْثَرَ هَنْدَسَةً، مُرْتَدينَ أمَامَكُم قُبَّعَةَ ٱلحَكيمِ، وإذ تَنْصَرِفونَ يَنْكَبُّ كُلٌّ على أحابيلِهِ؛ العَتّالونَ، وَٱلمُزارِعونَ، والشّاحِناتُ، وٱلحُكومَةُ، وَمُدُنُ ٱلمَلاهي، وَٱلمُقامِرونَ، والزَّوْجاتُ، وَالدِّيَكَةُ، وَٱلقِطَطُ الشّارِدَةُ، وَٱلغيومُ، وٱللَّهُ. كُلٌّ يَنْكَبُّ على أحابيلِهِ، فلا تَناموا. لِتَبْقَ عُيونُكُم على أهْلِكُم، فإنْ ناموا ٱتْبَعوني.

سَنُخَطِّطُ لإصْلاحاتٍ كَبيرةٍ بَيْنَ ٱلأعْشابِ. سَنُخَطِّطُ لأنْ تَتَجَنَّبَ ٱلعَرَباتُ ٱلمُرورَ مِنْ هذا الدَّرْبِ أو مِنْ ذاكَ. سَنُخَطِّطُ لأنْقِلاباتٍ تُحيلُ ٱلبَغْلَ ٱلهادِئَ إلى نَمِرٍ: ضَعوا في مُؤَخَّرَتِهِ بَعْضَ النَّشادِرِ وَسَتَرَوْنَ. سَنُخَطِّطُ لإطْفاءِ حَرائِقَ نُشْعِلُها نَحْنُ، وَسَنَدْلُقُ ٱلمَحابِرَ على ثِيابِنا ٱلَّتي نَكْرَهُها لِيَشْتَرِيَ آباؤنا غَيْرَها. سَنَضْرِبُ بأحْذِيَتِنا ٱلحِجارَةَ بَدَلَ ٱلكُراتِ لِتَتَفَتَّقَ، وَسَنَخْتَطِفُ طاساتِ الشَّحّاذينَ أمامَ أبوابِ ٱلمَساجِدِ لِنَجْمَعَ مَصْروفَنا.

لَسْتُ أُغْويكُم. المَكانُ يُغْوي لِتَكونوا لائِقينَ بِهِ، فَأَشْعِلوا حُروبَكُم قَبْلَ أنْ يُشْعِلَ ٱلآخَرونَ حُروبَهُم، وٱتْبعوني.

النَّفير الأوَّل

الهِياجُ على أشُدِّهِ، والدَّعائِمُ ٱلخَشَبِيَّةُ للسِّياجِ ٱلكَبيرِ تَتَهاوى، واحِدَةً بَعْدَ أُخْرى، حَيْثُ يَنْفُذُ ٱلمُتَسَلِّلونَ ٱلغاضِبونَ مِنْ بَيْنِها إلى مَدينةِ ٱلمَلاهي، حاملينَ ٱلعِصِيَّ وَٱلحِجارَةَ، وَمَنْ لا يَجِدُ ٱلعِصِيَّ أوِ ٱلحِجارَةَ يَسْتَلُّ نِطاقَهُ ٱلجِلْدِيَّ.

قَبْلَ يَوْمٍ واحِدٍ مِنْ هذا ٱلهِياجِ، كانَ التّاريخُ يَحْمِلُ مُؤَشِّرَهُ ٱلخاصَّ بِرياحٍ لا تَهُبُّ إلّا مِنْ جِهَةٍ واحِدَةٍ، تَماماً كٱلمُؤَشِّرِ ٱلمَنْصوبِ على سَطْحِ مَبْنى ٱلبَلَدِيَّةِ. ولا نَعْرِفُ، حتّى ٱلآنَ، لِماذا نَصَبوا مُؤَشِّراً لِلرِّياحِ على سَطْحِ ذلِكَ ٱلمَبْنى، ٱلَّذي يُصادِرُ مُوَظَّفوهُ مَوازينَ ٱلبَطّيخِ ٱلنُّحاسيَّةَ، والدَّرّاجاتِ.

كانَ التّاريخُ، قَبْلَ يَوْمٍ واحِدٍ مِنْ هذا ٱلهِياجِ، يَرْتدي حِذاءَهُ ٱلخاصَّ، وَشاراتِهِ الصّارِمَةَ كشاراتِ ٱلعَسْكَرِيِّ، وَمِلْءَ أوراقِهِ كِتاباتٌ رَسْمِيَّةٌ حازِمَةٌ وَخُطَبٌ كَثيرةٌ عَنِ النُّهوضِ بٱلعالَمِ ٱلعَرَبيِّ إلى السُّدَّةِ ٱلَّتي ٱنْزَلَقَ عَنْها، كما كُنّا نَنْزَلِقُ على طُرُقِنا

آلـمُوحِلَةِ قَبْلَ أنْ نَدْلِفَ إلى بُيوتِنا آلـمَرْفوعَةِ كَنُصُبٍ مِنْ طينٍ لإلهٍ طينيّ.

لكنَّ التّاريخَ تَعَرّى ذلِكَ آليَوْمَ، بَلْ فَقَدَ آتِّزانَهُ، وَهَبَّ راكِضاً كآلجَمْعِ الرّاكِضِ، مُخْتَرِقاً سِياجَ مَدينَةِ آلـمَلاهي، إلى حَيْثُ أوْصَدَ حَشْدٌ مِنَ آلعُمّالِ آلـمِصْريّينَ عَلَيْهِم أبْوابَ مَقْطوراتِهِمُ آلـخَشَبِيَّةَ، وكانوا مَذْعورينَ، يَصْرُخونَ بِلَهْجَتِهِم آلـحُلْوَةِ، وَيَتَكَوَّمونَ كَأَسْرى.

لَكَمْ أحْبَبْنا مَدينَةَ آلـمَلاهي تِلْكَ. لَكَمْ سَرَقْنا النُّقودَ لِنَدْخُلَها مِنْ حَيْثُ لا خَوْفَ على الدّاخِلين، أوْ تَسَلَّلْنا عبْرَ السِّياجِ آلكبيرِ مِنْ حُفَرٍ لا تَتَّسِعُ لِجُرَذٍ. وَكُنّا نَحيفينَ؛ كُنّا صِبْيَةً نَحيفينَ، آنذاكَ، إلى دَرَجَةٍ نَسْتَطيعُ مَعَها عُبورَ ثَقْبٍ في قُفْلٍ، مَبْهورينَ آنْبِهارَ عَصْرٍ بِعَصْرٍ: سُفُنٌ لا تَلْمُسُ آلـماءَ، ولا تَلْمُسُ آلأرْضَ، بَلْ تَدورُ حَوْلَ قاعِدَةٍ عالِيَةٍ، في حَرَكَةٍ تَقْطَعُ النَّفَسَ هُبوطاً وَصُعوداً. مُشَعْوِذونَ يَجْعَلونَكَ تَتَبَوَّلُ في قُمْعٍ مِنْ دونِ أنْ تَتَبَوَّلَ، وَيُخْرِجونَ كُراتٍ مِنْ أُذُنَيْكَ مِنْ دونِ أنْ تُحِسَّ بِها، وَيُحْرِقونَ النُّقودَ وَيُفَتِّشونَكَ فإذا بِكَ لِصٌّ تَجْهَلُ كَيْفَ سَرَقْتَ، وَمَتى سَرَقْتَ. مُهَرِّجونَ يُطْلِقونَ النُّكاتِ بِتَلميحاتٍ جِنْسِيَّةٍ

تَبْعَثُ في ٱلجالِسينَ مَوْجَةً مِنَ ٱلعَويلِ والصَّفيرِ، وَكُنّا لا نَعْرِفُ لِماذا يَضْحَكُ ٱلجالِسونَ، وأكْثَرُهُم لا يُتْقِنُ ٱلعَرَبيَّةَ، فَكَيْفَ يَفْهَمونَ لَهْجَةً كأنَّها مِنْ أقاصي ٱلأرْضِ؛ مِنْ أقاصي كُتُبِنا ٱلجُغْرافيَّةِ ٱلَّتي طالَما تَحَدَّثَتْ عَنْ خُصوبَةِ تُرابِنا، وأطْوالِ أنْهارِنا، وَبِتْرولِنا، وأسْماكِ بِحارِنا، وَلَمْ تَقُلْ لنا لِماذا لا نَمْلِكُ شَيْئاً مِنْ ذلِكَ. (كُنّا نُقارِنُ ٱلبَحْرَ في ذاكِرَتِنا بِبُحَيْرَةِ قاسمو ٱلَّتي لا تُجاوِز ٥٠٠ مِتْرٍ مُرَبَّعٍ). وكانَ ثَمَّتَ أماكِنُ مُغْلَقَةٌ لا يَسْمَحون لَنا بِدُخولِها: «أنْتُم صِغارٌ... تَنَحَّوْا يا صِغارُ»، لكِنَّنا كُنّا نَحْشُرُ أنوفَنا بَيْنَ فُرْجاتِ ٱلألْواحِ ٱلخَشَبِيَّةِ، لِنَلْمَحَ عَبْرَ الدُّخانِ، وَعَبْرَ ذُهولِ ٱلجالِسينَ على كَراسي ٱلقَشِّ ٱلوَطيئَةِ، نِساءً يَتَلَوَّيْنَ في حَرَكاتٍ فَظَّةٍ، رافِعاتٍ أثوابَهُنَّ، بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ، عَنْ ملابِسَ داخِلِيَّةٍ حَمْراءَ، فَنَصْرُخُ: «يا لَلأَرْتِسْتاتِ»، (كَلِمَةُ أرْتِسْت مُعادِلَةٌ لِكَلِمَةِ عاهِرةٍ عِنْدَنا). وَبِرُغْمِ ذلكَ أحْبَبْنا مَدينةَ ٱلمَلاهي، ٱلَّتي حَلَّتْ بَصَخَبِها في تِلْكَ ٱلأرْضِ النّائِيَةِ، ذاتَ صَيْفٍ أخيرٍ، لَمْ يَعْقُبْهُ إلّا هِياجٌ أخيرٌ، وقد جاءَ بِها مِصْرِيّونَ كانوا يَمْسَحونَ عَرَقَ جِباهِهِم بِمَناديلَ مِنْ وَرَقٍ لِكَثْرَةِ تَقاطُرِ ٱلفُضولِيّينَ بِنُقودِهِم ٱلفِضِّيَّةِ، لكنْ ما لَبِثوا أنْ مَسَحوا عَرَقَ جِباهِهِم، ثانِيَةً، بأكْمامِهِم،

حينَ آخْتَرَقَ آلغاضِبونَ بتاريخِهِم آلعاري مِنْ شاراتِهِ، وَرصانَتِهِ، السِّياجاتِ آلعاليَةَ، وَحَطَّموا كُلَّ شَيْءٍ.

في ذلكَ النَّهارِ تُلِيَ آلبَيانُ آلأوَّلُ، وكانَ بَياناً مُنَمَّقاً عَنْ أخْطاءٍ، وَتَجاوُزاتٍ، وَوَحْدَةٍ مِنْ فَوْقُ، وآسْتِخْباراتٍ، وَقَمْعٍ، وَشَعْبٍ لا يَدَ لَهُ في آلأمْرِ، وإصْلاحاتٍ مَقْلوبَةٍ... إلخ. وَبَعْدَ ساعاتٍ، حينَ حَلَّ مكانَ الذُّهولِ على آلوُجوهِ شَيءٌ آخَرُ، تَدافَعَ آلغاضِبونَ صَوْبَ مَدينةِ آلمَلاهي. أخْرَجوا الرّاقِصاتِ مِنْ مَقْصوراتِهِنَّ وَقَدِ آلْتَصَقوا بِهِنَّ مِنْ خَلْفٍ، في هِياجٍ لا يَنِمُّ عَنْ غَضَبٍ، بَلْ عَنْ شَبَقٍ عامٍّ. بَيْدَ أنَّ آلمُشَعْوِذينَ، وَآلمُهَرِّجينَ، وَآلعُمّالَ، كانوا أقَلَّ حَظّاً، فَتَناثَرَتْ ثِيابُهُم، وَقُبّعاتُهُم آلوَرَقِيَّةُ، وَأحْذِيَتُهُم، وَكُراتُهُم الصَّغيرةُ آلبَيْضاءُ، وَمناديلُ السِّحْرِ، وَآلأرانِبُ، وَبَعْضُ آلحَماماتِ، على مَدى آلمَكانِ التُّرابيِّ. حَصَلَ كُلُّ ذَلِكَ قَبْلَ أنْ تَصِلَ الشُّرْطَةُ فَتَجْعَلَ آلكُلَّ سَواسِيَةً في آلفَوْضى. ضَرْبٌ هُنا، وَضَرْبٌ هُناكَ، وَسَطَ قَهْقَهاتِ آلغُبارِ.

في آلأيّامِ آلَّتي تَلَتْ ذلِكَ آلهِياجَ بَدَأَتِ آلأرْضُ تَسْتَجْمِعُ مَعالِمَ أُخرى: خَرَجَتِ آلأحْزابُ إلى الطُّرُقاتِ، مُسَلَّحَةً بآلعِصِيِّ، وبقَبَضاتٍ مِنَ النُّحاسِ ذاتِ عُقَدٍ مُسَنَّنَةٍ، وبالسَّكاكينِ،

وَسلاسِلِ ٱلحَديدِ ٱلَّتي يُمْكِنُ إخْفاؤها تَحْتَ ٱلقُمْصانِ، وَكَذلِكَ بِشِعاراتِهِم. لَقَدْ رأَيْنا، لأوَّلِ مَرَّةٍ في ذلِكَ ٱلعُمْرِ ٱلغَضِّ، أنَّ ٱلحُكومَةَ لا تُؤْثِرُ حِزْباً على حِزْبٍ، ولا شِعاراً على شِعارٍ نَقيضٍ. وَرَأَيْنا، لأوَّلِ مَرَّةٍ، مَجَلَّةً تَحْمِلُ صُوَراً كاريكاتوريَّةً لأفْرادِ ٱلحُكومَةِ، فَصَرخْنا: «يا لَلْهَوْلِ. سَيُعْدِمونَ رَبَّ ٱلمَجَلَّةِ وَرَبَّ رَبِّها» لكِنَّ أحَداً لَمْ يَمَسَّ أحداً بِأذىً، بِٱسْتِثْناءِ ٱلأحْزابِ ٱلَّتي مَزَّقَ مُناصِرو بَعْضِها قُمْصانَ مُناصِري ٱلبَعْضِ ٱلآخَرِ، وَهَشَّموا الدَّرّاجاتِ ٱلهوائِيَّةَ، وَرُؤوسَ ٱلَّذينَ سَقَطوا تَحْتَ ٱلأرْجُلِ. أمّا رِجالُ الشُّرْطَةِ فَتَحَوَّلوا إلى مُصْلِحينَ. كانوا يَجْمَعونَ ٱلمُتَحارِبينَ في سيّاراتِهِم لِيَقودوهُم إلى ٱلمَخْفَرِ ٱلوَحيدِ، وَهُناكَ يَسْتَبْقونَهُم عِدَّةَ أيّامٍ فَقَطْ، ثُمَّ يُطْلِقونَ سَراحَ ٱلجَميعِ. «يا لِلْحُكومَةِ» كُنّا نَهْتِفُ. «ويا لِلْحِزْبِ» كانَ يَهْتِفُ ٱلمُحازِبون.

كُنّا صِبْيَةً آنَئِذٍ، يَخْرُجُ بِنا ٱلمُعَلِّمونَ على هَواهُم في التَّظاهُراتِ ٱلوَطَنِيَّةِ، وَلَمْ يَبْقَ واحِدٌ مِنْهُم لَمْ نَهْتِفْ بِشِعارِ حِزْبِهِ. وكانوا يَخْتَلِفونَ فيما بَيْنَهُم، فَيَقودُ بَعْضُهُم فَريقاً مِنَ التَّلامِذَةِ عَبْرَ شارِعٍ أوَّلَ، وفَريقاً عَبْرَ شارِعٍ ثانٍ، وثالثٍ، ورابعٍ... بَيْدَ

أنَّنا جَمَعْنا شِعاراتِ ٱلفُرَقاءِ جَميعاً كَما نَجْمَعُ الطَّوابِعَ، مُتَسَلِّلينَ مِنْ شارِعٍ إلى شارِعٍ، هاتِفينَ في كُلٍّ مِنْها كَما يَهْتِفونَ. وكانَ ٱسْتِغْرابُنا على أَشُدِّهِ، فَلَيْسَ لِمُعَلِّمٍ عَلَيْنا سُلْطَةٌ أنْ نَمْضيَ مَعَهُ وَمَعَ هُتافاتِهِ، وَلَيْسَ لِمُعَلِّمٍ أنْ يُوَبِّخَنا إذا رآنا في تَظاهُرَةِ مُعَلِّمٍ آخَرَ. إيه، كانَ زَمَنَ تَظاهُراتٍ، مُبَرِّرُها ٱلأوْحَدُ أنَّ ٱلكُلَّ قادِرونَ على تَحْويلِ ٱلوَقْتِ إلى عُرْسٍ خاصٍّ. وَٱلكُلُّ قادِرونَ على نَسْجِ صَخَبٍ نَسُوا كَيْفَ يُعادُ نَسْجُهُ. وٱلكُلُّ قادِرونَ على تَهْديدٍ مُتوازِنٍ لا يَغْلِبُ فيهِ أحَدٌ أحَداً. وَلِماذا لا يَجْعَلونَ الصَّخَبَ، في كُلِّ آنٍ، مَنْبَعاً للصُّراخِ؟ وَلِماذا لا يَمْتَحِنونَ حَناجِرَهُم، وكانَتْ مِلْكاً رَسْمِيّاً لِلْحُكومَةِ: تَقولُ ٱهْتِفوا فَيَهْتِفونَ. وَتَقولُ ٱصْمُتوا فَيَصْمُتونَ. وَتَقولُ لا حَناجِرَ لَكُمْ، فَيَكْتُبونَ على ٱللَّوْحِ ٱلأسْوَدِ بِطباشيرِ ٱلكِلْسِ: عاشَ مَنْ لا حَناجِرَ لَهُم. تَسْقُطُ مِلْكِيَّةُ ٱلحَناجِرِ. يَسْقُطُ ٱلفَرْدِيّونَ ٱلَّذين يَمْلِكونَ ٱلحَناجِرَ. تَسْقُطُ ٱلحَنْجَرَةُ، وَٱلمَريءُ، وَٱلقَصَبَةُ ٱلهَوائِيَّةُ، وَٱلقَلْبُ، وَٱلبَنْكِرْياسُ، وٱلكَبِدُ، وَٱلمَثانَةُ، وَٱلكِلْيَتانِ، وَشَحْمَةُ ٱلكُظْرانِ، وَمَجْرى ٱلبَوْلِ، وَٱلإحْليلُ، وَٱلخِصْيَتانِ. تَسْقُطُ، تَسْقُطُ، تَسْقُطُ. وَنَهْتِفُ: تَسْقُطُ، تَسْقُطُ، تَسْقُطُ.

يَسْقُطُ كِتابُ التَّشْريحِ ٱلَّذي يُعَلِّمُنا أنَّ لِلإنْسانِ حَنْجَرَةً.

لَقَدْ تَذَكَّرْنا، بَعْدَ أيّامِ الصَّخَبِ تِلْكَ، رَنينَ أصْواتِنا، وَأنَّنا قادِرونَ ـ كَمَخْلوقاتٍ مِنْ مَخْلوقاتِ الطَّبيعةِ ـ على ٱلعُواءِ، وَٱلعَويلِ، وَالتَّمْتَمَةِ، وَالضَّحِكِ. وَٱلأَهَمُّ مِنْ هذا كُلِّهِ تَذَكَّرْنا أنَّنا قادِرونَ على إدارَةِ الصَّخَبِ بِنِظامٍ لا فَوْضى بَعْدَهُ. فَنَحْنُ أُناسٌ صاخبونَ بالسَّليقةِ، مُتَعَوِّدونَ على ٱنْتِهارِ ٱلحَميرِ وَٱلبِغالِ ٱلَّتي تَقودُ عَرَباتِنا ٱلـمُحَمَّلَةِ بِٱلبَطّيخِ إلى سوقِ ٱلمَدينَةِ، وَكَذلكَ قِطْعانَ ٱلغَنَمِ، وَإخْوتَنا الصِّغارَ، بِسَبَبٍ وَبِغَيْرِ ما سَبَبٍ. نَشْتُمُ أُمَّهاتِنا، وَنُوصِدُ ٱلأبْوابَ وَراءَنا في عُنْفٍ، وَكَذلِكَ يَفْعَلُ آباؤنا الرّاجِعونَ في ظَهيراتِ صَيْفِ الشِّمالِ إلى ٱلبُيوتِ، حَيْثُ تُكَلِّلُ رُؤوسَهُم هالاتٌ نورانِيَّةٌ مِنَ التَّعَبِ ٱلـمُرِّ وَٱلعَرَقِ.

مُخْتَكِرو صَخَبٍ نَحْنُ ٱلآنَ، تَماماً مِثْلَ مُعَلِّمِ الرِّياضَةِ ٱلحِزْبيِّ قَبْلَ مَجيءِ ٱلفَوْضى؛ ٱلمُعَلِّمِ ٱلَّذي يُعَدُّ في ٱلمَرْتَبَةِ ٱلعاشِرَةِ تَصْنيفاً بَيْنَ ٱلمُعَلّمينَ، لكِنَّهُ كان ـ بِحُكْمِ حِزْبيَّتِهِ ـ إلهَ ٱلآلِهَةِ، يُعَنِّفُ مُديرَ ٱلمَدْرَسَةِ، وَيَضْرِبُ ٱلمُعَلِّمينَ إذا ٱقْتضى ٱلأمْرُ، مُخْتالاً بِسُلْطَةِ تَقاريرِهِ ٱلَّتي يَرْفَعُها عَنِ ٱلمَشْبوهينَ إلى مَكْتَبِ حِزْبِهِ ـ ٱلحِزْبِ ٱلأوْحَدِ في عَراءٍ لا عَراءَ بَعْدَهُ. وَيَشْتُمُ

أُمَّهاتِ ٱلتَّلاميذِ وآباءَهُم، وآباءَ آبائِهِم، وأرْضَهُم وسَماءَهُم. يَشْتُمُ كَيْفَما ٱتَّفَقَ، في مَدْرَسَةٍ كانَ هَمُّها أنْ تَقولَ لنا: «لا تَشْتُموا». وكانَ يُراقِبُنا في الصَّباحاتِ ٱلباكِرَةِ، حينَ نَقِفُ صُفوفاً صُفوفاً مُرَدِّدينَ أناشيدَ ٱلكَرامَةِ وَٱلفَخْرِ ٱلوَطَنيِّ، ناعِسينَ، شُعْثَ الشُّعورِ، وَحَوْلَ عُيونِنا مِنَ ٱلقَذَى ما يُنَفِّرُ حُكومَةً بكامِلِها، وَيُنَفِّرُ ٱلجَيْشَ وَالشُّرْطَةَ وَمُوَظَّفي الدَّوْلَةِ. وَعَلَيْنا مَظاهِرُ مِنَ اللّاتناسُقِ تَجْعَلُهُم، جَميعاً، يَحْزُمونَ سُلْطَتَهُم ذَهاباً إلى شَعْبٍ آخَرَ. كانَتْ صَدارينا ٱلمَدْرَسِيَّةُ مُمَزَّقَةً مِنَ ٱلأكْتافِ أبَداً، مُلَطَّخَةً بٱلحِبْرِ وَٱلوَحْلِ شِتاءً، وَبِعُصارَةِ ٱلعُشْبِ والتُّرابِ رَبيعاً، وأظافِرُنا مَقْضومَةً بٱلأسْنانِ، أمّا ٱلأحْذِيَةُ فَمِلْؤُها ٱلماءُ الدَّبِقُ، أوِ العُصارَةُ ٱلفَريدَةُ مِنَ ٱلعَرَقِ وَٱلغُبار، مُتَفَتِّقَةٌ مِنْ أمامٍ، ولا كُعوبَ لها.

هكذا نَحْنُ أيَّتُها الدَّوْلَةُ؛ هَكذا نَحْنُ يا مُعَلِّمَ الرِّياضَةِ ٱلحِزْبيَّ. لكنَّ ٱلمُعَلِّمَ لَمْ يَغْفِرْ لنا هذا: «ألا يَمْلِكُ آباؤكُم ثَمَنَ أحْذِيَةٍ يا أولادَ ٱلعاهِراتِ؟ ألا تَمْلِكُ أُمَّهاتُكُمُ ٱلخيطانَ؟»، يقولُ ذلكَ في ٱسْتِعْراضِهِ الصَّباحيِّ بِرِفْقَةِ ٱلمُديرِ، ٱلَّذي يَنْكَمِشُ في ثيابِهِ خَجِلاً مِنْ سُلْطَتِهِ ٱلمَفْقودَةِ، إلى دَرَجَةٍ لا

نَلْمَحُ مَعَها مُديراً، بَلْ ثياباً على مِشْجَبٍ مُنْحَنٍ، تَتَنَفَّسُ وَحْدَها، وَتَتَحَرَّكُ بِفِعْلِ هَواءٍ خَفيٍّ.

يَصْرُخُ ٱلمُعَلِّمُ ٱلحِزْبيُّ فَجْأةً: «ٱنْبَطِحوا» فَنَنْبَطِحُ على بُطونِنا. يقولُ: «ٱزْحَفوا حتّى الدَّرَجِ ٱلَّذي يَقودُ إلى غُرَفِ التَّدْريسِ»، فَنَزْحَفُ حتّى الدَّرَجِ، ثُمَّ نَصْعَدُهُ زَحْفاً، ثُمَّ نَسْتَمِرُّ حتّى غُرَفِ التَّدْريسِ، وَمِنْها نَدْخُلُ ٱللَّوْحَ ٱلأسْوَدَ الطَّويلَ على ٱلحائِطِ. نَدْخُلُ السَّوادَ على بُطونِنا مِنْ أوَّلِ ٱلأرْضِ إلى آخِرِها (هذهِ ٱلأرْضُ ٱلمُسَطَّحَةُ، ٱلَّتي يَرى أصْغَرُ مُراقِبٍ حُكوميٍّ، مِنْ شِمالِها، أبْعَدَ دَجاجَةٍ في جُنوبِها)، وَنَخْرُجُ، بَعْدَئِذٍ مُعَفَّرينَ بِهَبابِ الطَّباشيرِ كَعَتّالي الطّاحونَةِ، لِنَجْلِسَ على مَقاعِدِنا ٱلخَشَبِيَّةِ مُتَصالبي ٱلأيْدي على الصُّدورِ. وَحينَ يَدْخُلُ مُعَلِّمُ ٱلحِصَّةِ ٱلأوْلى نَهُبُّ واقِفينَ: «صباحُ ٱلخَيْرِ يا أُستاذ»، فَيَتَمَلّانا في ضَجَرٍ، وَيُشيرُ بِيَدِهِ أنِ ٱجْلِسوا، ثُمَّ تَبْدَأُ ٱلمَهْزَلَةُ.

كانَ هذا قَبْلَ مَجيءِ الصَّخَبِ ٱلَّذي مَلأَ ساحَةَ مَدينةِ ٱلمَلاهي بِسراويلِ الرّاقصاتِ ٱلمُمَزَّقَةِ، قَبْلَ أنْ تَسْتَحيلَ مدينةُ ٱلمَلاهي ثَدْياً يَقْضَمُهُ ٱلجائِعونَ. وَٱلآنَ، لَنْ يَعودَ ٱلمُعَلِّمُ ٱلحِزْبيُّ إلى ٱلمَدْرَسَةِ قَطُّ. لَقَدْ حاصَرَتِ النِّساءُ الرّيفيّاتُ بَيْتَهُ،

وَأخرَجْنهُ بثيابِ النَّوْمِ، (كانَ واضِحاً أنَّه لَمْ يَنَمْ)، مُرْتَجِفاً، ٱبْنَ ٱلجَرْوِ، صارِخاتٍ: «قُلْها مَرَّةً ثانِيَةً، قُلْها... أَنَحْنُ عاهِراتٌ؟ أَأبْناؤنا أَوْلادُ قَحْبَةٍ؟ قُلْها مَرَّةً ثانِيَةً، قُلْها. أيْنَ أُمُّكَ يا قَحْبُ؟ سَنَرْفَعُ فَخْذَيْ أُمِّكَ لِرجالنا حتّى تَمْتَلِىءَ كٱلبَرْميلِ. أَأُمُّكَ واسِعَةٌ يا قَحْبُ؟ سَنُدْخِلُ فيها أحْذِيَتَنا؛ سَنُدْخِلُ فيها أعْمِدَةَ ٱلمَدْرَسَةِ»، وَيُهْوِينَ عَلَيْهِ بأحْذِيَتِهِنَّ ٱلبلاسْتيكيَّةِ وَقَباقيبِهِنَّ، وَٱلمُعَلِّمُ يَرْتَجِفُ حتّى أعْماقِ أُمِّهِ. بَيْدَ أنَّهُ ٱنْتَفَضَ ٱنْتِفاضَةً أذْهَلَتْنا. صَرَخَ وَتَصالَبَ. ٱخْتَفى صَوْتُهُ لِيَحِلَّ مَحَلَّهُ عُواءٌ خافِتٌ. جَحَظَتْ عيناهُ وٱزْرَقَّ لَوْنُهُ. كانَتْ إحداهُنَّ قَدْ أمْسَكَتْ خِصْيَتَيْهِ، وَظَلَّتْ تَعْتَصِرُهُما حتّى خَرَجَتْ رَغْوَةٌ بَيْضاءُ مِنْ فَمِهِ، وَٱنْسابَتْ على صَدْرِهِ في خَيْطٍ لَزِجٍ. لَقَدْ مَضى ٱبْنُ أُمِّهِ في غَيْبوبَةٍ لَحْمِيَّةٍ لَمْ يُفِقْ مِنْها. مَضى ٱلمُدَلَّلُ كما مَضَتِ ٱلحُكومَةُ وعاهِراتُ مَدينَةِ ٱلمَلاهي، ٱللَّواتي كُنَّ يُقَدِّمْنَ وَصَلاتٍ راقِصَةً، بٱسْمِ ٱلفَنِّ، حتّى الثّانيةَ عَشْرَةَ لَيْلاً، وَيُقَدِّمْنَ وَصلاتٍ أُخْرى، بَعْدَ ساعاتِ ٱلعَمَلِ، بٱسْمِ ٱلٱنْشِراحِ ٱلوَطَنيِّ، حَيْثُ تَأْخُذُهُنَّ سَيّاراتٌ مَدَنِيَّةٌ يَقودُها رِجالٌ تَتَدَلّى مُسَدّساتُهُم مِنْ تَحْتِ ٱلقُمْصانِ.

عاشَ الصَّخَبُ ٱلآنَ، عاشَ رَبُّ الصَّخَبِ، وَمَحْظِيّاتُهُ، وأطْفالُهُ. عاشَ ٱلمُعَلِّمونَ ٱلَّذين باتوا يَدْخُلونَ ـ بَعْدَ أيّامِ الصَّخَبِ ـ إلى حُجُراتِ التَّدْريسِ بِمَرَحٍ، وَيُعابِثونَ الصِّبْيَةَ ولا يَضْربون. فَلْيَعُمَّ الصَّخَبُ ٱلعالَمَ إذا كانَ لَطيفاً كَهذا الصَّخَبِ. فَلْيَأْتِ كُلَّ يَوْمٍ لِيَأْخُذَ مُعَلِّماً فَظّاً أوْ مُخْبِراً. فَلْيَأْتِ كُلَّ يَوْمٍ لِتَقِلَّ حُظْوَةُ أبْناءِ ٱلحِزْبيّينَ في ٱلمَدْرَسَةِ. فَلْيُوَحِّدْنا الصَّخَبُ ٱلعَريقُ.

لَقَدْ قيلَ لنا: لَوْ لَمْ يَأْتِ هذا الصَّخَبُ لَجاءَ ميرو. وَبِتْنا نَشْكُرُ ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ رَأْفَةَ ٱلقَدَرِ تِلْكَ؛ رَأْفَةَ أنْ تُدَمِّرَ حُكومةٌ حُكومَةً أُخْرى لِيَتَأَجَّلَ مَجيءُ ميرو، فَهُوَ لَنْ يَذَرَ حَجَراً على حَجَرٍ، وَسَيَذْهَبُ بٱلعُقولِ. سَيُعيدُ ٱلأرْضَ كَما كانَتْ، مُوحِشَةً، صَلْبَةً، يَسْلَخُ ٱلآدَمِيُّ فيها ٱلآدَمِيَّ لِيَرْتَديَ جِلْدَهُ.

لا بُدَّ مِنَ ٱلخَرابِ، إذاً، بَيْنَ حينٍ وَحينٍ. لا بُدَّ مِنْ زَوابِعَ غُبارِيَّةٍ تَنْفُخُ كُورَها حتّى تَلينَ ٱلبُيوتُ فَتَميلَ كٱلغُصونِ، ولا بُدَّ مِنْ سُيولٍ تُعيدُ ٱلبُيوتَ عَجيناً أحْمَرَ، وَتَتْرُكُ وَراءَها جِسْرَيِ ٱلمَدينَةِ ٱلوَحيدَيْنِ هَياكِلَ عارِيَةً. لا بُدَّ مِنْ حُكوماتٍ مُتعاقِبَةٍ يَنْتَزِعُ ٱلعَسْكَرِيّونَ فيها شاراتِ ٱلعَسْكَرِيّينَ وأحْذِيَتَهُم، وَيُلْقي ٱلخَلَفُ بأوْراقِ السَّلَفِ مِنْ شبابيكِ السَّراي: «وَداعاً

لِلاّنْتِهازيّينَ»، هذا ما يَهْتِفُ به آلخَلَفُ. «وداعاً لِلاّنْتِهازيّين»، يَهْتِفُ خَلَفُ آلخَلَفِ. «وداعاً لِلاّنْتِهازيّين»، يَهْتِفُ خَلَفُ خَلَفِ آلخَلَفِ. وَآلكُلُّ يَرْتَدي آلشّاراتِ وَآلأَوْسِمَةَ آلَّتي غَنِمَها مِنْ سابِقِهِ، وَكَذلِكَ أَحْذِيَتَهُ وَقُبَّعاتِهِ، وَيَجْلِسُ وَراءَ آلمِنْضَدَةِ ذاتِها آلَّتي لا تَنْقَطِعُ خَشْخَشَةُ آلأَوْراقِ عَلَيْها، بِفِعْلِ آلمِرْوَحَةِ آلكَهْرَبائيَّةِ آلمُعَلَّقَةِ إلى السَّقْف.

فَلْيَحْيَ آلخَرابُ إذاً، فَلَوْلاهُ لَجاءَ ميرو. هذا ما يَقولونَهُ لنا وَيُضيفونَ: «إذا آمْتَدَّ السَّلامُ على آلأَرْضِ خَمْسينَ سَنَةً، مِنْ دونِ زَوابِعَ أَوْ سُيولٍ، أَوِ آنْقِلاباتٍ دَمَوِيَّةٍ، سَيَأْتي ميرو. ميرو لن يَحْتَمِلَ هُدوءاً صَلْباً يَمْتَدُّ خَمْسينَ سَنَةً، وَهُوَ آلَّذي لَمْ يَعِشْ يَوْماً واحِداً، في حياتِهِ آلأَرْضِيَّةِ، مِنْ غَيْرِ دَمٍ أو كارِثَةٍ». وَنَسْأَلُ: «أماتَ ميرو؟»، فَيَرُدّونَ: «لا. مضى بِقَطيعِهِ مِنَ آلأَكْباشِ الشَّيْطانيَّةِ، ذاتَ غُروبٍ، مُتَوَعِّداً بآقْتِحامِ آلأَرْضِ. مَضى إلى الظَّلامِ؛ إلى آلجِهَةِ آلَّتي تَظَلُّ ظَلاماً».

آهِ ميرو. مَنْ أَنْتَ بآللَّهِ عَلَيْكَ؟ ومَنْ أَنْتَ لِنَعُدَّ السِّنينَ؟ مَنْ أَنْتَ لِنُحْصِيَ عَلى آلأَرْضِ ساعاتِ هُدوئِها؟ ألا تَسْتَريحُ ميرو؟ نُريدُ أَنْ نَسْتَريحَ.

وَمَعَ هذا نُحْصي سَكَناتِ ٱلفُصولِ: صَيْفٌ هادِئٌ... آهٍ. خَريفٌ هادِئٌ... آهٍ. ربيعٌ هادِئٌ... آهٍ. سَنَةٌ مَرَّتْ. يا لَلْهَوْلِ. بَقِيَ تِسْعٌ وأرْبَعونَ سَنَةً فَقَطْ. هكذا يَعيشُ مَعَنا ميرو. لكنَّ فُصولَنا فُصولُ خَرابٍ. فُصولٌ تَرْتَدي دُروعَ ٱلحَرْبِ أبَداً، وَتَعْتَمِرُ خُوذَةَ ٱلمُفاجَأَةِ. وفي السَّنَواتِ ٱلأرْبَعِ ٱلَّتي سَبَقَتْ مَجيءَ الصَّخَبِ، (حَيْثُ ٱنْهارَ سِياجُ مَدينةِ ٱلمَلاهي، وَٱلْتَمَعَتْ أفْخاذُ الرّاقِصاتِ بِوَميضٍ غَريبٍ)، لَمْ يَمُرَّ فَصْلٌ مِنْ فُصولِها مِنْ غَيْرِ أنْ يَحْمِلَ خُبْزاً مُرّاً، وَغُيوماً حامِضَةً. فما يَكادُ يَأْتي ٱلخَريفُ حتّى يَنْفِرَ مِنْ شُقوقِ ٱلأرْضِ مَطَرٌ يَمْحو أثْلامَ ٱلحِراثَةِ، وَيَجْرُفُ حُبوبَ ٱلقَمْحِ ٱلمَبْذورَةَ إلى أرْضِ الشَّعيرِ، وَحُبوبَ الشَّعيرِ ٱلمَبْذورَةَ إلى السَّواقي ٱلَّتي لا تُخْطِئُ مَجاريَها حتّى في أشَدِّ ٱلأراضي ٱسْتِواءً. بَلْ تَطْفُرُ السَّواقي هُنا وَهُناكَ. كأنَّما كانَتْ مُخَبّأَةً تَحْتَ غِطاءٍ تُرابيٍّ رَقيقٍ جَذَبَهُ ٱلغَيْمُ فأفاقَتْ. وما يَكادُ يَأْتي الشِّتاءُ حتّى يأتي الصَّقيعُ، فَتَتَجَمَّدُ ٱلبِرَكُ وَالسَّواقي وٱلأنْهارُ، ومِياهُ ٱلمَواسيرِ، وَيَغْدو التُّرابُ مُتَراصّاً صَلْباً كالإسْمَنْتِ، ثُمَّ تَتَشَقَّقُ خَزّاناتُ ٱلمِياهِ ٱلحَديديَّةُ في السَّياراتِ. أمّا النَّباتُ ٱلأخْضَرُ الطَّرِيُّ فَيَسْتَحيلُ جافّاً كَعيدانِ

ٱلحَصيدِ، إمّا أمْسَكْتَهُ تَقَصَّفَ، وإمّا لَوَيْتَ شَجَرَةً صغيرةً تَكَسَّرَتْ. وَمَنْ يُريدُ ماءً للشُّرْبِ يَغْليهِ حتّى يَذوبَ جَليدُهُ. وفي الرَّبيعِ كأنَّما تَنْتَظِرُ السَّماءُ أنْ تَعْلوَ سيقانُ ٱلقَمْحِ والشَّعيرِ عَنِ ٱلأرْضِ قَليلاً، لِتَحْصُدَها قَبْلَ ٱلأوانِ، بِمقاليعَ خَفِيَّةٍ تَرْمي بَرَداً أبْيَضَ بِحَجْمِ بَيْضَةِ الدَّجاجَةِ. باللّهِ عَلَيْكُم، مَنْ مَرَّ بِسَهْلِ قَمْحٍ عاثَ فيهِ ٱلبَرَدُ؟: عُشْبٌ مَقْصوصٌ بٱلمِقَصّاتِ، وَوَرَقُ نَباتٍ يَهْذي، كأنَّما أطْلَقَ ٱلغَيْمُ مِنْ حانَتِهِ سُكارى شَقَّقوا ثِيابَهُم، وَشَقَّقوا ٱلجُذورَ.

وحينَ يَأتي الصَّيْفُ تَكونُ ٱلخاتِمَةُ قَدِ ٱكْتَمَلَتْ. تَضَعُ ٱلأرْضُ نُقْطَةً في آخِرِ ٱلجُمْلَةِ: «ٱنْتَهى». «عاشَ الرَّحْمٰنُ الرَّحيمُ» يَلْهَجُ النّاسُ، وإلى مَوْسِمٍ آخَرَ. ثُمَّ يَسْتدينونَ. ثُمَّ يُسَدِّدونَ الدَّيْنَ بِدَيْنٍ آخَرَ. ثُمَّ يَبيعونَ ٱلأرْضَ، وَمَنْ لا يَجِدُ أرْضاً يَبيعُها، يَبيعُ حُلِيَّ ٱمْرَأتِهِ، وَمَنْ لا يَجِدُ حُلِيّاً يَبيعُ دَجاجاتِهِ وخِرافَهُ، ومَنْ لا يَجِدُ دَجاجاتٍ يَبيعُها يَبيعُ ٱلمَؤونَةَ، وَمَنْ لا يَجِدُ ٱلمَؤونَةَ يَبيعُ أسِرَّةَ النَّوْمِ، وَمَنْ لا يَجِدُ ٱلأسِرَّةَ يَبيعُ ظَهْرَهُ كَعَتّالٍ، وَمَنْ لا يَقْدِرُ على ٱلعِتالَةِ يَتَّجِهُ صَوْبَ ٱلحُدودِ لِيُهَرِّبَ التَّبْغَ وَالزَّبيبَ حتّى تَقْتَنِصَهُ طَلْقَةُ دَوْرِيَّةٍ مِنْ دَوْرِيّاتِ ٱلحُدودِ.

الخرابُ عَميمٌ، وَٱلحَمْدُ للرَّحْمٰن، فلا تَأْتِ ميرو.

لكِنْ مَنْ أنْتَ ميرو؟ مَنْ أنْتَ لِنَحْمَدَ ٱلخَرابَ حتّى لا تَجيءَ؟ إنَّهُم لا يُخْبِرونَنا ماذا فَعَلَتْ بِكَ ٱلأرْضُ، وَما هِيَ أيّامُكَ ٱلَّتي تَواصَلَتْ بِلُحْمَةِ ٱلفَجيعَةِ. لا يُخْبِرونَ عَلامَ وَعيدُكَ، وأيْنَ أنْتَ. أهُمْ يَعْرِفونَ حقّاً ميرو؟ كُلُّ ٱلَّذي نَعْرِفُهُ أنَّكَ تَخْرُجُ في كُلِّ غُروبٍ من آذارَ إلى تُخومِ ٱلمَدينةِ، مُمْتَطِياً كَبْشَكَ الضَّخْمَ ضَخامَةَ الثَّوْرِ، ثُمَّ تَقِفُ فَوْقَ ٱلهَضْبَةِ ٱلمُشْرِفَةِ على سَهْلِ ٱلقَمْحِ ٱلجُنوبيِّ، صامِتاً كَشَبَحٍ، تَتَمايَلُ أسْمالُكَ مَعَ ٱلحَرَكَةِ ٱلخَفيفةِ لِلْهواءِ ٱلَّذي يَغْمُرُ بِلُهاثِهِ ٱلعُشْبَ فَيَموجُ إلى لا نِهايَة. وَرُوَيْداً رُوَيْداً تَكْتَمِلُ مِنْ حَوْلِكَ حَلْقَةٌ مُترامِيَةٌ مِنْ أكْباشٍ أُخْرى خَرَجَتْ مِنَ الظَّلامِ ٱلخَفيفِ، صامِتَةٌ مِثْلَ كَبْشِكَ، ثُمَّ تَتَّسِعُ ٱلحَلْقَةُ مَعَ ٱتِّساعِ الظَّلامِ، وَتَظَلُّ تَتَّسِعُ حتّى تَغْمُرَ ٱلأُفُقَ كُلَّهُ، وإذ يَمْتَلِىءُ ٱلأُفُقُ تَخْرُجُ مِنَ ٱلغَيْمِ، قَطيعاً قَطيعاً، قَوائِمُها تَلْمُسُ ٱلهَواءَ لا ٱلأرْضَ، عابِقَةً بِرائِحَةِ مَطَرٍ لَمْ يَهْطُلْ بَعْدُ.

مُنْذُ مَتى تَخْرُجُ في كُلِّ غُروبٍ مِنْ آذارَ ميرو؟ مُنْذُ متى تَجْمَعُ هذهِ ٱلأكْباشَ حَوْلَكَ، وَتَمْتَحِنُ بِكَ الظَّلامَ، كأنَّما لا

ظَلامَ لَسْتَ فيهِ، أَوَلَيْسَ لِأَكْباشِكَ فيهِ آحْتِدامٌ أَشْبَهُ بِحَنينِ آلحَيَوانِ إلى أُنْثاهُ؟

إبْقَ هُناكَ ميرو، إبْقَ هُناكَ، فَلَنا مَشاغِلُنا آلآنَ، بَعْدَ هذا الصَّخَبِ آلَّذي غَطّى مَدينَةَ آلمَلاهي بِبُخارٍ أليفٍ.

وَمَشاغِلُنا قَليلةٌ على أيَّةِ حالٍ. فآباؤنا يَنْتَظِرونَ مِنَ آلحُكومَةِ آلجَديدَةِ مُعْجِزَةً تُخَفِّفُ مِنْ وَطْأَةِ سَنَواتِ آلجَدْبِ آلأرْبَعِ، آلَّتي نَثَروا فيها بِذارَهُم بَيْنَ يَدَيِ آلأرْضِ آلأمينَةِ فَخَذَلَتْهُم، مُعْطِيَةً سَنابِلَ لا يَزيدُ طولُ أسْواقِها عَنْ طولِ آلإصْبَعِ، فلا هُمْ قادِرونَ عَلى حَصْدِها بآلأيْدي، ولا هُمْ قادِرونَ عَلى حَصْدِها بآلحَصّاداتِ آلآليَّةِ، ولِذلكَ تَرَكوها لأغْنامِ الرُّعْيانِ تَأْكُلُها حَتّى التُّخْمَةِ. إنَّهُم يَنْتَظِرونَ إذاً، في مَقاهِيهِم، يَرْمُقُ بَعْضُهُم بَعْضاً في غَضَبٍ، أو يُساوِمونَ على صَفَقاتٍ وَهْمِيَّةٍ فلا يَبيعونَ ولا يَشْتَرونَ.

وفي حينِ كانَتِ آلحُكومَةُ مَشْغُولَةً بِجَمْعِ أوْراقِها، وَتَرْتيبِ آلأضابيرِ آلخاصَّةِ بِحَياةٍ لَمْ تَأْتِ بَعْدُ، كانَتْ حَرْبٌ صَغيرةٌ تَسْتَعِرُ في آلحَيِّ آلغَرْبيِّ، آلحَيِّ آلأكْثَرِ كَثافَةً بأكْرادِهِ آلعَنيفينَ. وآخْتِصارُ آلمَسْأَلَةِ أنَّ مُديرِيَّةَ آلأوْقافِ أقامَتْ هُناكَ مَسْجِداً

جَميلاً في ذلِكَ ٱلوَقْتِ، مِنَ ٱلإسْمَنْتِ الصِّرْفِ ٱلمَزْهُوِّ بِصَلابَتِهِ وَسْطَ ٱلبُيوتِ الطّينيَّةِ، وأقامَتْ عَلَيْهِ مِئْذَنَةً مِنْ ثَلاثَةِ أعْمِدَةٍ حَديديَّةٍ تَنْتَهي في ٱلأعْلى بِغِطاءٍ كَٱلقُبَّعَةِ، وَجَعَلَتْ لَهُ ساحَةً مَرْصوفَةً، كانَ ٱلمُصَلّونَ يُؤَدّونَ صَلاتَهُم عَلَيْها في عَشِيّاتِ الصَّيْفِ، هَرَباً مِنَ الدّاخِلِ ٱلمُشْتَعِلِ كَٱلفُرْنِ. لكِنَّ ٱلمُديرِيَّةَ لَمْ تَحْسُمْ قَضِيَّةَ تَعْيينِ إمامٍ وَمُؤَذِّنٍ لِذلِكَ ٱلمَسْجِدِ. فَٱشْتَعَلَتْ حَرْبٌ بَيْنَ مَنْ رَأَوْا أنْفُسَهُم أَكْفاءَ لِيَتَبَوّأوا ٱلمَنْصِبَيْنِ، وكانَ أنِ ٱسْتَقَرَّ الصِّراعُ، آخِرَ ٱلأمْرِ، بَيْنَ ٱثْنَيْنِ فَقَطْ، هُما ٱلمَلّا أحْمَد وَٱلمَلّا رَشيد.

كان المَلّا أحْمَدُ إماماً، في الأصْلِ، لِمَسْجِدٍ طِينيٍّ في ذلِكَ ٱلحَيِّ، وحينَ شَيَّدَتِ ٱلأوْقافُ مَسْجِدَ ٱلإسْمَنْتِ، بايَعَهُ بَعْضُهُم إماماً، هكذا بِقرارٍ مِنْهُم، وكانوا خَليطاً مِنَ ٱلعَتّالينَ وَٱلكوليّينَ. أمّا ٱلمَلّا رشيدٌ، فما إنِ ٱشْتَمَّ رائِحَةَ ٱلأمْرِ - وكانَ فَقيهاً مَحْدودَ ٱلعِلْمِ، ناصَرَ الشُّيوعيّينَ فَتْرَةً طَويلَةً ثُمَّ نَكَصَ عَنْ ذلِكَ - حتّى بادَرَ إلى جَمْعِ أنْصارِهِ ٱلبُسَطاءِ ٱلقُدامى، وأعْلَنَ نَفْسَهُ إماماً بِحُكْمِ أقْدَمِيَّتِهِ في ٱلمَدينَةِ، فَهُوَ ٱبْنُها، بَيْنَما ٱلمَلّا أحْمدُ قَرَوِيٌّ طارِئٌ، لَمْ يَمْضِ على مَجيئِهِ بِضْعُ سِنينَ.

وَتَصاعَدَ ٱلمَوْقِفُ، وَلَمْ تَنْفَعْ وَساطَةُ ٱلوُسَطاءِ لِيَتَنَحّى أحَدُهُما، فَبَاتَ ٱلمَسْجِدُ مَسْجِدَيْنِ، إذْ يَقِفُ مُؤَذِّنُ كُلٍّ مِنَ ٱلإمامَيْنِ في جانِبٍ مِنَ ٱلباحَةِ، هذا يُؤَذِّنُ بِصَوْتٍ وذاكَ بِصَوْتٍ، وكِلاهُما يُشيرُ بِقَبْضَتِهِ إلى ٱلآخَرِ. وحينَ يَنْتَهِيانِ، يَدْلِفُ أحَدُ ٱلإمامَيْنِ وَراءَ الثّاني، ثُمَّ يَنْتَحي كُلٌّ مِنْهُما بِرُكْنٍ، وَوَراءَهُ مُناصِروهُ. وَقَدْ لا يَنْتَهي ٱلأمْرُ بِٱنْتِهاءِ الصَّلاةِ، فَيَعْمِدُ ٱلإمامانِ إلى جَمْعِ ٱلأنْصارِ في حَلْقَتَيْنِ، لِيَطْعَنَ ٱلمَلّا أحْمَدُ في «أهلِيَّةِ» ٱلمَلّا رشيدٍ، الشُّيوعِيِّ ٱلمُلْحِدِ، وَلِيَطْعَنَ ٱلمَلّا رَشيدٌ في «أهلِيَّةِ» ٱلمَلّا أحْمَدَ ٱلفَأْفاءِ، ٱلَّذي لا يَعْرِفُ مَخارِجَ ٱلحُروفِ وأُصولَ التَّجْويدِ.

بعامَّةٍ لَمْ يُجاوِزِ ٱلأمْرُ بَيْنَ ٱلإمامَيْنِ حَدَّ ٱلاتِّهاماتِ، والطَّعْنِ ٱلعاقِلِ. وَلَمْ يُجاوِزِ ٱلمُناصِرونَ حُدودَ النَّظَرِ شَزْراً، بَعْضُهُم إلى بَعْضٍ، أوِ الطَّعْنِ في جَوازِ الصَّلاةِ وَراءَ هَذا ٱلإمامِ أوْ ذاكَ، وأعْظَمُ ما ذَهَبوا إلَيْهِ هُوَ سَرِقَةُ ٱلأحْذِيَةِ، بَعْضُهُم مِنْ بَعْضٍ، أوِ ٱلقَرْعُ بِقُوَّةٍ على أبْوابِ ٱلمَراحيضِ، إذا كانَ أحَدُ أنْصارِ ٱلإمامَيْنِ في الدّاخِلِ، وغَريمُهُ في ٱلخارِجِ. لكنَّ ٱلأمْرَ كانَ مُخْتَلِفاً بَيْنَ ٱلمُؤَذِّنِ قاسمو نَصيرِ ٱلمَلّا أحْمَدَ، ٱلَّذي يَمْلِكُ

بُحَيْرَةً خارِجَ ٱلْمَدينَةِ، يَبيعُ التُّرابُ مِنْ حَوافِّها لِلْبناءِ، وَبَيْنَ عقدكي كشومشو نَصيرِ ٱلمَلّا رشيدٍ، قَبْلَ أنْ يَتَخَلّى عَنْهُ آخِرَ ٱلأمْرِ، بَعْدَما ٱقْتَنَعَ بِبُطْلانِ الصَّلاةِ وَراءَ شُيوعِيٍّ سابِقٍ.

كانا ـ أيْ قاسمو وعقدكي ـ صاحِبَيْنِ حقّاً، وَلِصَوْتَيْهِما قَرْعٌ كَقَرْعٍ على الصّاجِ. شَخْصانِ ضئيلا ٱلبُنْيَةِ. ضَئيلانِ إلى دَرَجَةٍ لا نَعْرِفُ كَيْفَ يُمْكِنُ لَهُما أنْ يُثيرا هذا الصَّخَبَ كُلَّهُ. وَكُنّا، كَصِبْيَةٍ آنَئِذٍ، نَحْسَبُ ألْفَ حِسابٍ لَهُما. فقاسمو باشِقٌ مُتَرَقِّبٌ أبَداً. مَوْجودٌ وراءَ ٱلمَسْجِدِ وأمامَهُ. يَمْنَعُنا مِنَ ٱللَّعِبِ بٱلبُلي حَوْلَ مَمْلَكَتِهِ بِمِقْدارِ فَرْسَخٍ، ذو صَوْتٍ حادٍّ نَفيرِيٍّ. «يا لَلْجَحيمِ قاسمو. صَوْتُكَ صَوْتُ ديكٍ». وَيَلْعَنُ قاسمو أجْدادَنا النّائِمينَ. «صَوْتُكَ صَوْتُ ٱسْتِ ٱلحِمار»، وَيَلْعَنُ قاسمو أُمَّهاتِنا. نَقْذِفُ ساحَةَ ٱلمَسْجِدِ بٱلحَصى مِنْ فَوْقِ السّورِ، فَيَرْكُضُ وَراءَنا بِدَشْداشَتِهِ ٱلبَيْضاءِ حتّى تَنْحَلَّ عَمامَتُهُ وَتَنْسَدِلَ على عَيْنَيْهِ ٱلبوميَّتَيْنِ. أمّا عقدكي كشومشو فٱبْنُ جَحيمٍ حقّاً. شَيْخٌ في السَّبْعينَ. نَحيلٌ كَقَصَبَةٍ. أعْمَصُ لا يَكادُ يَرى، وأدْرَدُ لا سِنَّ في فَمِهِ. يَعْتَمِرُ عِمامَةً صَفْراءَ، وَبيَدِهِ عَصاً مِنْ أغْصانِ ٱلكينا. يَشْتُمُ في كُلِّ خُطْوَةٍ. يَشْتُمُ قاسمو، وٱلإمامَ ٱلمَلّا

أحمدَ، وٱلمَدينَةَ، وأبْقارَ النّاسِ وأغْنامَهُم. يَشْتُمُ ٱلغُيومَ وٱلهوَاءَ. يَشْتُمُ حتّى التَّعَبَ، وَيَضْرِبُ بِعصاهُ ٱلحيطانَ مِنَ ٱلغَيْظِ، وَيَدَّعي، أبَداً، أنَّ لَهُ دَيْناً في ذِمَّةِ «الرّوميّينَ». وَ«الرّوميّونَ» ٱسْمٌ يُطْلِقُهُ على الشُّرْطَةِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يَعْرِفَ أحَدٌ، حتّى ٱلآنَ، سَبَبَ ٱلاشْتِقاقِ ٱلغَريبِ. وفي كُلِّ يَوْمٍ يَتَسَبَّبُ في مُشْكِلَةٍ مَعَ شُرْطَةِ ٱلبَلَدِيَّةِ، ٱلَّذينَ يَدورونَ على ٱلبَقّالينَ ٱلمَذْعورينَ، حامِلينَ مَحاضِرَ ضَبْطٍ جاهِزَةً، وعلى ألْسِنَتِهِم جُمَلٌ جاهِزَةٌ: «الغُبار... الغُبار». وماذا يَفْعَلُ ٱلبَقّالونَ في مَدينةٍ كُلُّها غُبارٌ. طُرُقاتٌ مِنَ التُّرابِ وَبُيوتٌ مِنَ التُّرابِ، فَمَاذا يَفْعَلونَ؟ وأبَداً تَخْرُجُ شُرْطَةُ ٱلبَلَدِيَّةِ بِغَنائِمَ مِنَ ٱلبَطّيخِ، وَٱللَّحْمِ، وَٱلبَنَدورةِ، وَعُلَبِ الدُّخانِ. لكنَّ عقدكي بٱلمِرْصادِ: «أنْتَ... هيه. أنْتَ، أيُّها الرّوميُّ، لي في ذِمَّتِكَ دَيْنٌ». وَيَتَفَكَّهُ الشُّرْطِيّونَ، فَهُمْ يَعْرِفونَهُ: «أيُّ دَيْنٍ عقدكي؟»، وَيَحْتَدُّ عقدكي: «الدَّيْنُ دَيْنٌ يا رومي ٱبنَ الرّوميّ. ألا تَتَذَكَّر؟»، وَيَرْفَعُ عَصاهُ عالِياً، فَيُهَدِّئونَهُ: «نَعَمْ، تَذَكَّرْنا. نَعَمْ. أخْفِضْ عَصاكَ. إنَّهُم يَنْتَظِرونَكَ في ٱلبَلَدِيَّةِ لِيُعْطوكَ دَيْنَكَ». وَتَنْفَرِجُ أساريرُ عقدكي: «أولادُ ٱلقَحْبَةِ... دَائِماً يَنْسَوْنَ. الدَّيْنُ دَيْنٌ». ويا ما طَرَدَهُ مُوَظَّفو ٱلبَلَدِيَّةِ بَعْدَ ٱحْتِفالاتٍ صاخِبَةٍ.

ويا ما آجْتَمَعَ حَوْلَهُ النّاسُ، وَسَطَ آلمَدينَةِ، وَهُوَ يُلَوِّحُ بِعصاهُ في اتِّجاهِ مَبْنى ٱلبَلَدِيَّةِ: «نَصّابونَ. أَوْلادُ كَلْبَةٍ. هاتوا الدَّيْنَ». ثُمَّ يَلْتَفِتُ إلى النّاسِ هاتِفاً: «ما حاجَتُنا إلى دَوْلَةٍ؟ لا نُريدُ دَوْلَةً. لا نُريدُ الرّوميّينَ. يأكُلونَ أمْوالَنا. نَصّابون. أَوْلادُ قَحْبَةٍ»، وَيَبْصُقُ مِلْءَ فَمِهِ الأَدْرَدِ، هاجِماً، لا عَلى آلمَبْنى، بَلْ عَلى النّاسِ آلمُتَحَلِّقينَ حَوْلَهُ: «أَنْتُمُ السَّبَبُ. تَحْمِلونَ خِصْياتِكُم إلى ٱلبَلَدِيَّةِ لِيَكْتُبوا عَلَيْها مَحاضِرَ الضَّبْطِ. تْفو على مُؤَخَّراتِكُم. تْفو على طائِراتِكُم»، وَتَكونُ طائِرَةٌ ما قَدْ عَبَرَتِ السَّماءَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ.

وذاتَ يَوْمٍ، وَمِنْ دونِ إِنْذارٍ، وَبَيْنَما كُلٌّ مِنَ آلإمامَيْنِ يُؤَدّي الصَّلاةَ في أَنْصارِهِ، حَمَلَ عقدكي طَسْتاً مِنَ آلوَحْلِ وَوَضَعَهُ حَيْثُ يَسْجُدُ آلمَلّا أحمدُ. وَقَدْ أَهْمَلَهُ آلأخيرُ بِكَثيرٍ مِنَ آلوَرَعِ، دافِعاً بِيَدِهِ الطَّسْتَ بَعيداً عَنْ مَكانِ سُجودِهِ، بِرُغْمِ دَمْدَمَةِ آلمُصَلّينَ آلواقِفينَ وَراءَهُ، آلَّذينَ خَلَطوا آلآياتِ بأَنْصافِ جُمَلٍ تَتَعَلَّقُ بِمُؤَخَّرَةِ أُمِّ عقدكي، وَبأَصْلِهِ وَفَصْلِهِ، بَيْدَ أَنَّ قاسمو وَحدَهُ قَطَعَ الصَّلاةَ، مُنْدَفِعاً وصِياحُهُ صِياحُ ديكٍ، مُهْوِياً على عقدكي بِضَرَباتٍ مِنْ نِطاقِهِ آلجِلْدِيِّ الثَّخينِ، وَكانَتْ تِلْكَ آلمَعْرَكَةُ آلمُخْتَلِطَةُ بآلكَثيرِ مِنَ آلعُواءِ، وَبآلقليلِ مِنَ آلكَدَماتِ،

مَدْخَلاً إلى كَرٍّ وَفَرٍّ طَويلَيْنِ بَيْنَهُما: يَقِفُ قاسمو عَلى بابِ ٱلمَسْجِدِ لِيَمْنَعَ دُخولَ عفدكي، وفي يَدِهِ مِنْجَلٌ؛ أو يَقِفُ عفدكي على بابِ ٱلمَسْجِدِ وفي يَدِهِ بَطّيخَةٌ مُعْطِنَةٌ في ٱنتظارِ قاسمو. ودائِماً يَتَدخَّلُ ٱلوُسَطاءُ مِنْ باعَةِ ٱلعَرَباتِ، فَيَخْتَصِرونَ ٱلمَعْرَكَةَ إلى بِضْعِ شَتائِمَ، وأطْنانٍ مِنَ التَّهْديدِ ٱلمُتَبادَلِ. وكانَ، بَعْدَئِذٍ، أنْ تَدَخَّلَ أَوْلادُ عفدكي، وأوْلادُ قاسمو، وَزَوْجَتاهُما، وَزَوْجاتُ أوْلادِهِما، حتّى ٱنْقَسَمَ ٱلحَيُّ ٱلغَرْبيُّ مَمْلَكَتَيْنِ صَغيرَتَيْنِ للنِّساءِ ٱلمُحارِباتِ، بَيْنَهُما فاصِلٌ مِنْ بُيوتِ ٱلمُحايدينَ، لكنَّ ٱلحِجارَةَ، وَٱلبَنَدورَةَ، وٱلقباقيبَ ٱلبالِيَةَ، كانَتْ تَعْبُرُ ذلِكَ ٱلفاصِلَ ٱلمُحايِدَ، في خَطٍّ هَوائيٍّ مِنْ فَوْقِ الرُّؤوسِ وٱلأبْنِيَةِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يرى أحَدٌ أحَداً.

وأخيراً، حَسَمَتْ مُديريَّةُ ٱلأوْقافِ ٱلأمْرَ، فأصْدَرَتْ مَراسيمَ بِتَعْيينِ ٱلمَلّا أحْمَدَ إماماً، وقاسمو مُؤَذِّناً. وَبالطَّبْعِ لَمْ يُعارِضْ مَنْ خُذِلوا مِنَ ٱلبُسَطاءِ هَذا ٱلأمْرَ، فَرِجالُ ٱلأوْقافِ فُقَهاءُ ضَليعونَ في الدّينِ؛ هكذا عَزَّوْا أنْفُسَهُم، وَبَرَّروا ٱنْفِضاضَهُم مِنْ حَوْلِ ٱلمَلّا رشيدٍ. ثُمَّ باتوا يَؤمّونَ ٱلمَسْجِدَ إلّا عفدكي، ٱلّذي أعْلَنَ العداءَ لِلأوْقافِ أيْضاً، وَبَعْدَ فَتْرَةٍ أعْلَنَ ٱلعَداءَ لِشَيْخِهِ ٱلمَلّا

رَشيد، وَلِلْحَيِّ ٱلغَرْبيِّ كُلِّهِ. ذَهَبَ إلى تُرْكيا، خِلْسَةً، عَبَرَ ٱلحُدودَ، وعادَ بَعْدَ أشْهُرٍ بالطَّريقَةِ ذاتِها، أشَدَّ مَقْتاً للنّاسِ، وأكْثَرَ هَذَياناً، لا يَتَحَدَّثُ إلّا عَنِ ٱلأناضولِ وَعَسْكَرِ سَفَرْ بَرْلَكْ، وَيَنْثُرُ السُّمْسُمَ، إنْ مَشى، مِنْ جَيْبِ قُفْطانِهِ، مُتَمْتِماً: «أنْتُمْ لُطَفَاْء. لُطَفاءُ جِدّاً. ٱتْبَعيني يا حيواناتِ ٱللَّه»، وكانَ يَقْصِدُ بٱلمُخاطَبَةِ أشْباحَ زَمَنِهِ ٱلمُتَدَثِّرِ بِغِطاءٍ سَميكٍ مِنَ ٱلبُطولَةِ، وَيَرْتَدي دُروعَهُ الصَّدِئَةَ تَحْتَ تِلْكَ ٱلبُحَيْرَةِ الصَّلْبَةِ مِنَ النِّسْيانِ ٱلآدَمِيّ.

هكَذا تَفَرَّدَ قاسمو بالسُّلْطَةِ، وَحْدَهُ، في ذلكَ ٱلمَبْنى ٱلإسْمَنْتيِّ ٱلعاري، وباتَ يَخْتالُ أمامَ باعَةِ ٱلعَرَباتِ بِنَياشينِهِ ٱلخَفِيَّةِ. لا يَكادُ يُغادِرُ ٱلمَسْجِدَ قَطُّ. يَكْنُسُ باحَتَهُ لَيْلَ نَهارَ بِمِكْنَسَتِهِ ٱلخاصَّةِ، وَهيَ مَحْضُ عصاً طَويلَةٍ رَبَطَ إلى طَرَفِها حُزْمَةً ضَخْمَةً مِنْ نَباتِ ٱلخَرْنوبِ، لكنَّ زَهْوَهُ تَعَدّى زَهْوَ مَلِكٍ حَقيقيٍّ حينَ أمَدَّتِ ٱلأوْقافُ ٱلمَسْجِدَ بِمُكَبِّرٍ لِلصَّوْتِ، زَرَعَتْهُ في أعْلى الصّاري ٱلَّذي يُسَمّى مِئْذَنَةً، وَمَدَّتْ مِنْهُ شَريطاً يَصِلُهُ بٱلميكْروفونِ في الدّاخِلِ. وَقَدْ عَمَدَ قاسمو إلى بِناءِ كوخٍ ضَيِّقٍ جِدّاً في زاوِيَةٍ مِنَ ٱلباحَةِ، تَفَنَّنَ الصّوفيُّ مَحْمودٌ، بائِعُ ٱلبَطّيخِ

ٱلـمُـتَـجَـوِّلُ، في تَـلْوِيـنِ خَـشَـبِـهِ بِـدِهـانـاتٍ شَـتّـى، في خُـطـوطٍ مُتَصالِبَةٍ، وَمُتعامِدَةٍ، وَمُتوازِنَةٍ، ومائِلَةٍ. «مائَةُ لَوْنٍ وَلَوْنٍ» كانَ يَقولُ الصّوفِيُّ مَحْمودٌ، «سأدْهَنُهُ بِمائَةِ لَوْنٍ وَلَوْنٍ تَليقُ بِميكْروفون قاسمو». وَقَدْ نَقَلَ قاسمو ٱلميكرفونَ إلى ٱلكوخِ، وباتَ يُدَلِّلُهُ كما يُدَلِّلُ دَجاجاتٍ تَبيضُ. يَدْخُلُ ٱلكوخَ ٱلَّذي لا يَتَّسِعُ لِرَجُلٍ إلّا جالِساً ٱلقُرْفُصاءَ، بِسَبَبٍ وَبغَيْرِهِ، في أوْقاتِ ٱلأذانِ وفي غَيْرِها. وَيَظَلُّ يُتَمْتِمُ: «إحِم. إحِم. إحْ. إحْ»، فَيَلْتَفِتُ باعَةُ ٱلخُضارِ ٱلمُتَجَوِّلونَ ٱلَّذينَ يَزْدَحِمُ بِهِمُ الرَّصيفُ ٱلمُلاصِقُ لِلْمَسْجِدِ، مُغَمْغِمينَ: «رَخيمٌ صَوْتُكَ قاسمو. حَيّاكَ ٱللَّهُ». وقد أشاعَ بَعْضُهُم أنَّه يَشْرَبُ بَيْضَتَيْنِ نَيْئَتَيْنِ كُلَّ صَباحٍ، ولا يَأْتي إلى ٱلمَسْجِدِ قَبْلَ أنْ يُؤَذِّنَ أمامَ زَوْجَتِهِ مِراراً وَتَكْراراً، حتّى تَقولَ لَهُ: «الآنَ. نَعَمْ، الآنَ صَفا صَوْتُكَ فٱذْهَبْ»، وَيُهَرْوِلُ قاسمو إلى ٱلمَسْجِدِ قَبْلَ أنْ يَطْرَأَ طارِئٌ يُعَكِّرُ بِئْرَ حَنْجَرَتِهِ النّورانِيَّة.

وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ إلّا تَحَوَّلَ صَوْتُ قاسمو إلى مَصْدَرِ إزْعاجٍ حَقيقيٍّ، حتّى باعَةُ ٱلخُضارِ ٱلمُتَجَوِّلونَ لَمْ يُخْفوا ٱسْتياءَهُم، وَقَدْ عَمَدْنا ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ مِراراً إلى قَطْعِ شَريطِ

ٱلمُكَبِّرِ، مِنْ فَوْقِ السّورِ، لكِنَّ الصَّوْتَ كانَ يَعودُ أقْوى: «إحِم، إحِم. إخْ إخْ»، فَنَضْرِبُ كَفّاً بِكَفٍّ: «رِجع الدّيك».

كُلُّ ٱلأشْياءِ دِيكٌ. العالَمُ دِيكٌ، وٱلحُكومَةُ دِيكٌ، إلّا دِيَكَتُنا في ساحَةِ ٱلبَيْتِ، فَهِيَ تَمْشي مِشْيَةَ سَكْران. وَنَكْتَئِبُ قَليلاً، فأنْ تَسْكَرَ الدِّيَكَةُ يَعْني أنْ يَقْتَحِمَ ميرو هُدوءَ ٱلأرْضِ مِنْ زاوِيَةٍ ما، مُعيداً سيرَةَ ٱلوَحْشَةِ وَٱلوَحْشِيّ، مُعيداً أنينَ ٱلكائِنِ إلَيْهِ؛ أنينَهُ ٱلأوَّلَ الصّامِتَ، حينَ وَقَفَ على هَضْبَةٍ يَسْتَطْلِعُ شَبيهَهُ ٱلكائِنَ وَيَدُهُ على هِراوَتِهِ؛ ضَئيلاً في ٱلمَمْلَكَةِ ٱلحَيوانيَّةِ؛ لا يُنافِسُ ٱلأقْوى، بَلْ يَحْبُكُ ٱلفِخاخَ، وَيَسْتَجْدي ٱلحيلَةَ. لكنَّ دِيَكَتَنا ـ كما كَشَفَ لنا ٱلعارِفونَ ـ لَمْ تَكُنْ سَكْرى. إنَّها مَريضَةٌ مِنْ جَرّاءِ تَناوُلِ السَّمادِ ٱلكيماويِّ ٱلَّذي نَثَرْناهُ في حَقْلِ ٱلبَصَلِ الصَّغيرِ. «يا لَلدِّيَكَةِ ٱلمَغْدورَةِ» تَنْدُبُ أُمّي، «لا يَأْخُذُ ٱللَّهُ إلّا ٱلفاضِلينَ». وَدِيَكَتُنا فاضِلَةٌ بِحَقٍّ. دِيَكَةٌ حَقيقيَّةٌ. ثلاثونَ ديكاً أَوْ أكْثَرُ. ضَئيلَةُ ٱلحَجْمِ، طَويلَةٌ أعْناقُها ٱلعارِيَةُ مِنَ الرّيشِ وَسيقانُها. دِيَكَةُ صِراعٍ لا دِيَكَةُ طَعامٍ. دِيَكَةٌ فُحولٌ، تَنْتِفُ الدَّجاجاتِ نَتْفاً قَبْلَ أنْ تَتَقَوَّسَ مِنْ فَوْقِها في جِماعٍ لا يَسْتَغْرِقُ ثَوانِيَ، وَمِنْ ثَمَّ تَنْهَضُ مُعْلِنَةً بِصِياحٍ رَصينٍ فَجْرَها

ٱلبَهِيميَّ ٱلفَحْلَ حتّى أبْعَدِ نَجْمَةٍ فيهِ. دِيَكَةٌ تُهاجِمُ ٱلقِطَطَ وٱلبَقَرَ. وإذا تَهَيّأتْ لَها وَليمَةٌ مِنْ طِفْلٍ رَضيعٍ فلا مانِعَ لَدَيْها.

... وَنَجْمَعُ دِيَكَتَنا ذاتَ فَجْرٍ. نَلْتَقِطُها مِنَ ٱلأرْضِ في سُهولَةٍ بالِغَةٍ، مُتراخِيَةً تَتَدَلّى أعْناقُها ذاتَ ٱليَمينِ وذاتَ الشِّمالِ، وَكَذلكَ أجْنِحَتُها. نَجْمَعُها مِنْ سيقانِها حُزْمَةً حُزْمَةً، ثُمَّ نَجْعَلُ بَيْنَ كُلِّ حُزْمَتَيْنِ حَبْلاً مِنَ ٱلقِنَّبِ وَنُلْقيها على أكْتافِنا، فَتَتَدَلّى على بُطونِنا وَظُهورِنا، فاتِحَةً مَناقيرَها ٱلمُزْبِدَةَ، وَنَتَّجِهُ بِها إلى سُوقِ الدَّجاجِ في ٱلمَدينَةِ.

«يا لَلدِّيَكَةِ ٱلمَغْدورَةِ» تَنْدُبُ أُمّي، وَتُحصي ما أعْطَيْناها مِنْ نُقودٍ. «أهذا ثَمَنُها؟ أهذا كُلُّ شَيْءٍ؟»، وَتَنْظُرُ إلَيْنا ـ نَحْنُ أبناءَها الصِّبْيَةَ وأبْناءَ أُخْتِها ـ فَنَقولُ: «نَعَم». وَنُضيفُ بَعْدَ بُرْهَةٍ مِنَ التَّرَدُّدِ: «تَعْلَمينَ، بالطَّبْعِ، ماتَ نِصْفُها في الطَّريقِ، والنِّصْفُ ٱلآخَرُ كانَ يُحْتَضَرُ. لَمْ يَدْفَعِ الشّارونَ إلّا مَبالِغَ بَخْسَةً ثَمَنَ الدّيكِ ٱلواحِدِ، أُمّاه». وَتَظَلُّ تَنْظُرُ إلَيْنا في ريبَةٍ، فَنُخْرِجُ جُيوبَنا ٱلكَبيرَةَ مِنْ دَشْداشاتِنا، في حَرَكَةٍ عَصَبِيَّةٍ مُفْتَعَلَةٍ: «ٱنْظُري. لا شَيْءَ وٱللَّهِ»، وَقَبْلَ أنْ نُكْمِلَ جُمْلَتَنا تَكونُ قِطَعٌ مَعْدِنيَّةٌ قَدْ أصْدَرَتْ رَنيناً نَتيجَةَ ٱحْتِكاكِ بَعْضِها بِبَعْضٍ داخِلَ

جوارِبنا ٱلفَضْفاضَةِ. عِنْدَئِذٍ نَخْلَعُ جوارِبَنا في هُدوءِ ٱلمُذْنِبِ، مُبْتَعدينَ عَنْها قَليلاً، حتّى لا تَطولَنا ضَرْبَةٌ مُفاجِئَةٌ، وَنُلْقي بٱلقِطَعِ النَّقْديَّةِ إلَيْها مُتَمْتِمينَ: «سَقَطَتْ سَهْواً أُمّاهُ. لا بُدَّ أنَّ جُيوبَ دَشْداشاتِنا مَثْقوبَةٌ، وإلّا لَما سَقَطَتِ ٱلقِطَعُ في جوارِبِنا أُمّاهُ»، وَيَمْضي ٱلأمْرُ في سلامٍ... يا لَلدِّيَكَةِ ٱلمَغْدورَةِ.

وفي الصّباحاتِ التّالِيَةِ، حينَ يَتَرَدَّدُ صَوْتُ قاسمو مِنْ مِئْذَنَةِ ٱلمَسْجِدِ مُبَشِّراً بِتَعَبٍ جَديدٍ، لا تُجارِيه دِيَكَتُنا، بَلْ دِيَكَةٌ أُخْرى بَعيدَةٌ، لا يُفَكِّرُ أحَدٌ في فُحولَتِها، وإنَّما في قُدْرَتِها على ٱكْتِنازِ ٱللَّحْمِ كَما تَكْتَنِزُ مارغو ٱللَّحْمَ في فَخْذَيْها وَرِدْفَيْها.

آهِ مارغو، لَوْ كُنّا نَعْرِفُ آنَئِذٍ بَهاءَ ذلكَ ٱللَّحْمِ، كما نَعْرِفُهُ ٱلآنَ، لَظَلَلْنا خاشِعينَ قَرْناً مِنَ الزَّمَنِ على سَطْحِ بَيْتِنا. كَما نَراكِ مارغو، في صَباحاتِ الصَّيْفِ، كَيْفَ تَنْهَضينَ في تَثاقُلٍ شَيْطانيٍّ، دافِعَةً عَنْكِ ٱلغِطاءَ ٱلكَسْلانَ، وأنْتِ في ثَوْبٍ شَفيفٍ مُنْحَسِرٍ حتّى ٱلبَطْنِ. لَمْ تَكوني تَأْبَهينَ لِنَظَراتِنا - نَحْنُ الصِّبْيَةَ - مِنَ السَّطْحِ ٱلمُقابِلِ لِسَطْحِ بَيْتِكِ، ٱلَّذي لا يَبْعُدُ عَنْكِ أكْثَرَ مِنْ خَمْسَةِ أمْتارٍ. ثُمَّ كُنْتِ تَطْوينَ ٱلفِراشَ كَلُفافَةٍ، مُنْحَنِيَةً إلى أمامٍ، يَفْصِلُ جِذْعَكِ مِنْ وَراءٍ، في تِلْكَ ٱلٱنْحِناءَةِ

النَّهْرِيَّةِ، خَيْطٌ دَقيقٌ يَسْتُرُ ٱلمَكْمَنَ ٱلكَوْكَبِيَّ لِلْوِلاداتِ كُلِّها، وَلِلْبُطولاتِ كُلِّها، وَلِلدَّمِ ٱلَّذي أُهْرِقَ، وَلِلدَّمِ ٱلَّذي سَيُهْرَقُ، وَلِلأنينِ، وَلِصَواعِقِ ٱلأقْحُوانِ، وَلِتِعَاقُبِ ٱلحُكوماتِ، وَلِلْخيانَةِ ٱلَّتي تُعَلِّقُ على مِشْجَبِ كُلِّ عَصْرٍ قِرْبَةَ نَبيذِها. وكانَ ٱلخَيْطُ الدَّقيقُ ذاكَ، ٱلمُمْعِنُ في ٱلتِصاقِهِ بِأُخْدودٍ لَحْمِيٍّ، يُثيرُ على جانِبَيْهِ ٱحْمِراراً خَفيفاً يَغارُ مِنْهُ ٱحْمِرارُ ٱلفاكِهَةِ ٱلمَرْسومَةِ في كَراريسِنا ٱلمَدْرَسِيَّةِ. غَيْرَ أَنَّنا لَمْ نَلْحَظْ ذلِكَ كُلَّهُ آنَئِذٍ، فَكُنّا نَتَنَدَّرُ بِٱلحَجْمِ الصَّغيرِ لِسِرْوالِكِ مارغو.

في الشِّمالِ، عادَةً، يَصْعَدُ النّاسُ بِأَسِرَّتِهِم إلى سُطوحِ ٱلمَنازِلِ لَيْلاً، حَيْثُ يَنامونَ بَعْدَ إحْصاءِ أكْبَرِ عَدَدٍ مِنَ النُّجومِ، وعَلى مَقْرُبَةٍ مِنْهُم تَنامُ الدَّجاجاتُ، ٱلَّتي تَصْعَدُ السَّلالِمَ ٱلخَشَبِيَّةَ بِدَوْرِها. وَقُبالَ سَطْحِنا كانَتْ تَنامُ مارغو.

ومارغو مُمَرِّضَةٌ في ٱلمُسْتَشْفى ٱلحُكوميِّ في ٱلمَدينَةِ، وَنَفْتَخِرُ بِأَنَّها جارَتُنا، لِأَنَّها «مُوَظَّفَةٌ حُكومِيَّةٌ»، وَٱلمُوَظَّفونَ ٱلحُكوميّونَ ذَوو ٱمْتِيازاتٍ، ونادِرونَ، تَتَمَلَّقُهُم النّاسُ بِرُغْمِ تَجاهُلِهِم للنّاسِ. يُسَلِّمونَ عَلَيْهِم، وَقَلَّما يَرُدّونَ. ومارغو عَوْراءُ. يَسْتُرُ عَيْنَها ٱليُمْنى غِشاءٌ أبْيَضُ كَثَوْبِها ٱلأبْيَضِ، وَمَعَ ذلكَ

يَزورُها ٱلكثيرونَ مِنْ مُوَظَّفي ٱلـحُكومَةِ في بَيْتِها. وَلَها حُظْوَةٌ عِنْدَ ضُبّاطٍ يَجيئونَ وَيَذْهَبونَ في سيّاراتِ لانْدروفر. إنَّها ذاتُ سَطْوَةٍ حَقّاً، لكنَّ سَطْوَتَها في ٱلـمُسْتَشْفى تُعادِلُ سَطْوَةَ قائِمَّقام.

وَمَنْ يَؤُمُّ ٱلـمُسْتَشْفى ٱلـحُكوميَّ غَيْرُ ٱلقَرَوِيّين وَبُسطاءِ الضَّواحي؟ يَنْظُرُ ٱلـمُمَرِّضونَ وَٱلـمُمَرِّضاتُ إلَيْهِم شَزْراً، وَهُمْ يَدْفَعونَ طاساتٍ مَطْعوجَةً في ٱتِّجاهِهِم: «تَبَوَّلوا». وأيْنَ يَتَبَوَّلُ ٱلـمَرْضى في طاساتِهِم؟ كُلُّ ٱلـمَرْضى يَحْمِلونَ طاساتٍ، حتّى أوُلئِكَ ٱلَّذين يَحْضُرونَ طَلَباً لِبَعْضِ ٱليودِ مِنْ أجْلِ إصْبَعٍ جَريحٍ، وحتّى مَنْ يَزورونَ أقْرِباءَهُم؛ كلُّهم يَحْمِلونَ طاسَاتٍ. فاتِحَةُ الدُّخولِ إلى ٱلـمُسْتَشْفى، زائِراً أو مَريضاً، هي الطّاسَةُ، وَعَلَيْكَ أنْ تَتَبَوَّلَ فيها، قَبْلَ أنْ تُقْنِعَ ٱلـمُمَرِّضَ ٱلبَوّابَ، أوْ مُوَظَّفَ ٱلاسْتِعْلاماتِ، أنَّكَ لَسْتَ مَريضاً، بَلْ جِئْتَ مِنْ أجْلِ طُعْمِ ٱلـجُدَرِيّ... مَثَلاً. مَرْضى، مَرْضى حتّى يَثْبُتَ ٱلعَكْسُ. وتَأْتي حُقْنَةُ پِنِسِلين، وَتَمْضي حُقْنَةُ پِنِسِلين. پِنِسِلين لِكُلِّ شَيْءٍ، لِلسَّرطانِ، وَلِلسُّكَّري، وَلِلتّيفوئيدِ وَلِلْبِلْهرسيا، وَلِلسِّلِّ، وَلِلجُروحِ، وَلِلأسْنانِ، وَلِلْفَتْقِ، وَلِلزّائِدَةِ الدّوديَّةِ. إبَرُ پِنِسِلين تَطيرُ

كاَليَعاسيبِ في أرْوِقَةِ آلـمُسْتَشْفى. حُلُمٌ هائِلٌ طويلٌ مِنَ آلپِنِسِلين يَنْتَظِرُ الدّاخِلَ بطاسَتِهِ إلى آلـمُسْتَشْفى. لكنْ، أيْنَ يَتَبَوَّلُ آلمَرْضى في طاساتِهِم؟ ثَمَّتَ مِرْحاضٌ لا يَتَّسِعُ لِخَمْسَةِ أشْخاصٍ، وَآلمَرْضى مِئاتٌ. ولِذا عَلَيْكَ آلبَحْثُ عَنْ رُكْنٍ ما، بَيْنَ شَجَراتِ آلحَديقَةِ، أو قُرْبَ حائِطٍ، أوْ في مُنْعَطَفٍ مِنْ مُنْعَطَفاتِ آلـمَبْنى الشَّبَحِيِّ الضَّخْمِ، لكِنَّكَ، يَقيناً، لَنْ تَجِدَ رُكْناً، أوْ مُنْعَطَفاً، أو شَجَرَةً، لَمْ تَسْبِقْكَ إلَيْها طاسَةٌ ما. «شـ خـ خـ. شـ شـ خ». الكُلُّ يَتَبَوَّلونَ على دُفُعاتٍ صَغيرةٍ، فآلخَجَلُ يَحْبِسُ آلبَوْلَ، أو يَجْعَلُهُ مُتَقَطِّعاً. وَآلخَجَلُ سِمَةٌ عامَّةٌ في ذلِكَ آلعَراءِ آلـمُطَرَّزِ بآلأعْضاءِ التَّناسُلِيَّةِ آلـمُتَدَلِّيَةِ مِنْ فُتُحاتِ السَّراويلِ، أما آلقَرَوِيّونَ آلقادِمونَ بِدَشْداشاتِهِم فَيُقَرْفصون على آلأرْضِ، واضِعينَ طاساتِهِم بَيْنَ أفْخاذِهِم، أوْ يَرْفَعونَ الدَّشْداشاتِ حتّى آلخُصورِ، مُمْسِكينَ بِحَواشيها في أفْواهِهِم، فَتَظْهَرُ مُؤَخَّراتُهُمُ آلعارِيَةُ مِنْ أيِّ لِباسٍ داخِلِيٍّ.

آلمِرْحاضُ للنِّساءِ، وَعَراءُ آلحَديقَةِ، وآلـمُنْعَطَفاتُ، وآلحيطانُ، للرِّجالِ وَغَيْرِهِم؛ والدّاخِلُ لمارغو. صَوْتُها يَتَدَحْرَجُ على آلبِلاطِ الصَّقيلِ، وَعلى آلأغْطِيَةِ آلبَيْضاءِ، وَآلقواريرِ،

والطّاساتِ ٱلمَمْلوءَةِ بٱلبَوْل. صَوْتُها يَتَدَحْرَجُ على أنينِ ٱلمَرْضى، خارِجاً مِنَ النَّوافِذِ كالرّيحِ فتَميلُ شَجَراتُ ٱلحديقَةِ، وَتَخْتَبِىءُ ٱلجَنادِبُ. ومارغو مَحْلولَةُ الثَّوْبِ أبَداً. زِرّانِ مَفْكوكانِ مِنَ ٱلأعْلى، وَثلاثَةُ أزْرارٍ مِنَ ٱلأسْفَلِ تَكْشِفُ طَوْقَ ٱلجَوارِبِ ٱلبَيْضاءِ مِنَ ٱلأعْلى، الغائِصَ في لَحْمِ ٱلفَخْذِ ٱلبَضِّ. وَلَيْسَ مِنْ رُواقٍ مُعْتِمٍ، أو سِتارَةٍ خَشَبِيَّةٍ مِمّا يَتَفَحّصونَ خَلْفها ٱلمَرْضى، إلّا ولمارغو وراءَها لُهاثٌ أو رائِحَةٌ. يَكْفي أنْ يَغْفَلَ مُمَرِّضٌ عن صَديقِهِ دَقيقَتَيْنِ لِتَخْتَطِفُه مارغو. يَكْفي أنْ تَنْحَنِيَ دَقيقَةً واحِدَةً على ٱلمَغْسَلَةِ لِيَكونَ أحَدُهُم قَدْ رَفَعَ ثَوْبَها إلى خَصْرِها وَبَدَأَ عُواءَهُ ٱلأبَدِيَّ. يَكْفي أنْ يَكونَ أحَدُهُم جالِساً لِكِتابَةِ وَصْفَةٍ حتّى تَفْتَحَ مارغو أزْرارَ بِنْطالِهِ، وَمِنْ دونِ أنْ تَرْفَعَ ثَوْبَها قَطُّ، وَبغَريزَةٍ كَغَريزَةِ ٱلبَشْروشِ، لا تُخْطِىءُ ٱلهَدَفَ السُّفْليَّ الصَّلْبَ ٱلَّذي يَتَفَجَّرُ حَلْقَةً حَلْقَةً مِنَ ٱلحَلْوى وَٱلفاكِهَةِ ٱلغامِضَةِ، قائِمَةً قاعِدَةً في حَرَكَةٍ سَريعَةٍ مُتواصِلَةٍ، ثُمَّ تَسْتَديرُ وَتَمْضي، غَيْرَ عابِئَةٍ، أحْياناً، بٱلقَطْرَةِ ٱلبَهِيَّةِ ٱللَّزِجَةِ ٱلَّتي تَتَدَحْرَجُ على طولِ ٱلجَوْرَبِ، حتّى تَسْتَقِرَّ في حِذائِها. هَكَذا تَمْلِكُ مارغو ٱلمُمَرِّضينَ. أمّا ٱلأطِبّاءُ الشُّيوخُ ٱلقليلونَ، ٱلَّذينَ يَعْبُرونَ

ٱلأزْوِقَةَ كَبَقايا حَيَواناتٍ بعَدْ مَحْلٍ طَويلٍ، فَيَكْفِيهم مِنْ مارغو أنْ تَجْلِسَ أمامَهُم على كُرْسِيٍّ، طاوِيَةً ساقاً واحِدَةً لِصْقَ صَدْرِها، كاشِفَةً عَنْ مَعْبَرِها الضَّيِّقِ ٱلَّذي يَصِلُ فَخْذَيْنِ لا تَهْدَآنِ؛ مَعْبَرِها ٱلَّذي لا يَخْرُجُ مِنْهُ الرَّجُلُ إلّا خائِباً، أو أشَدَّ تَصْميماً على تَكْرارِ هَزائِمِهِ. وَلَرُبَّما مَدّ أُولئِكَ الشُّيوخُ أيْدِيَهم ٱلمُرْتَجِفَةَ إلى ٱلجَحيمِ الصَّغيرِة ـ مِرْآةِ شَبابِهِم الضّائِع ـ في مُنْتَصَفِ جِذْعِ مارغو، وَتَأَوَّهوا بٱخْتِناقٍ، وَهُمْ يَضَعونَ أيْديَهُم ٱلأُخْرى في فُتُحاتِ سَراويلِهِم.

مِنْ بَعيدٍ يَتِمُّ كُلُّ شَيْءٍ مَعَ ٱلأطِبّاءِ الشُّيوخِ، وَتَتَّسِعُ مَمْلَكَةُ مارغو؛ تَتَّسِعُ كَحُلُمٍ مِنَ ٱلبِنِسِلين في ذاكِرَةِ ٱلمَرْضى. وَبسُلْطَةِ مارغو، وَحْدَها، يَنْتَقِلُ مَريضٌ مِنْ جَناحٍ إلى جَناحٍ، وَتَزْدادُ حُظْوَةُ بَعْضِهِم عِنْدَ ٱلمُمَرِّضاتِ أوْ تَقِلُّ؛ تُبَدَّلُ الشَّراشِفُ يَوْمِيّاً، أوْ تَبْقى أشْهُراً. وَبسُلْطَةِ مارغو يَسْتَقْبِلُ ٱلمُسْتَشْفى مَرْضى جُدُداً، أوْ يَبْقَوْنَ سَنواتٍ في ٱلخارِجِ، وَهُمْ يَحْمِلونَ طاساتِ ٱلبَوْلِ، مِنْ غَيْرِ أنْ يَأْخُذَها أحَدٌ مِنْهُم إلى ٱلغُرْفَةِ ذاتِ ٱلأنابيقِ، وَٱلأواني الزُّجاجيَّةِ، ٱلَّتي يَطُنُّ مِنْ حَوْلِها ٱلبَعوضُ لِطولِ ما رَكَدَ فيها ٱلبَوْل.

كُلُّ آمالِ ٱلمَرْضى مُعَلَّقَةٌ على بَوْلِهِم. أنْ يَقْبَلوا بَوْلَكَ يَعْني أَنَّهُم يَقْبَلونَكَ. وفي ٱلمُسْتَشْفى تَخْتَلِطُ الطّاساتُ. لا أحَدَ مِنَ ٱلمُمَرِّضينَ ٱلمُتَأَفِّفينَ يَتَفَحَّصُ بَوْلَ أحَدٍ، وَمَعَ ذلكَ تَجْري ٱلأمورُ في رُتوبٍ مُنْتَظِمٍ، وَفْقَ مَشيئَةٍ عَمْياءَ تُصيبُ ـ أبَداً ـ غَيْرَ ما هُوَ مَقْصودٌ: «فُلانٌ... فَلْيَتَقَدَّمْ فُلانٌ»؛ وَهَكذا تَنْتَقي ٱلمُصادَفَةُ رَعاياها، وَيَدْخُلُ ٱلمُسْتَشْفى مَنْ لَمْ يَتَقَدَّمْ بِطَلَبٍ قَطُّ، ولا بِطاسَةِ بَوْلٍ.

مُصادَفاتٌ مُتواصِلَةٌ في شِمالٍ لم يَكُنْ وُجودُهُ إلّا مُصادَفَةً. إذْ لَمْ تَكُنْ للأرْضِ، مِنْ قَبْلُ، إلّا ثلاثُ جِهاتٍ، تَتَعاقَبُ فيها ٱلأمورُ وَٱلحيواناتُ في هَنْدَسَةٍ مَجْنونَةٍ مُحْكَمَةٍ، وَكُلُّ شَيْءٍ مَحْسوبٌ في السِّجِلِّ اللّامَرْئِيِّ، مُقَسَّمٌ إلى أصْغَرِ جَذْرٍ تَرْبيعيٍّ، أو تَكْعيبيٍّ، كَٱللّوغارِتم. وكانَ ٱلهَواءُ مُحاسِبَ ٱلأرْضِ وَدَفْتَرْدارَها، يُرَتِّبُ ٱلغَيْمَ في مُكَعّباتٍ، وَيَحْسُمُ من كثافَةِ الضَّبابِ أو يَزيدُها، يَحْفِرُ مَجاريَ جانِبِيَّةً في ٱلأنْهارِ لِيَخْتَزِلَ ٱلمياهَ إلى ٱلحَدِّ ٱلَّذي تَحْتاجُهُ أرْضٌ ما؛ يَميلُ بِأوْراقِ ٱلأشْجارِ لِيَرْتَسِمَ ظِلُّها فَوْقَ بُذورٍ في حاجَةٍ إلى ظِلٍّ، أو لِيَكْشِفَ بذوراً أُخْرى لَيْسَتْ في حاجَةٍ إلى ظِلٍّ. وَٱلهَواءُ الدَّفْتَرْدارُ، ٱلخازِنُ

ٱلأكْبَرُ لِشَغَفِ ٱلآلِهَةِ بالنِّظامِ وَٱلمَنْطِقِ، يَأْتي وَيَمْضي وَفْقَ حِسابٍ مَعْلومٍ لِزوايا ٱلهُبوبِ: زَاوِيَةٍ حادَّةٍ، زَاوِيَةٍ قائِمَةٍ، زَاوِيَةٍ مُنْفَرِجَةٍ. وَلَهُ فُرْجارٌ يَظَلُّ لِقَلَمِهِ الرَّصاصِ صَريرٌ مُؤْنِسٌ على وَرَقَةِ ٱلغَيْبِ الشَّفيفَةِ. غَيْرَ أنَّ ٱلآلِهَةَ مَلَّتْ تِلْكَ ٱلهَنْدَسَةَ كُلَّها، وَمَلَّتْ سُلْطَةَ أنْ تَعْرِفَ التَّعاقُبَ وٱحْتِمالاتِهِ؛ مَلَّتْ سُلْطَةَ أنْ تَعْرِفَ ٱلأمورَ إلى ٱلأبَدِ، فَقَرَّرَتْ، ذاتَ ظَهيرَةٍ، وَهِيَ تَنْقُلُ حِجارَةَ شَطَرَنْجِها في كَسَلٍ، أنْ تَخْلُقَ جِهَةً رابِعَةً تَسْتَعْصي على ٱلهَنْدَسَةِ، وعلى ٱلحِسابِ، وَعلى ٱلجَبْرِ، وَعلى ٱلاحْتِمالاتِ، وَعلى كُلِّ قِياسٍ آخَرَ مِنَ قِياساتِ مَعْرِفَتِها... فكانَ الشِّمالُ... الشِّمالُ ٱلمُطَرَّزُ بِمُصادَفاتٍ مُلْتَمِعَةٍ كَٱلخَرَزِ.

وها مارغو تَزيدُ في مُصادَفاتِ الشِّمالِ مُصادَفَةً جَديدَةً؛ مُصادَفَةَ أنَّ مارغو هِيَ مارغو. وماذا لَوْ لَمْ تَكُن هِيَ هِيَ؟ إذَنْ لٱنْتَفى أيُّ سَبَبٍ لِوجودِ ٱلمُسْتَشْفى. فالنّاسُ لا تَذْهَبُ إلَيْهِ لأنَّهُم مَرْضى، بَلْ حُبّاً بٱلوقوفِ أمَامَ بوّاباتِهِ. حُبّاً بٱمْتِحانِ مَقْدِرَتِهِم على التَّبَوّلِ أمامَ أنْظارِ ٱلآخَرينَ. حُبّاً بٱمْتِحانِ ٱلمُصادَفَةِ وَسُلْطَتِها ٱلعَذْبَةِ.

كانَ ذلكَ كُلُّهُ قَبْلَ مَجيءِ الصَّخَبِ ٱلَّذي خَلَعَ مدينَةَ

ٱلمَلاهي مِنْ أساساتِها، وَجَعَلَ الرّاقِصاتِ مَشاعاً لِمَنْ يُريدُ أنْ يُمَتِّعَ عَيْنَيْهِ بِفَخْذَيْنِ لا يَتَوَسَّطُ مُلْتَقاهُما شَعْرٌ أو زَغَبٌ، بل رابِيَةٌ حَليقَةٌ مِنَ ٱللَّحْمِ الصِّرْفِ في حَجْمِ قَبْضَةِ ٱليَدِ، تُثيرُ مِنَ ٱللُّهاثِ ما يَكْفي لِجَرْفِ قَرْيَةٍ كَبيرَةٍ بِمنازِلِها، وَناسِها، وَأغْنامِها، وَكِلابِها، وَدجاجاتِها. لكنَّ ٱلأمْرَ تَبَدَّلَ مَعَ مارغو، بَعْدَ يَوْمِ الصَّخَبِ، فَكَأَنَّ سُلْطَتَها كانَتْ مِنْ سُلْطَةِ ٱلهُدوءِ الضّاري ٱلَّذي خَيَّمَ بِضْعَ سِنينَ، (بِقُوَّةِ الشُّرْطَةِ)، حتّى لَيَزْعُمُ بَعْضُهُم، آنَذاكَ، أنَّهُم تَوَجَّسوا قُدومَ ميرو بأكْباشِهِ، واضِعينَ آذانَهُم على جُدْرانِ ٱلبُيوتِ: «هِسّ. هِسّ. إنَّها أظْلافُ ٱلأكْباشِ تَرْتَطِمُ بٱلحَصى في وادي بلير. هِسّ. هِسّ». وَذَهَبَ بَعْضُهُم في الزَّعْمِ إلى حَدٍّ تَأْكيدِ أنَّهُم رَأَوْا، مِنْ بَعيدٍ، في التُّخومِ ٱلَّتي تَنْبَجِسُ مِنْها هَضْبَةُ قولو كَتَدْيٍ أرْضِيٍّ، زَوابِعَ مِنْ غُبارٍ وَدَمٍ يابِسٍ مَطْحونٍ، تَعالَتْ حتّى أبْعَدِ أُخْدودٍ في السَّماءِ ٱلمَشْقوقَةِ، ثُمَّ ٱنْحَدَرَتْ في ٱتِّجاهِ سَهْلِ زيريك، مُلَطِّخَةً رُؤوسَ السَّنابِلِ بِلَوْنٍ قانٍ: «إنَّه ميرو؛ تَتَجَشَّأُ أكْباشُهُ مِنْ أعْماقِ أحْشائِها». غَيْرَ أنَّ ٱنْقِلابَ ٱلحُكومَةِ ٱلجَديدَةِ على ٱلحُكومَةِ ٱلقَديمَةِ بَدَّدَ ٱلمَزاعِمَ، وَقَدَّمَ إلى النّاسِ زَمَناً صاخِباً على صَحْنٍ وَرَقِيٍّ:

«كُلوا هَنيئاً مَريئاً. كُلوا ٱلأوْسِمَةَ، والأضابيرَ، وَٱلقُبَّعاتِ، وَٱلأحْذِيَةَ ٱلعَسْكَرِيَّةَ. كُلوا مُخَلَّفاتِ ٱلانْتِهازيّينَ، وَٱمْحوا آثارَهُم». وَأَكَلْنا كُلَّ ذلِكَ حَقّاً، أَكَلْنا جُدْرانَ السّراي، وَبَيْتَ ٱلقائِمَّقامِ ذا ٱلحَديقةِ ٱلمُتْرَفَةِ بأزاهيرِها. ثُمَّ أكَلْنا ٱلمُسْتَشْفى.

يا لَلْهُدوءِ ٱلهَشِّ ٱلَّذي نَسَجَتْهُ ٱلحُكومَةُ السّابِقَةُ بِخُيوطٍ مِنْ أبْصارِ الشُّرْطَةِ، وَصَريرِ أبْوابِ ٱلأقْبِيَةِ. يا لَمارْغو.

لَقَدْ داهَمَ أوْلادُ مَيْسي ٱلمُسْتَشْفى بَعْدَ ٱلبلاغِ ٱلأوَّلِ لِلْحُكومَةِ ٱلأَلْفِ. قَلَبوا أنابيقَ ٱلبَوْلِ، وَقَماقِمَهُ، وَقواريرَهُ، وَطاساتِهِ، في طَريقِهِم. قَلَبوا ٱلأسِرَّةَ، وَدَحْرَجوا ٱلمَرْضى على ٱلبِلاطِ الصَّقيلِ، وَهُمْ يَبْحَثونَ بِعُيونِهِم ٱلعِنَبِيَّةِ عَنْ مارغو، مُزْبِدينَ كَبَقَرِ ٱلحِراثَةِ. «سَيَأْكُلونَها أكْلاً» تَمْتَمَ بَعْضُهُم. «سَيَأْكُلونَها كَما أكَلَ أطِبّاءُ ٱلمُسْتَشْفى أُمَّهُم ميسي». لَقَدْ وَقَفَ أوْلادُها أمامَ بوّابَةِ ٱلمُسْتَشْفى شَهْرَيْنِ، مُمَدِّدينَ أُمَّهُم على فِراشٍ رَثٍّ، وفي يَدِ أحَدِهِم طاسَةُ بَوْلِها. شَهْرانِ وَهُمْ يَكُشّونَ الذُّبابَ عَنْ عَيْنَيْها ٱلمُرْتَخِيَتَيْنِ. شَهْرانِ، بطولِهِما، يُرَدِّدونَ جُمْلَةً واحِدَةً على مَسْمَعِ أُمِّهِم: «سَتَكونينَ في خَيْر. إنَّه ٱلمُسْتَشْفى»، ثُمَّ يَضَعونَ أيْديَهُم على أفْواهِهِم الصّارِمَةِ

كأنَّما يَخْنُقونَ زيزانَ آلألَمِ آلَّتي تَتَخَبَّطُ في حَناجِرِهِم. وحينَ نادى مُنادٍ مِنَ الرِّواقِ آلـمُعْتِم: «ميسي بريخان»، طاروا بِها كآلعَصافيرِ إلى الدّاخِلِ، مُصْطَدِمينَ بطاساتِ آلبَوْلِ في آلأيدي: «يُنادونَ أُمَّنا. وَسِّعوا، وَسِّعوا». وكانوا مَرِحينَ بَعْدَ ذلِكَ كأشَدِّ ما يكونُ آلـمَرَحُ. يَتَحَلَّقون حَوْلَ سَريرِ أُمِّهِم، مُتباهينَ بِحَبّاتِ آلبُرْتُقالِ آلَّتي يَجْلُبونَها، بَيْنَما يَنْظُرُ آلـمَرْضى آلآخَرونَ إلَيْهِم في حَسَدٍ ظاهِرٍ. وَلَمْ يَدُمِ آلأمْرُ طَويلاً، فَقَدْ دَخَلَتْ مارغو كَصاعِقَةٍ مِنَ آللَّحْمِ وَآلبَياضِ إلى الرَّدْهَةِ آلـمُزْدَحِمَةِ بآلأسِرَّةِ، وَأشارَتْ إلى سريرِ ميسي، هاتِفَةً بِمُمَرِّضَيْنِ يَجُرّانِ مِحَفَّةً ذاتَ دَواليبَ: «هذهِ هِيَ آلـمَيْتَةُ. خُذوها». وَتَقَدَّمَ آلـمُمَرِّضانِ في حَرَكَةٍ آلِيَّةٍ، ساحِبَيْنِ آلهَيْكَلَ الشَّبَحِيَّ مِنْ بَيْنِ آلأغْطِيَةِ.

كانَ وُجومٌ صَلْبٌ في الرَّدْهَةِ؛ وُجومٌ يَتَطايَرُ مِثْلَ آلـمُذَنَّباتِ آلعَمْياءِ. وُجومٌ وَذُهولٌ لَمْ يُفِقْ مِنْهُما أوْلادُ ميسي إلّا وَكانَ آلـمُمَرِّضانِ قَدْ مَضَيا بِها في الرِّواقِ. رَكَضوا: «أُمّاه». صَرَخَ طَبيبٌ كَهْلٌ: «يا لَلْحَمير، لِماذا يَرْكُضون؟». آلتَفَتوا إليهِ، وَتَشَبَّثوا بِقَميصِهِ: «أعِدْها يا سَيِّدي». قالَ الدُّكْتورُ في آمْتِعاضٍ: «أبْعِدوا أيْديَكُمْ عَنّي. إنَّها مَيْتَةٌ يأخُذونَها إلى غُرْفَةِ التَّشْريح».

«مَيْتَة؟؟؟» كَرَّروا آلكَلِمَةَ في عَويلٍ مَكْتوم. «لا. إنَّها حَيَّةٌ يا دُكتور. تعالَ آسْمَعْ تَنَفُّسَها. تَعالَ آسْمَعْ حِكايَةَ جَدْيِها ذي آلقُرونِ الثَّلاثَةِ». وكأنَّما آسْتَدْرَكوا مَسْأَلَةً مُهِمَّةً في لَحظاتِ الذُّهولِ تِلْكَ، فأَشاروا بِأَيْدِيهِم إلى مارغو: «إِسْأَلْها يا دُكتور. إسْأَلِ السِّتَّ مارغو، سَتَقولُ لَكَ إنَّ أُمَّنا حَيَّةٌ». وَأَوْمَأَتْ مارغو بِرَأْسِها في إشارَةٍ جازِمَةٍ: «دَغْلَكَ مِنْهُم».

حاوَلوا أنْ يُقْنِعوا الدُّكتورَ بِكَلامٍ جَديدٍ فَخَذَلَتْهُم حَناجِرُهُم. تَرَكُوهُ وَتَبِعوا آلمُمَرِّضينَ وَآلمِحَفَّةَ ذاتَ الدَّواليب. وحينَ وَصَلوا إلى آلمَسْلَخِ آلآدَمِيِّ آلمَعْزولِ، كانَ آخِرُ طَبيبٍ بَيْطَرِيٍّ يُحاوِلُ أنْ يُوْصِدَ آلبابَ آلخَشَبِيَّ خَلْفَهُ. صَرَخوا: «أُمّاهُ»، ثُمَّ حاوَلوا آقْتِحامَ آلبابِ، فَوَقَفَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُم طَبيبانِ في أيْديهم سَواطيرُ صَغيرَةٌ: «ألا تَفْهَمونَ؟ الماما ماتَتْ... ماتَتْ»، لكنَّ صَوْتاً ضَعيفاً، في الدّاخِلِ، كانَ يُرَدِّدُ آسْمَهُم واحِداً واحِداً، ثُمَّ آخْتَفى لِيَخْرُجَ طبيبٌ ثالِثٌ حامِلاً قَلْباً آدَمِيّاً: «آنْظُروا يا حَمير. أَلَمْ نَقُلْ إنَّها ماتَتْ؟». إذْ ذاكَ سَقَطَ أولادُ ميسي عَلى رُكَبِهِم كَشُجَيْراتٍ مِنْ دَغْلِ الهلالية.

«أيْنَ سَتَخْتَفي مارغو؟» تَمْتَمَ أوْلادُ ميسي. وَفِعْلاً، لَمْ

يَسْتَطِعِ ٱلْمُسْتَشْفى الضَّخْمُ كَهَيْكَلٍ مِنْ هياكِلِ حَيَواناتِ ٱلْحِكايَةِ أنْ يُلْجِىءَ مارْغو، فإذا هِيَ مُتَكَوِّمَةٌ في مِرْحاضِ السَّيِّداتِ، فَجَرّوها مِنْ غُرْفَةٍ إلى غُرْفَةٍ، وَمِنْ رَدْهَةٍ إلى أُخْرى، وَمِنْ رِواقٍ إلى شَبيهِهِ، ثُمَّ خَرَجوا إلى ٱلْحَديقَةِ، مُتَّجِهينَ إلى غُرْفَةِ التَّشْريحِ ٱلْمَعْزولَةِ.

كانَتْ تَتَشَبَّثُ بِٱلْعُشْبِ فَيَتَقَصَّفُ، وَبِٱلْحِجارَةِ فَتَنْفِرُ كالسَّحالي، صامِتَةً تماماً، مُغْمِضَةً عَيْنَها السَّليمَةَ، بَيْنَما ظَلَّتِ ٱلعَيْنُ ٱلعَوْراءُ مُفَتَّحَةً تُحَدِّقُ في مَغيبٍ يَقْضَمُ أعْضاءَهُ ٱلْمُضيئةَ. وعلى الطّاوِلَةِ ٱلْخَشبيَّةِ ذاتِها، ٱلَّتي تَتَدَلّى مِنْ حوافِّها قِطَعٌ مُقَدَّدَةٌ مِنَ ٱللَّحْمِ وَٱلدَّمِ، مَدَّدَ ٱلغاضِبونَ مارْغو. طَوَوْا فَخْذَيْها ٱلْمُلَوَّثَيْنِ بِدَمِ ٱلْحَيْضِ على صَدْرِها، وأدْخَلَ أحَدُهُم ذِراعَهُ كُلَّها في التَّجْويفِ ٱلأُبَّهِيِّ لِجُنونِ السُّلالَة. أدْخَلَهُ كما تَعَوَّدَ أنْ يُدْخِلَهُ في شَرْجِ ٱلبَقَراتِ ٱلَّتي تُصابُ بالتُّخْمَةِ، لِيُخْرِجَ الرَّوْثَ بِيَدِهِ. وَٱلقَرَوِيّونُ حاذِقونَ في ذلِكَ، وَهُوَ طِبُّهُمُ الشّافي. لكنَّهُ بَدَلَ أنْ يَسْحَبَ الرَّوْثَ، هذهِ ٱلْمَرَّةَ، سَحَبَ أحْشاءَ مارْغو كُلَّها: الرَّحِمَ، وَٱلْمَثانَةَ، وَٱلأمْعاءَ. تَشَنَّجَتْ وَٱرْتَخَتْ تَحْتَ ٱلأيْدي الصَّلْبَةِ ٱلأُخْرى. تَهاوى رأسُها إلى وَراءٍ في بُطْءٍ،

وَظَلَّتْ عَيْنُها ٱلبَيْضاءُ ٱلمَفْتوحَةُ تُحَدِّقُ في آخِرِ صورَةٍ رَأَتْها تِلْكَ ٱلعَيْنُ، قَبْلَ سَبْعَةٍ وَعِشْرينَ عاماً.

عَلَّقَ أولادُ ميسي نَذْرَهُمُ الدَّمَوِيَّ على مِشْجَبٍ في ٱلغُرْفَةِ، ثُمَّ خَرَجوا تِباعاً.

لَمْ تَكُنْ مارغو تَهُمُّنا، نَحْنُ الصِّبْيَةَ، قَطُّ، لكنَّنا ظَلَلْنا نَتَفَكَّهُ رَدْحاً مِنَ ٱلوَقْتِ بِسِرْوالِها الدّاخِليِّ الصَّغيرِ. وَلَمْ يَكُنْ تَفَكُّهاً بِحَقٍّ، بِمِقْدارِ ما كانَ تَفَتُّحاً لِحواسِّنا على غابَةٍ جَديدَةٍ مِنْ غاباتِ ذلِكَ ٱلعُمْرِ. وَلَمْ تَمْضِ ثَلاثُ سَنَواتٍ إلّا وَكُنّا نَلْهَثُ لُهاثَ كَبْشٍ صَغيرٍ إذْ نَتَذَكَّرُ، أو نَرى، سِرْوالاً كَسِرْوالِ مارْغو.

كان ٱبْنا مرادو ٱلمُراهِقانِ بشيرو وحسينو قَدِ ٱكْتَشَفا مَنْبَعَ ٱلهزائِمِ وَٱلعُذوبَةِ قَبْلَنا. ٱكْتَشَفا سِحْرَ السَّراويلِ الصَّغيرَةِ وما تُخْفيهِ، فكانا يُرْسِلاننا في مُهِمّاتٍ سِرِّيَّةٍ إلى دُكّانٍ بغدي ٱلأحْدَبِ، لِيُعْطيَنا، مُقابِلَ النُّقودِ ٱلَّتي أرْسَلاها، مَظاريفَ مُقْفَلَةً نَعودُ بِها سِراعاً.

لَمْ نَسْأَلْهُما قَطُّ عَنْ مُحْتَوَياتِ تِلْكَ ٱلمَظاريفِ، إذْ كانَ يَكْفينا مِنْ كَرَمِهِما أنْ يَمُدّانا بِبَعْضِ ٱللُّفافاتِ، نُدَخِّنُها ـ في

أوَّلِ عَهْدِنا بالتَّدْخينِ - داخِلَ قَبْوِ فُرْنِهِما. وَفُرْنُ مرادو فُرْنٌ غريبٌ، داخِلَ قَبْوٍ يَعْلوهُ دُكّانُهُ، وَبَيْتُهُ ٱلإسْمَنْتِيُّ ٱلأَكْثَرُ بِدائِيَّةً في هَنْدَسَتِهِ وَسَطَ هذا ٱلعَصْرِ. بَيْتٌ ذو قُنٍّ، في داخِلِهِ، لِلدَّجاجاتِ. تَبيضُ في الصُّحونِ، وَعلى ٱلأَسِرَّةِ، وَتَأْكُلُ مِمّا تأكُلُهُ ٱلعائِلَةُ. وَٱلقَبْوُ مُقَسَّمٌ إلى رَدْهَتَيْنِ، إحْداهُما لِلْفُرْنِ وَلِلْمَعْجَنِ الطَّويلِ كَمَغْطَسِ ٱلحَمّامِ، وَٱلثّانِيَةُ مَلأى بِدَقيقِ ٱلكِلْسِ يَبيعُهُ مرادو. وَثمَّتَ مَدْخَلٌ مَفْتوحٌ يَصِلُ الرَّدْهَتَيْنِ، فَتَأْتي الدَّجاجاتُ مِنْ جِهَةِ ٱلبَيْتِ، وَتَنْزِلُ الدَّرَجَ ٱلعَريضَ إلى رَدْهَةِ ٱلكِلْسِ، ثُمَّ تَعْبُرُها إلى رَدْهَةِ ٱلفُرْنِ، فَتَصْعَدُ إلى حافَّةِ مَغْطَسِ ٱلعَجينِ. تَأْكُلُ حتّى الشَّبَعِ، وَتُكْمِلُ دائِرَةَ نُزْهَتِها فَتَخْرُجُ، بَعْدَ قَفْزَتَيْنِ على الدَّرَجاتِ ٱلوَطيئَةِ، مِنَ ٱلبَوّابَةِ الضَّيِّقَةِ ٱلَّتي يَدْخُلُ مِنْها الزَّبائِنُ لِشِراءِ ٱلخُبْزِ. وإذْ تَجِدُ نَفْسَها على الطَّريقِ ٱلعامِّ تَمْضي في شِبْهِ قَوْسٍ إلى باحَةِ ٱلبَيْتِ، وَمِنْ ثَمَّ تُكْمِلُ النُّزْهَةَ الدّائِرِيَّةَ، مِنْ جَديدٍ، عَبْرَ مَدْخَلَيِ ٱلقَبْوِ. هذا دَأْبُها. أمّا ٱلقَبْوُ فَيَخْتَلِطُ فيهِ دَقيقُ ٱلكِلْسِ بالطَّحينِ، وَٱلأَرْغِفَةُ ٱلبائِتَةُ بٱلأَرْغِفَةِ الطّازَجَةِ، والسَّحالي الصَّغيرَةُ بٱلفِئْرانِ ٱلَّتي تَضِلُّ طَريقَها، أحْياناً، فَتَدْخُلُ «بَيْتَ النّارِ»، وَمِنْ ثَمَّ تَنْفَجِرُ كٱلمُفَرْقَعاتِ.

لَقَدِ ٱسْتَنْفَدَتْ شُرْطَةُ ٱلبَلَدِيَّةِ دَفاتِرَها ٱلَّتي تُدَوِّنُ عَلَيْها مَحاضِرَ ضَبْطٍ، فَطَلَبَتِ ٱلبَلَدِيَّةُ دفاتِرَ مِنَ ٱلعاصِمَةِ فٱسْتَنْفَدَتْها الشُّرْطَةُ، بِدَوْرِها، على بابِ فُرْنِ مرادو. وحينَ لَمْ تَجِدْ وَرَقاً، دَوَّنَتِ ٱلمحاضِرَ على قِطَعٍ مِنْ حِجارَةِ ٱلباطونِ، وعلى خَشَبِ صناديقِ ٱلبَنَدورَةِ، وعلى تَرْقُواتِ ٱلبَقَرِ ٱلمَذْبوحِ. وأخيراً، صَرَفَتِ الشُّرْطَةُ النَّظَرَ عَنِ ٱلأَمْرِ كُلِّهِ، وَبَقِيَ فُرْنُ مرادو أميرَ أفْرانِ ٱلحَيِّ ٱلغَرْبيِّ ٱلَّذي لا فُرْنَ آخَرَ فيهِ.

كانَ فُرْنُ مرادو مَلاذَنا في ذلِكَ ٱلعُمْرِ ٱلعابِقِ بِتَفَتُّحاتٍ مِثْلَ زَهْرِ ٱلبامِيَةِ. نَجْلِسُ على مِخَدَّةٍ مِنَ ٱلقَشِّ في رَدْهَةِ ٱلكِلْسِ، وَنَتبارى في نَفْثِ الدُّخانِ مِنْ أُنوفِنا، أوْ نَقومُ بِحَرَكاتٍ بَهْلوانيَّةٍ على حافَّةِ مَغْطَسِ ٱلعَجينِ، وَقَدْ سَقَطتُ فيه مِراراً، وَنَهَضْتُ كَرَجُلِ ثُلوجٍ، أبْيَضَ مِنَ الرَّأْسِ حتّى ٱلقَدَمَيْنِ. لكنْ، أكْثَرُ ما شدَّنا في ذلِكَ ٱلقَبْوِ هي مَجَلّاتُ ٱلأَطْفالِ، وَقِصَصُ ٱلمُغامَراتِ، فَٱبْنا مرادو شَغِفان بِجَمْعِها، وَيَمْلِكانِ أنْ يَسْرِقا مِنْ دَخْلِ ٱلفُرْنِ ما يَشْتَرِيانِ بِهِ أشْياءَ لا نَمْلِكُ أنْ نَشْتَرِيَها. إنَّهُما سَيِّدا ٱلفُرْنِ، يُديرانِهِ بِنَفْسَيْهِما. يَقِفُ بشيرو ذو ٱلعَضَلاتِ أمامَ ٱلفُوَّهَةِ ٱللَّهَبِيَّةِ، وفي يَدَيْهِ لَوْحٌ خَشَبِيٌّ يَنْتَهي بِمِقْبَضٍ طَويلٍ، بَيْنَما يُرَقِّقُ حسينو

قِطَعَ ٱلعَجينِ، وَيَدْهَنُها بالرَّوْبَةِ لِتَخْرُجَ الرَّقائِقُ، مِنْ ثَمَّ، أرْغِفَةً حَمْراءَ. وَيَتَناوَبُ الشّابّانِ ٱلبَيْعَ، وفي كُلِّ نَوْبَةٍ يَكونُ أحَدُهُما قَدْ دَسَّ في حِذائِهِ بِضْعَ وَرَقاتٍ نَقْدِيَّةٍ.

لَقَدْ كَشَفَ لنا حسينو ذاتَ يَوْمٍ، سِرَّ ٱلـمُغَلَّفاتِ ٱلـمُغْلَقَةِ ٱلَّتي ٱشْتَرَيْناها لَهُ مِنْ بغدي الأحْدَب. وكانَ لحسينو صُنْدوقٌ مِنْ خَشَبٍ مَتينٍ، وَعَلَيْهِ قُفْلٌ ذو أرْقامٍ لا يَعْرِفُ فَكَّ لُغْزِها إلّا هُوَ. صُنْدوقٌ مَليءٌ بِما يَشْتَهيهِ صِبْيَةٌ مِثْلُنا: قِصَصٌ وَمَجَلّاتٌ مُصَوَّرَةٌ. كاميرا، زُجاجاتٌ مُكَبِّرَةٌ، ثَوْبُ سِباحَةٍ مُدْهِشٌ، كاسْكيت، صُوَرُ مُمَثِّلينَ وَمُمَثِّلاتٍ، مُكَعَّباتُ زَهْرٍ، أوْراقُ لَعِبٍ بْلاستيكيَّةٌ، أمتارٌ مِنْ أشْرِطَةٍ سِيْنَمائِيَّةٍ مَسْروقَةٌ، أقفالٌ خاصَّةٌ، أقْلامٌ عَلَيْها صُوَرُ راقِصاتٍ، بِرْيانتينُ للشَّعْرِ، خِنْجَرٌ نُحاسيٌّ، وَرَقٌ مُلَوَّنٌ لِكتابَةِ الرَّسائِلِ، قُفّازاتٌ جِلْديَّةٌ، أحْزِمَةٌ مُزَخْرَفَةٌ، عُلَبُ تَبْغٍ تُرْكِيٍّ. غَلْيونٌ، أنْيابُ ذِئْبٍ، عَلّاقاتُ مَفاتيحَ مِنَ ٱلـخَرَزِ يَصْنَعُها ٱلـمَسْجونونَ عادَةً، نَظّاراتٌ شَمْسِيَّةٌ ذاتُ عَدَساتٍ مُقَعَّرَةٍ... إلخ... إلخ، إضافَةً إلى ٱلـمُغَلَّفاتِ ٱلـمُغْلَقَةِ. وَقَدْ فَتَحَها حسينو أمامَ أنْظارِنا، فكانت مَلأى بِصُوَرٍ عارِيَةٍ تَماماً: عاناتٌ وأثْداءٌ، وَمُؤَخَّراتٌ لِنِساءٍ لو رآهُنَّ الشِّمالُ لَسَقَطَ

مَغْشِيّاً عَلَيْه. «يا أَللَّهُ. ما هَذا حسينو؟»، وَيَتَلَمَّظُ حسينو، ثُمَّ يُمَرِّرُ لسانَهُ على شَفَتَيْهِ، هامِساً في خُبْثٍ مَرِحٍ: «سأُعيرُكُم بَعْضَها إذا أَقْسَمْتُمْ على إعادَتِها سالِمَةً». وَنَتَساءَلُ في دَهَشٍ: «ولِماذا نَسْتَعيرُها حسينو؟ سَيَقْتُلونَنا، في آلبَيْتِ، إذا ضَبَطوها مَعَنا». وبالطَّبْعِ يَفْهَمُ حَسينو سَبَبَ رَفْضِنا للاَسْتِعارَةِ النَّفيسَةِ تِلْكَ: «لا بأسَ. سَتَسْتَجْدونَها مِنّي بَعْدَ سَنَة»، وَقَدِ آسْتَجْدَيْناها، حَقّاً، بَعْدَ سَنَةٍ، فَتَمَنَّعَ حسينو كثيراً قَبْلَ أنْ يُعيرَها لنا.

بَيْدَ أَنَّنا لَمْ نَشَأْ كَثيراً أَنْ نَكونَ مِلْكَ مِزاجِهِ، فَنَحْنُ نَعْرِفُ الطَّريقَ إلى دُكّان بغدي آلأحْدَبِ، وإمّا تَوافَرَتْ نُقودٌ ذَهَبْنا إليهِ: «أَلَدَيْكَ شَيْءٌ بغدي؟»، وَيَغْمِزُ بغدي: «آدْخلوا»، ثُمَّ يَرْفَعُ أكْواماً مِنَ آلـمَلابِسِ آلـمُتَّسِخَةِ عَنْ صُنْدوقٍ صَدِىءٍ. يَسْحَبُ جَوارِيرَهُ وَيُعْطينا صُوَراً قَليلَةً مُقابِلَ نُقودِنا آلقَليلَةِ. «هذهِ لَيْسَتْ حُلْوَةً يا بغدي. آسْتَبْدِلْها»، وَيَنْظُرُ إلَيْنا بغدي في نَفادِ صَبْرٍ: «لا أَسْتَبْدِلُ ما أبيعُهُ. هَيّا». وَنَقْبَلُ بآلأمْرِ على مَضَضٍ.

غَيْرَ أنَّ الصُّوَرَ جَميلةٌ، وَتَسْتَدْرِجُنا إلى أَكْثَرِ آلأماكِنِ عُزْلَةً لِتَمْتَحِنَ صِبانا. يا لَبغدي آلأحْدبِ. رابِضٌ في جُحْرِهِ وَعَلَيْهِ مَيْدَعَةٌ كَمَيْدَعَةِ آلـحَدّاد، صَفْراءُ مُبَقَّعَةٌ بآلـحُروقِ، بِفِعْلِ وَهْجِ

مِكْواتِهِ الضَّخْمَةِ ٱلمَلأى بِفَحْمٍ مُشْتَعِلٍ. فبغدي كَوّاء. مُعَلِّمٌ في مِهْنَتِهِ، يَضْغَطُ على ٱلمِكْواةِ بِيَدِهِ النَّحيلَةِ فَتَسْتَحيلُ طيّاتُ ٱلبَناطيلِ إلى شَفَراتٍ. عَلَيْهِ أنْ يَضْغَطَ إلى ما لا نِهايَةَ، لِيَحْتَفِظَ الزَّبائِنُ بِرَوْنَقِ ثِيابِهِم أطْوَلَ وَقْتٍ مُمْكِنٍ. عَلَيْهِ أنْ يَضْغَطَ بِثِقْلِ حِرْدَبَّتِهِ كُلِّها. إضْغَطْ، إضْغَطْ يا بغدي، فَزَبائِنُكَ لَيْسوا في يُسْرٍ يُمَكِّنُهُم مِنْ إرْسالِ ثِيابِهِم إلى ٱلكَيِّ كُلَّ أسْبوعٍ. إضْغَطْ يا بغدي، فَثَمَّتَ مَنْ يَنْتَظِرُ بنْطالَهُ ٱلوَحيدَ بِسِرْوالِهِ الدّاخِليِّ في ٱلبَيْتِ. إضْغَطْ حتّى تَلْتَصِقَ مِكْواتُكَ بأعْمَقِ أعْماقِ ٱلجَحيم. إضْغَطْ طَويلاً، لِتَبْقى حِرْدَبَّتُكَ في ٱلمُسْتَوى ٱلهُلاميِّ لِلْحياةِ. إضْغَطْ يا حارِسَ ٱلفَحْمِ وَشراراتِهِ ٱلأُنْثَوِيَّةِ. إضْغَطْ. إضْغَطْ.

لكنَّ لبغدي مِهْنَةً أُخْرى أيْضاً، مِهْنَةَ رَهْنِ ٱلمُناسباتِ ٱلوَطَنِيَّةَ، وما أكْثَرَ المُناسَباتِ ٱلوَطَنِيَّةَ في الشِّمالِ: أعْيادٌ لِلْهزائِمِ، أعْيادٌ للاَنْتِصاراتِ، أعْيادٌ لِحُروبٍ وَقَعَتْ، وأُخْرى لَمْ تَقَعْ. أعيادٌ لِشُهداءَ ما يَزالُ بَعْضُهُم أحْياءً مَنْسِيّينَ. أعيادٌ لِمَجيءِ «الاَنْتِهازيّينَ»، أعْيادٌ لِذَهابِ «الاَنْتِهازيّينَ». أعيادٌ لِلشَّجَرِ يَخْلَعونَ فيها الشَّجَرَ لِنَصْبِ ٱلأقْواسِ. أعْيادٌ لإبْرامِ ٱلمُعاهَداتِ وَأعْيادٌ لِنَقْضِ ٱلمُعاهَداتِ ذاتِها. أعْيادٌ للأُمَّهاتِ مَعَ

وَعْظٍ كَثيرٍ بِضَرورَةِ شِراءِ هَدايا لا نَمْلِكُ ثَمَنَها. أعْيادٌ لِمُعَلِّمينَ بَليدينَ لا يَعْرِفونَ غَيْرَ آخْتيارِ ٱلعِصِيِّ الصَّلْبَةِ. أعيادٌ لا مُناسباتِ لها، نُضَيِّعُ فيها حَقائِبَنا ٱلمَدْرَسِيَّةَ مِنْ كَثْرَةِ الرَّكْضِ وراءَ مُعَلِّمينَ يَزْدادُ وَهْجُ حَناجِرِهِم كُلَّما ٱقْتَرَبوا مِنَ السَّراي. أعْيادٌ لِلأعيادِ، وَمُناسباتٌ لِلْمُناسَباتِ. وفي كُلِّ هذهِ التَّعاقُباتِ ٱلمُتَّصِلَةِ يُقَدِّمُ بغدي وَصْلَةً مَسْرَحِيَّةً، بِمُساعَدَةِ شَريكِهِ إبراهيمَ، بائِعِ النُّقْلِ، (أي بائِعِ بذورِ ٱلبَطّيخِ، وَفُسْتُقِ ٱلعَبيدِ، وَٱلفُسْتُقِ ٱلحَلَبِيِّ، وَٱلحُمُّصِ، وٱلبُنْدُقِ، إلخ). وإبْراهيمُ يَقِفُ بِعَرَبَتِهِ ٱلمُزَرْكَشَةِ ذاتِ ٱلعَجَلَتَيْنِ أمامَ دُكّانِ بغدي مُعْظَمَ أحْيانِ النَّهارِ، كأنَّما يَتَداوَلانِ، أبَداً، في مَسْرَحِهِما ٱلَّذي لا يَتَعَدّى دَوْرَيْنِ: دَوْرِ ٱلمُسْتَعْمِرِ، وَهُوَ لِلأحْدَبِ؛ وٱلمُناضِلِ، وَهُوَ لِبائِعِ النُّقْلِ. إنَّهُما يَحْفَظانِ دَوْرَيْهِما ٱلأبَدِيَّيْنِ عَنْ ظَهْرِ قَلْبٍ، لكِنَّهُما يَتَجادَلانِ في التَّفاصيلِ. يَقولُ إبراهيمُ: «سَنُدْخِلُ بَعْضَ ٱلكومپارس في مَسْرَحِيَّتِنا، مِنْ تَلامِذَةِ ٱلمَدارِسِ». وَيَرُدُّ ٱلأحْدَبُ: «نَحْنُ نَكْفي يا برو. أسْتَطيعُ أنْ أُؤَدّيَ دَوْرَ ٱلكومپارس أيْضاً». يَقولُ إبراهيمُ: «أنْتَ واحِدٌ، نُريدُ عَشَرَةً»، وَيَرُدُّ ٱلأحْدَبُ: «أنا مِثْلُ عَشَرَةٍ، وأكْثَرُ». يَقولُ إبراهيمُ: «نُريدُ

مَجْموعَةً لِتُنْشِدَ النَّشيدَ ٱلوَطَنِيَّ بَعْدَ شَنْقِكَ على خَشَبَةِ ٱلمَسْرَحِ»، وَيَرُدُّ ٱلأَحْدَبُ: «سَنَجْلُبُ مُسَجِّلَةً». يَقولُ إبراهيمُ: «سَيَحْمِلونَ أعْلاماً وَرَقِيَّةً يُلَوِّحونَ بِها». وَيَرُدُّ ٱلأَحْدَبُ: «فَنُعَلِّقُ ٱلأعْلامَ على حَبْلٍ طَويلٍ، وفي ٱلمَشْهَدِ ٱلخِتامِيِّ نَفْتَحُ ٱلمِرْوَحَةَ ٱلكَهْرَبائِيَّةَ في ٱتِّجاهِها». يَقولُ إبراهيمُ: «أيُّها ٱلأَحْمَقُ، نَسْتَطيعُ أنْ نَسْتَدْرِجَ بَعْضَ ٱلفَتَياتِ ككومپارس، وهذا يُفيدُنا على...». وَيَصْمُتُ ٱلأَحْدَبُ مُفَكِّراً بِعُمْقٍ، ثُمَّ يَميلُ بِعُنُقِهِ ٱلغائِصَةِ في ٱلحِرْدَبَّةِ، مُتَسائِلاً: «وَماذا أَسْتَفيدُ مِنْ ذلِكَ يا برو؟»، وَيَعْيا إبْراهيمُ عَنِ ٱلإجابَةِ، ناظِراً إلى حِرْدَبَّتِهِ في إشْفاقٍ، ثُمَّ يَعودُ ٱلجَدَلُ مِنْ حَيْثُ بَدَأَ. لكِنَّهُما يَصْعَدانِ إلى ٱلخَشَبَةِ أخيراً، حينَ تَأْتي مُناسَبَةُ الصُّعودِ إلى ٱلخَشَبَةِ، في مَدْرَسَةٍ أو في صَالَةِ سينما، وَيَبْدَأُ ٱلمَشْهَدُ ٱلأزَلِيُّ: يُطِلُّ بائِعُ النُّقْلِ على ٱلجُمْهورِ هاتِفاً: «يَحْيا ٱلوَطَنُ» فَتَتَضَرَّجُ ٱلجُدْرانُ بالتَّصْفيقِ. ثُمَّ يَدْخُلُ ٱلأَحْدَبُ في ثَوْبِ ضابِطٍ أجْنَبِيٍّ، فَتَتَضَرَّجُ ٱلجُدْرانُ بالصَّفيرِ. يَجْلِسُ الضّابِطُ ٱلأَحْدَبُ على كُرْسِيِّهِ في طَريقَةٍ تَهْريجيَّةٍ وَيَصْرُخُ: «هاتوا بٱلمَلْعونِ. هاتوا بِهذا ٱلعَرَبيِّ»، وَيَأْتي بائِعُ النُّقْلِ ٱلمُناضِلُ وَحْدَهُ، بالطَّبْعِ، مِنْ دونِ أنْ يَجيءَ بِهِ أَحَدٌ. يَقِفُ

أمامَهُ، ثُمَّ يَرْفَعُ رَأْسَهُ في آعْتِزازٍ وَثِقَةٍ، صارِخاً بِدَوْرِهِ: «يَجِبُ أنْ تَرْحَلوا. أرْضُ العَرَبِ لِلْعَرَبِ. سَنُقاوِمُ حتّى آخِرِ طِفْلٍ». يَعْلو التَّصْفيقُ، وَتَتَكَسَّرُ الكراسي تَحْتَ الحُضورِ. وإذْ يَهْدَأُ الضَّجيجُ، يُشيرُ الأحْدَبُ بِإصْبَعِهِ في آتِّجاهِ بائِعِ النُّقْلِ: «خُذوووه»... وَلَيْسَ هُناكَ مِنْ أحَدٍ لِيَأْخُذَ إبراهيمَ، بَلْ يَسْتَديرُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِهِ، وَيَمْضي إلى ما وَراءَ السِّتارَةِ في خُطىً واثِقَةٍ.

... وَنَحْسُدُ إبْراهيمَ على مَوْهِبَتِهِ، بَلْ يَحْسُدُهُ الكِبارُ أكْثَرَ مِنّا. فَبائِعُ النُّقْلِ، بَيْنَ المُناسَبَةِ وَأُخْتِها، سَيِّدُ الشّارِعِ، تُشيرُ إليه فَتَياتُ المَدارِسِ، وَتَتَهافَتْنَ عَلَيْهِ لِشِراءِ حَفْناتٍ مِنْ بِزْرِ البَطّيخِ، ناظِراتٍ إلَيْهِ بِطَرَفِ أعْيُنِهِنَّ في خَفَرٍ. أمّا الأحْدَبُ فَيَرْجِعُ إلى جُحْرِهِ، يَبيعُنا الصُّوَرَ العارِيَةَ، وَيَضْغَطُ بِمِكْواتِهِ الجَحيميَّةِ على الهَباءِ، بَيْنَما يَتَوَهَّجُ نَيْزَكٌ مِنَ النَّيازِكِ، الَّتي آنْفَصَلَتْ عَنِ الأرْضِ في نَشْأَتِها الأولى، بَيْنَ كَتِفَيْهِ العارِيَتَيْنِ.

«يا لِلسِّرِّ الهَشِّ» نَهْمِسُ لأنْفُسِنا. يا لِمُغَلَّفِ آبْنَيْ مرادو. أهذا كُلُّ شَيْءٍ يا بَشيرو؟ أهذا كُلُّ شَيْءٍ يا حسينو؟ لا. إنَّهُما يُرِيانِنا أشْياءَ أشَدَّ صَعْقاً. لَقَدْ كُنّا أباطِرَةً على مَمالِكَ مِنَ النِّساءِ العارِياتِ فَحَسْبُ، لكنَّ مَمالِكَنا تَنْهارُ أمامَ صُوَرٍ لِرِجالٍ وَنِساءٍ

في عُزْيِهِما ٱلأَكْبَرِ، ٱلعُزْيِ ٱلقَنّاصِ، ٱلَّذي تَتَشابَكُ فيه ٱلأَعْضاءُ كما تَتَشابَكُ ٱلأَيْدي في التَّحِيَّةِ، وَتَلْتَحِمُ في ضَراوَةٍ لا مَهْزومَ فيها إلّا ٱلوَقْتُ.

هَنيئاً لَهُما. هَنيئاً لِمَساءاتِهِما في ٱلقَبْوِ، يُشْعِلانِ لِلأَصْدِقاءِ سِراجَ ٱلكازِ فَيَلْعَبون بٱلوَرَقِ حتّى ٱلفَجْرِ، وإِذْ يَنْتَهونَ ـ لا لأَنَّهُم ٱنْتَهَوْا مِنَ ٱللَّعِبِ، بَلْ لأَنَّ مرادو سَيَسْتَيْقِظُ لِصَلاةِ ٱلفَجْرِ ـ يَنْفَحونَنا ليرَتَيْنِ، لأَنَّنا سَهِرْنا حَرَساً على دَرَجِ ٱلمَدْخَلِ حتّى لا يَفْجَؤُهُم أَحَدٌ. لكنَّنا لَمْ نَكُنْ نَسْلَمُ دائِماً مِنَ ٱلمُفاجَأَةِ. فَجَدَّتُهُما السّاهِرَةُ أَبَداً، ذاتُ ٱلمائَةِ وٱلعِشْرينَ عاماً، تَتَفَقَّدُ ساحَةَ ٱلبَيْتِ شِبْراً شِبْراً بِعَصاها ذاتِ الرَّنينِ ٱلأَجْوَفِ. عَمْياءُ كالظَّلامِ. تَعْرِفُ دَجاجاتِها واحِدَةً واحِدَةً، وكَذلِكَ ٱلأَدْراجَ ٱلَّتي تَقودُ إلى ٱلقَبْوِ، وَمخارِجَهُ. لَقَدْ تَساوى ٱللَّيْلُ عِنْدَها بالنَّهارِ. تَبْدأُ جَوْلَتَها ٱلمُعْتادَةَ كُلَّما أفاقَتْ مِنْ نَوْمِها ٱلَّذي لا يُشْبِهُ النَّوْمَ. فَهِيَ تَغْفو واقِفَةً، أو جالِسَةً، أو مُتَّكِئَةً عَلى حائِطٍ. لا زَمَنَ لَها. تَتَقَرّى بِعَصاها السَّماءَ كَما تَتَقَرّى ٱلأَرْضَ، وَتَكْرَهُ ٱلغُرَباءَ الصِّغارَ ٱلَّذين يُعاشِرونَ أَحْفادَها، وأَبْناءَ أَحْفادِها. وَحْدَهَا، هذهِ ٱلعَمْياءُ ٱلمُوحِشَةُ، كانَتْ تَضْبُطُنا في لَيالي ٱلقَبْوِ

بَعْضَ ٱلأحيانِ. تَقِفُ على أوَّلِ الدَّرَجِ وَتَهْتِفُ بِصَوْتِها ٱلمُتَهَدِّجِ ٱلمُتْعَبِ: «مَنْ هُناكَ؟». إذْ ذاكَ نَتَحَوَّلُ إلى تَماثيلَ مِنَ الظَّلامِ وَٱلكِلْسِ، وَنَحْبِسُ أنْفاسَنا. غَيْرَ أنَّها لا تُصَدِّقُ السُّكونَ الثَّقيلَ: «أسْمَعُ نَبْضَ قُلوبِكُم يا أوْلادَ الشَّيْطانِ»، وَتَنْزِلُ الدَّرَجَ، يَسْبِقُها نَقْرُ الدَّليلِ ٱلخَشَبِيِّ على الإسْمَنْتِ. نَسْتَغِلُّ ضَوْضاءَ ٱلعصا فَنَتَسَلَّقُ سُدَّةً تَعْلو بَيْتَ النّارِ مُباشَرَةً، وَبِرُغْمِ أنْ لا نارَ في ٱلفُرْنِ يَظَلُّ مَزيجُ ٱلحَصى وَٱلمِلْحِ مُلْتَهِباً على السُّدَّةِ، وَهُوَ مَزيجٌ يَضَعونَهُ هُناكَ لاَمْتِصاصِ وَهْجِ النّارِ تَحْتَ أرْضِيَّةِ ٱلبَيْتِ والدُّكّانِ. «يا للسَّمٰواتِ» نَهْتِفُ في أعْماقِنا، وَنَشُمُّ نَشيشَ أحْذِيَتِنا ٱلبلاستيكيَّةِ وَهِيَ تُشْوى في بُطْءٍ.

«ٱخْرُجي» تَجْأَرُ أقْدامُنا. «ٱخْرُجي، باللّٰهِ عَلَيْكِ، يا سَليلَةَ ٱلبِغالِ»، لكنَّ ٱلعَمْياءَ تَتَقَرّى الزَّوايا على مَهَلٍ. تَتَقَرّى كَوْمَةَ ٱلكِلْسِ: «أسْمَعُ نَبْضَ قُلوبِكُم يا رُؤوسَ ٱلبَطّيخِ».

«أووه حسينو، لَنْ تَخْرُجَ جَدَّتُكَ. أووه. ذابَتْ مُؤَخَّراتُنا». وَيُتَمْتِمُ حسينو: «ٱنْتَظِروا قَليلاً». وَنَنْتَظِرُ، مُسْتَندينَ على أقْدامِنا ٱليُسْرى مَرَّةً، وعلى ٱليُمْنى مَرَّةً ثانِيَةً، كما يَفْعَلُ ٱللَّقْلَقُ. وأخيراً تَخْرُجُ ٱلعَمْياءُ مُتَوَعِّدَةً: «سَأَنْتَظِرُكُم في أعْلى الدَّرَجِ.

سَأَنْتَظِرُكم سَنَةً في أعْلى الدَّرَجِ. لا بُدَّ أنْ تَخْرُجوا... ها؟»، ثُمَّ تَمْضي لِتَجْلِسَ في أعْلى الدَّرَجِ، شَبَحاً يَحْرُسُ ٱلكُنوزَ ٱلكِلْسِيَّةَ، وَٱلعَجينَ، وَٱللَّهَبَ ٱلَّذي ٱسْتَقَرَّ في مَزيجِ ٱلمِلْحِ وَٱلحَصى تَحْتَ مُؤَخَّراتِنا.

«أووه حسينو، لَمْ نَعُدْ نُطيقُ ٱلبَقاءَ»، وَيَهْبِطُ حسينو السُّدَّةَ لِيَفْتَحَ لنا بَوّابَةَ ٱلفُرْنِ، وإذْ تُحِسُّ ٱلجَدَّةُ بِٱلجَلَبَةِ، وَوَقْعِ ٱلأَقْدامِ ٱلهارِبَةِ، نكونُ قَدْ بَلَغْنا الشّارِعَ ٱلعامَّ، أو ٱمْتَصَّتْنا ٱلبُيوتُ.

وفي الصَّباحاتِ ٱلَّتي تَتْلو مُفاجآتٍ لَيْلِيَّةً كَهذِهِ، تُقْسِمُ ٱلعَمْياءُ للرّائِحِ وَٱلغادي أنَّ هُنالِكَ لُصوصاً يَسْتَكْشِفونَ ٱلمَنْزِلَ وَٱلفُرْنَ، وَهَيْهاتِ يُصَدِّقُها أحَدٌ، ففي كُلِّ صَباحٍ لَدَيْها خَبَرٌ عَنْ راصِدينَ يَرْصُدونَ مَمْلَكَتَها ٱلعارِيَةَ، وَعَنْ غُزاةٍ يُغيرونَ على الدَّجاجاتِ وَٱلبَيْضِ، لكنْ لَمْ يَحْصُلْ أنْ غابَتْ دجاجَةٌ قَطُّ، أو ٱخْتَفَتْ بَيْضَةٌ مِنْ صُنْدوقِ ٱلبَيْتِ ٱلمُغْلَقِ.

كَثيرونَ مِثْلَ جَدَّةِ حسينو ٱلعَمْياءِ يَحْرُسونَ مَمالِكَهُم. كثيرونَ هُمْ حَرَسُ ٱلهَباءِ وَأشْيائِهِ السّاحِرَةِ. لا، إنَّني أنْتَقِصُ مِنَ ٱلأمْرِ، فَٱلواضِحُ ـ يَقيناً ـ أنَّ كُلَّ شماليٍّ لَدَيْهِ ما يَحْرُسُهُ. إنَّهم حَرَسٌ أبَدِيّونَ ٱئْتَمَنَتْهُم أشْباحُ أعْماقِهِم على السّيرَةِ ٱلخَفِيَّةِ

لِلأرْضِ، تِلْكَ السّيَرةِ ٱلَّتي لا مَكانَ لِتَعاقُبِ ٱلحُكوماتِ فيها. لا مَكانَ لِقانونٍ، أو نِظامٍ، أو عَلاقَةٍ ٱجْتِماعيَّةٍ. لا مَكانَ إلّا لِلْهاجِسِ، أو لِلدَّليلِ ٱلخَفِيِّ ٱلَّذي يَقِفُ مُشيراً بِكُلِّ يَدٍ إلى جِهَةٍ، فَيَتْبَعُ نِصْفُ أعْماقِكَ إشارةَ يَدِهِ ٱليُمْنى، وَنِصْفُ أعْماقِكَ إشارَةَ يَدِهِ ٱليُسْرى، وَتَبْقى أنْتَ، في مكانِكِ ذاتِهِ، أعْمى، لا تَعْرِفُ غَيْرَ الرّيحِ ٱلَّتي تُداعِبُ غُرَّتَكَ الطَّويلَةَ.

حَرَسٌ يَنْتَظِرونَ مَواثيقَ الرّوحِ ٱلمَكْتوبَةَ، لكنْ لا وَرَقَ لِلرّوحِ، ولا مَحْبَرَةَ. حَرَسُ ٱنْتِظارٍ، وَهُمْ مُؤْتَمَنونَ على ٱنْتِظارِهِم. حُلَفاءُ ٱلمِياهِ وَٱلغُبارِ. حُلَفاءُ السَّنابِلِ، وَمُنَظِّرو الشُّعاعاتِ. آ آ آ ه.

بليرو يَحْرُسُ جِسْرَيِ ٱلمَدينَةِ، مُتَنَقِّلاً بَيْنَهُما. هكذا، قَرَّرَ وَحْدَهُ أنْ يَكونَ حارِسَ ٱلجُسورِ. يُوقِفُ الشّاحناتِ وَيَصْرُخُ: «حِمْلُكُم ثَقيلٌ»، فَيُناوِلونَهُ تُفّاحَةً، أو عُنْقودَ عِنَبٍ، فَيَتَنَحّى: «لَقَدْ خَفَّ ٱلحِمْلُ. اللَّهُ مَعَكُم». يُوقِفُ ٱلعابِرينَ: «لا تَمْشوا على كُعوبِكُم. الرَّنينُ يُضِرُّ بِٱلجِسْرِ»، وَيَمْشي ٱلعابِرونَ على أمْشاطِ أحْذِيَتِهِم تَكْريماً لِلْكَهْلِ الضّائِعِ في حُبِّهِ ٱلغَريبِ، فَيَبْتَهِجُ.

وسيڤي حارِسَةُ ٱلجَداوِلِ ٱلوَهْمِيَّة. تَمْشي وَسَطَ الإسْفَلْتِ، وَفَجْأَةً تُشَمِّرُ عَنْ ساقَيْها وَتَقْفِزُ. وَتَفْعَلُ ٱلأمْرَ ذاتَهُ أمامَ عَتَباتِ ٱلبُيوتِ، وَالدَّكاكينِ، وَمَدْخَلِ ٱلحَديقَةِ ٱلعامَّةِ، وساحَةِ «السَّبْع بَحْرات». ثَمَّتَ جَدْوَلٌ في طَريقِها بَعْدَ كُلِّ خُطْوَتَيْنِ. ثَمَّتَ جَدْوَلٌ لا يَراهُ أحَدٌ. جَداوِلُ في الإسْفَلْتِ، وَفي ٱلجُدْرانِ، وَفي ٱلهَواءِ، وسيڤي تَقْفِزُ مِنْ فَوْقِها، لا تُعَكِّرُ مِياهَها قَطُّ، ولا تُقْلِقُ الطّينَ.

عبّاسي قزو يَنْقُلُ في حِزامِهِ، أبَداً، خَطّافَ ٱلعَتّالِ. خطّافٌ ذو مِقْبَضٍ مَلْفوفٍ بِسُيورٍ جِلْدِيَّةٍ مُلَوَّنَةٍ، وَبِشَرّاباتٍ تَتَدَلّى مِنْهُ. وَحَيْثُما مَرَّ فَفي طَريقِهِ أكْياسُ قَمْحٍ لا تُرى. يَقِفُ مُسْتَلّاً خَطّافَهُ، ثُمَّ يَنْحَني كأنَّما يَرْفَعُ كيساً عَنِ ٱلأرْضِ، وَيَضَعُهُ فَوْقَ ظَهْرِهِ. يَمْضي خُطُواتٍ وَيُلْقي بٱلكيسِ على ٱلقارِعَةِ. إنَّه مُوكَلٌ بِرَفْعِ ٱلأكْياسِ عَنِ الطُّرُقِ. مُوكَلٌ إلى ما لا نِهايَةَ، يَتَسَلّى الأطْفالُ بِوَهْمِهِ، فَيُنادونَهُ: «عبّاسي، هَذا كيسٌ... هَذا كيسٌ»، وَيُشيرونَ إلى مَكانٍ لا كيسَ فيهِ، فَيَأْتي عَبّاسي لاهِثاً؛ يُهْوي بِخَطّافِهِ على ٱلهواءِ وَيَسْتَديرُ فَيَحْمِلُهُ إلى مَكانٍ أمينٍ.

داود كوت يَسوقُ أمامَهُ ـ حَيْثُما مَضى ـ قَطيعاً مِنَ ٱلغَنَمِ؛

قَطيعاً مِنْ صوفِ حِلْمِهِ. يَنُطُّ هُنا، وَيَنُطُّ هُناكَ. يُهَرْوِلُ، في سَيْرِهِ، وَيُبْطِىءُ. يَرْكُضُ وَراءَ كَبْشٍ شارِدٍ، أو خَروفٍ نَزِقٍ، وَيُعيدُهُ إلى السِّرْبِ. عَصاهُ مَرْفوعَةٌ أبَداً: «حاحا»، وبالطَّبْعِ لَيْسَ أمامَهُ مِنْ غَنَمٍ قَطُّ. إنَّه مُوكَلٌ - مِثْلُهُ مِثْلُ أبْناءِ نَوْعِهِ النُّورانيِّ - بِٱلحَيَواناتِ ٱلخَفِيَّةِ. لكِنَّ عَمَّنا الصّوفيَّ مُوكَلٌ بِسِجِلِّ «ٱلعلاماتِ ٱلكبيرةِ»، علاماتِ ٱلخَرابِ ٱلَّذي يُهَيِّئُهُ ٱلبَشَرُ السّاهونَ.

إسْمُهُ «الصّوفيُّ»، هكذا عَرَفْناهُ، وَنَسِينا ٱسْمَهُ ٱلحَقيقيَّ. لا تَعْتَريهِ حُمّى «ٱلعلاماتِ ٱلكبيرةِ» إلّا في الرَّبيعِ. لِثَلاثَةِ أشْهُرٍ في السَّنَةِ يَقْرَأُ السِّجِلَّ ٱلمَفْتوحَ وُسْعَ ٱلأُفُقِ. يَقْرَأُ ٱلحَيَواناتِ، وَخُطى ٱلبَشَرِ، وَٱلغُيومَ، وَمواعيدَ النَّجْمَةِ ٱلباكِيَةِ قُرْبَ نَجْمَةِ الصَّباحِ. «واكَبِدي». يَهْمِسُ لِنَفْسِهِ بِصَوْتٍ عالٍ. «واكَبِدي. خِرافُنا تَتَكَلَّمُ في ٱللَّيْلِ بِكلامِ ٱلإنْسانِ. تَظْهَرُ النَّجْمَةُ ٱلباكِيَةُ وَتَخْتَفي مِنْ غَيْرِ أنْ يَراها أحَدٌ. واكَبِدي. واكَبِدي. يَرْفَعُ الناسُ أكتافَهم اليُمنى وهُم يَمْشونَ. واكَبِدي. تَتَعَمَّدُ الدَّجاجاتُ أنْ تَضَعَ زَرْقَها على سجّادَةِ الصَّلاةِ. واكَبِدي. الصِّغارُ يَشْتُمونَ ٱللَّهَ، وٱلكِبارُ يُصَلّونَ مِنْ غَيْرِ وُضوءٍ. واكَبِدي. الإمامُ يُخْطِىء

في قِراءَةِ ٱلآياتِ. واكَبِدي. الغُيومُ تَتَشَكَّلُ على هَيْئَةِ كَلْبٍ...». هذهِ علاماتُهُ ٱلكَبيرَةُ؛ علاماتُ ٱلخَلْخَلَةِ والنَّفيرِ ٱلَّذي سَيَعْلو مِنْ جِهَةِ ٱلغَرْبِ فَتَتَراكَضُ ٱلقُبورُ، وَٱلأوْدِيَةُ، وَٱلبُيوتُ، والنَّباتاتُ، صَوْبَ ميزانٍ يَرْفَعُهُ مَلاكٌ واحِدٌ يَزِنُ بِهِ السَّمٰواتِ وَٱلأرْضَ كَما يَزِنُ ٱلبَقّالُ ٱلبَصَلَ. لِثَلاثَةِ أشْهُرٍ، فَقَطْ، يَفْتَحُ السِّجِلَّ وَيُحْصي كَمْ يُراكِمُ ٱلكائِنُ في مَساحَةِ مَوْتِهِ مِنْ عَذاباتٍ. وإذْ يَمْضي الرَّبيعُ يَرْجِعُ الصُّوفيُّ إلى ٱلأرْضِ، غَيْرَ ذاكِرٍ مِنْ سِجِلِّهِ إلّا نُثاراتٍ مُبْهَمَةٍ.

كانَتْ نَوْباتُ ٱلحُمّى الرَّبيعيَّةُ تُحيلُهُ كائِناً مُرّاً في عَلاقاتِهِ، مُمْتَلِئاً بِٱلمَرارَةِ، كأنَّما هُوَ النَّذيرُ ٱلمُخْتارُ لِشَعْبٍ لَمْ يَعُدْ يَلْتَفِتُ إلى ٱلمُنْذِرينَ. يَقْضي النَّهارَ بَيْنَ تُجّارِ السّوقِ، في ٱلبَلْدَةِ، وَبَيْنَ ٱلبَقّالينَ، ناصِحاً، مُتَوَعِّداً؛ بَلْ يَذْهَبُ بِهِ ٱلأمْرُ إلى ٱلوقوفِ أمامَ بابِ ٱلمَسْجِدِ، وإذ يُطِلُّ ٱلإمامُ يُمْسِكُ بِهِ مِنْ ذَيْلِ كُمِّهِ ٱلواسِعِ، آمِراً أنْ يُخَصِّصَ خُطْبَتَهُ عَنْ نِهايَةِ ٱلأرْضِ ٱلوَشيكَةِ، فَيَعِدُهُ ٱلإمامُ خَيْراً، وَيَنْسى. وفي ٱلمَساءِ يَرْجِعُ مَنْهوكاً، يائِساً مِنْ صَلاحِ ٱلأنْذالِ، فَيُقْعي لِيُجْهِشَ بِبُكاءٍ حامِضٍ، مُتَمْتِماً: «لا فائِدَةَ يا رَبّ، لا فائِدَةَ».

كُلُّهُم يَعْرِفونَ نَوْباتِ الصُّوفيِّ الرَّبيعيَّةَ، يُدارونَهُ كَثيراً، وَيُخَفِّفونَ عَنْهُ بِكَلامٍ وَدودٍ: «إصْبِرْ أيُّها الصُّوفيُّ، النّاسُ يُعيدونَ حِساباتِهِمُ ٱلآنَ، وَيَتَفَكَّرونَ فيما تَقولُ»، فَيُسَرّي ذلِكَ عَنْهُ قَليلاً. لكنَّهُ، في ٱلفُصولِ الثّلاثَةِ ٱلأُخْرى، داهِيَةٌ حقّاً، يُشْرِكُ ٱلكَثيرينَ في مَشاريعِهِ ٱلخاصَّةِ بِزِراعَةِ ٱلبَطّيخِ، أو زِراعَةِ ٱلعَدَسِ، وإذْ يُسَلِّمونَ إلَيْهِ أموالَهُم يَخْتَفي، عابِراً مِئاتِ ٱلقُرى، وَحَفْنَةً مِنَ ٱلبَلْداتِ، ثُمَّ يَرْجِعُ صِفْرَ ٱليَدَيْنِ، فَيُضطرُّ إخْوَتُهُ إلى تَمْوينِ عائِلَتِهِ بِمَؤونَةٍ مِنْ أكْياسِ ٱلقَمْحِ. وحينَ يُسائِلونَهُ أيْنَ كانَ، يَرُدُّ أنَّهُ مَضى لِمُحاجَجَةِ مُتَصَوِّفي ٱلقُرى في شُؤونِ الدّينِ. فَيَصْمُتُ السّائِلونَ أمامَ خِفَّتِهِ، وَطَرافَةِ مَنْطِقِهِ، على مَضَضٍ.

لَمْ يَكُنْ مازِحاً ذلِكَ ٱلحارِسُ الرَّبيعيُّ على سِجِلِّ ٱلقيامَةِ، ٱلَّذي تَرَكَ أمْرَ إعالَةِ أطْفالِهِ لِلآخَرينَ، وأمْضى سَنَواتِهِ بَيْنَ ٱلحُمّى وَبَيْنَ التَّجْوالِ. وَلَمْ يَكُنْ تَجْوالُهُ لِمُناظَرَةِ ٱلمُتَصَوِّفينَ كَما يَدَّعي، بَلْ لِلتَّعَرُّفِ عَلَيْهِم فَحَسْبُ. لَمْ يَبْقَ مَلّا، أوْ صُوفيٌّ، أو فَقيهٌ، أو عالِمٌ مِنَ ٱلعُلَماءِ ٱلَّذينَ قَرَأوا كِتابَيْنِ، إلّا عَرَفَهُم. تِلْكَ هِوايَتُهُ. وَلَمْ يَكُنْ يُطيلُ ٱلمُكوثَ عِنْدَ أحَدٍ. يَسْتَوْدِعُ مُضيفيهِ، في أبْعَدِ قَرْيَةٍ، للذَّهابِ إلى ٱلمَسْجِدِ، ولا

يَعودُ. يَقولُ: «التَّعَبُ نِعْمَةُ ٱلمُؤْمِنِ»، وَيَلْتَفِعُ بالظَّلامِ، وَبِهَذَيانِ الظَّلامِ.

لَقَدْ عَرَفَ ٱلجَميعَ. عَرَفَ ٱلأبْعَدينَ وٱلأقْربينَ. عَرَفَ مَسالِكَ ٱلقُرى ٱلخَفِيَّةَ وَٱلظّاهِرَةَ، وأشْكالَ مَساجِدِها الطّينيَّةِ واحِداً واحِداً، في مِساحَةٍ تَضُمُّ مَلْيونَ كائِنٍ، يَتَفَقَّدُهُم راجِلاً. وحينَ ٱهْتَدى إلى ٱلأبْجَدِيَّةِ ٱلعَريقَةِ لِأعماقِهِ الشّاسِعَةِ، وَجَدوهُ جالِساً في بِئْرِ مَنْزِلِهِ، ذاتَ فَجْرٍ، على عُمْقِ عِشرينَ مِتْراً، لا خَدْشَ في جَسَدِهِ، ولا أثَرَ لِسُقوطٍ؛ جالِساً كَجُلوسِهِ في مَساءاتِ ٱلحُمّى، حينَ يَرْجِعُ مُمْتَلِئاً بٱلمَرارَةِ وَيَبْكي... وكانَ مَيْتاً.

حَرَسُ الشِّمالِ هُم حَرَسُ ميرو وَطَلائِعُهُ ٱلَّتي تَسْتَكْشِفُ ٱلوَقْتَ. نَعْرِفُ ذلِكَ: جَدَّة حسينو، وبليرو، وسيڤي، وعباسي قزو، وداود كوت، وعَمّي الصّوفيّ، وشكرو، وحبسونو، وعابو، وعڤدكي كشومشو، واصطيفو، وإوَزّات بَيْتِ ٱلحاجِّ كوفر ٱلَّتي تَنْقَضُّ على ٱلعابِرينَ كَكِلابٍ مَسْعورَةٍ، وَكَلْبَة هيلانَةَ ٱليُونانيَّةِ، الكَلْبَة ٱلَّتي تَظَلُّ تَلْتَفُّ حَوْلَ نَفْسِها كأنَّما فَقَدَتِ التَّوازُنَ، إلى آخِرِ ما هُنالِكَ مِنْ كائِناتٍ تُسَمّى ولا تُسَمّى؛ كُلُّهُم طلائِعُ

ميرو، الرّاعي ٱلّذي يَنْتَظِرُ أنْ يَسْتَتِبَّ ٱلهُدوءُ في ٱلأرْضِ خَمْسينَ سَنَةً لِيَفْتَحَها بِقُرونِ أكْباشِهِ. لكِنْ، مَنْ يَجْرُؤُ على ٱلبَوْحِ بٱلأمْرِ؟ وَمَنْ يَجْرُؤُ على ٱضطِهادِ هذِهِ ٱلكائِنات؟

غَيْرَ أنَّ أمامَنا ٱلكَثيرَ مِمّا نَضطَهِدُهُ، عَدا هؤلاءِ. لَدَيْنا مَنْ لا يَمُتّونَ إلى ميرو ٱلخُرافيِّ بِصِلَةٍ. لَدَيْنا حُقولُ عردي ٱلمارديني لِنَعيثَ فيها نَهْباً، راكِضينَ وَراءَ عَصافيرِ النِّمْنِمَةِ الصَّغيرةِ، مُقْتَلِعينَ في طَريقِنا شُجَيْراتِ ٱلباذِنْجانِ، وَعَرائِشَ ٱلكوسا. لَدينا مِيكروفون قاسمو لِنَقْطَعَ شَريطَه، وَلَدَيْنا دُكّانُ أديبو لِنَبْتَزَّهُ إلى ٱلأقْصى: «نُريدُ عُلْبَةَ مُرْجانٍ يا أديبو»، وَيَتَمَنَّعُ أديبو قليلاً فَنَتَهَيّأُ للتَّبَوُّلِ على ٱلواجِهَةِ حتّى يَرْضَخَ. «نُريدُ قُضامَةً سُكَّرِيَّةً أديبو»، وَيَتَمَنَّعُ أديبو، فَنَتَوَعَّدُ بِكَشْفِ كُلِّ شَيْءٍ... وَيَرْضَخُ أديبو.

وما هُوَ ٱلـ«كُلُّ شَيْءٍ» ٱلّذي نَتَوَعَّدُهُ بِهِ؟ إنَّه أمْرٌ يَسْتَحِقُّ الرُّضوخَ فِعْلاً، وإلّا قَتَلَهُ والِدُهُ. فَعَلى مَبْعَدَةِ مائَتَيْ مِتْرٍ مِنَ الدُّكّانِ تَسْكُنُ خانمه مَعَ ٱبْنَيْها، وَهِيَ ٱمْرَأَةٌ مُطَلَّقَةٌ في ٱلخَمْسينَ، كُرَوِيَّةُ الشَّكْلِ. وَكُنّا نرى ٱبْنَها ٱلأصْغَرَ ـ وَهُوَ مِنْ جيلِنا ـ يَتَرَدَّدُ على الدُّكّانِ، خارِجاً مِنْهُ، كُلَّ مَرَّةٍ، حامِلاً سُكَّراً وَتَبْغاً، وَزُجاجاتِ زَيْتٍ. قُلْنا: «أديبو... ما ٱلّذي يَجْري؟». فَرَدَّ:

«لا شيءَ». قُلْنا: «أديبو... لَيْسَ واضِحاً أنَّ آبْنَ خانمه يَدْفَعُ لَكَ»، فَرَدَّ: «بَلى. أنْتُم واهِمونَ». إذْ ذاكَ قَرَّرْنا مُراقَبَةَ آلوَضْعِ الطّارِىءِ، حتّى جاءَ يَوْمٌ لَمَحْنا فيهِ آبْنَ خانمه يُوَشْوِشُ أديبو، وَيُطيلُ في آلوَشْوَشَةِ، فَعَمَدْنا إلى التَّظاهُرِ بآلانْصِرافِ مِنْ أمامِ الدُّكّانِ، وَمِنْ ثَمَّ آجْتَمَعْنا وراءَ سورِ آلحاجِّ شيخو آلمُتَهَدِّمِ لِنُراقِبَ مِنْ هُناكَ. كانَ آلوَقْتُ مَساءً، بَعْدَ آلغُروبِ بِقَليلٍ. أغْلَقَ أديبو بابَ الدُّكّانِ آلخَشَبِيَّ، وَدَعَمَهُ بِقَضيبٍ حَديديٍّ طويلٍ لَهُ فَتْحَةٌ لِلْقفْلِ في آخِرِهِ، وآتَّجَهَ صَوْبَ بَيْتِ خانمه، مُتَلَفِّتاً في حَذَرٍ. وَحينَ دَلَفَ إلى الزُّقاقِ آلَّذي يُفْضي إلى آلبَيْتِ مُباشَرَةً، رَكَضْنا كَدِيَكَةٍ لَمَحَتْ ديكاً غَريباً قُرْبَ دَجاجاتِها. وإذْ وَصَلْنا الزُّقاقَ كانَ آلبابُ يُوصَدُ تَوّاً، وَيَدورُ في قفْلِهِ الصَّدىءِ ، مِنَ الدّاخِلِ، مِفْتاحٌ ذو أنينٍ.

حَنَيْنا ظُهورَنا وَهَرْوَلْنا، في خِفَّةِ آلقِطِّ، إلى النّافِذَةِ آلوَطيئَةِ. تَدافَعَتْ رُؤوسُنا وَتَزاحَمَتْ لِتَرى. كانَتْ سِتارَةُ النّافِذَةِ قَصيرَةً. سِتارَةُ النّافِذَةِ آلوَحيدةِ لِلْبَيْتِ الطّينيِّ ذي آلغُرْفَةِ آلوَحيدَةِ. ثَلاثَةُ فُرُشٍ ضَيِّقَةٍ في الدّاخلِ. هذا ما نَراهُ على ضَوْءِ سِراجِ آلكازِ. وَأوانٍ لِلطَّبْخِ على آلأرْضِ، وكَذلِكَ كُرْسِيّانِ صَغيرانِ مِنَ

ٱلقَشّ. يَعْلو ٱلحائِطَ ٱلمُقابِلَ للنّافِذَةِ رأسُ غَزالٍ مِنَ ٱلجِبْسِ، وَتَحْتَهُ، تَماماً، كانَ أديبو جالِساً في حُضْنِ خانمه كَطِفْلٍ. كانَتْ تُدَلِّلُهُ. تَضَعُ يَدَها في شَعْرِهِ أوَّلَ ٱلأمْرِ: «يا ديكي»، ثُمَّ تَرْفَعُ يَدَهُ مِنْ حُضْنِهِ وَتَضَعُها على صَدْرِها «أيُعْجِبُكَ ٱلبَطّيخُ؟»، وأديبو يَزْدادُ ٱحْمِراراً في كُلِّ حَرَكَةٍ. وحينَ مَدَّتْ يَدَها إلى أزْرارِ بِنْطالِهِ ضَمَّ فَخْذَيْهِ في حَرَكَةٍ خَفِرَةٍ حَيِيَّةٍ، فَهَمَسَتْ: «لا تَخَفْ يا ديكي، لَنْ أفْتَحَكَ»، وأرْدَفَتْ «فأرُكَ كَبيرٌ أديبو. أوه. دَعْني أراهُ يا ديكي»، وأخْرَجَتْ عُضْوَهُ ٱلمُتَدَلّي، وَبَدَأَتْ تُدَلِّكُهُ في تَأَنٍّ: «أوه. أووه. سَتَذوقُ ٱلحلاوَةَ يا ديكي. إجْلِسْ إلى جانِبي». وَنَهَضَ أديبو لِيَجْلِسَ قُرْبَهَا. فَتَحَتْ أزْرارَ بِنْطالِهِ كُلَّها، وَسَحَبَتِ ٱلبِنْطالَ حتّى عَرَّتْ فَخْذَيْهِ، وَكَذلِكَ فَعَلَتْ بِسِرْوالِهِ الدّاخِليّ.

كانَتْ أفْواهُنا مُرْتَخِيَةً، وَشِفاهُنا السُّفْلِيَّةُ تَتَدَلّى حتّى ٱلأرْضِ. نُغَمْغِمُ لأنْفُسِنا بِكلامٍ لا نَفْهَمُهُ، جامِدينَ، لا يُزاحِمُ رَأْسٌ رَأسَ ٱلآخَرِ، وَٱلكُلُّ مُكْتَفٍ أنْ يَرى بإحْدى عَيْنَيْهِ، أو بِطَرَفٍ مِنْها. «أوه يا ديكي» قالَتْ خانمه، وٱنْزَلَقَتْ بِفَمِها عَنْ بَطْنِهِ حتى لامَسَتْ فأرَ أديبو. ٱبْتَلَعَتْهُ تَماماً. وحينَ تَرَكَتْهُ، بَعْدَ دقائِقَ، كانَ فَأْرُ أديبو مُنْتَصِباً أحْمَرَ مِثْلَ صوصٍ تَكَسَّرَتْ

بَيْضَتُهُ قَبْلَ ٱلأوانِ. «تَمَدَّدْ يا ديكي» قالَتْ لَهْ، فَتَمَدَّدَ. شَمَّرَتْ خانمه عن ثَوْبِها، وَوَضَعَتْ طَرَفَهُ في فَمِها، فَبَدا نِصْفُها السُّفْليُّ عارياً، مُسْتَديراً، كُتْلَةً مِنَ ٱلاسْتِدارَةِ ٱلبَيْضاءِ ٱلَّتي لَمْ تُلامِسْها شَمْسٌ، وَجَلَسَتْ فَوْقَ فأرِهِ.

«لا تَتَحَرَّكْ يا ديكي، سَأَدُلُّ فَأْرَكَ بِيَدي» وتَدُلُّ الفَأْرَ بِيَدِها، صاعِدَةً هابِطَةً في بُطْءٍ. «أوه ديكي... آه دجاجتي»... وٱنْحَنى أديبو إلى أمامٍ بِنِصْفِهِ الأعْلى، دافِعاً رأْسَهُ بَيْنَ ثَدْيَيْها في تَشَنُّجٍ، ثُمّ ٱرْتَخى.

نَهَضَتْ خانمه عَنْهُ قائلَةً: «لا تَتَحَرَّكْ»، فَبَدا لنا مِنَ النّافِذَةِ كَمَنْ نَهَضَ مِن نومِهِ تَوّاً. وأرْدَفَتْ: «يَحْصُلُ الأمْرُ سَريعاً أوَّلَ مرَّةٍ يا ديكي»، ثُمَّ جاءَتْهُ بخِرْقَةٍ ومَسَحَتْ فَأْرَه. «أُريدُ بَعْضاً من عُلَبِ كِنْتْ يا ديكي»، وكَأنَّما أفاقَ أديبو من تَحْتِ آخرِ غِشاءٍ لنَشْوَتِه الأولى مع ٱمْرَأَةٍ: «ٱلكِنْتْ غالٍ، وٱلعُلَبُ مَعْدودةٌ. سَأُفْتَضَحُ يا خانمه إذا فَعَلْتُ ذلك». «أووه يا ديكي، لمْ أعُدْ أسْتَمْتِعُ بتَبْغِ ينيجه وَالبافره. أرْسِلْ إليَّ ما هو أفْخَرُ، على الأَقَلِّ». ويُتَمْتِمُ أديبو: «سَأُرْسِلُ ما هُوَ أفْضَلُ»، ويَتَّفِقانِ عِنْدَ هذا الحَدِّ.

حاوَلَ أديبو أنْ يَنْهَضَ، ليَتَدَبَّرَ أمرَ نَفْسِهِ السّارِحَةِ في حَقْلِ مُشاهداتِه الأولى، فأشارَتْ عَلَيْهِ خانمه: «إخْلَعْ ثيابَكَ كُلَّها». نَظَرَ أديبو في ٱسْتِغرابٍ، فَتَدارَكَتْه: «إخْلَعْها. سأُريكَ الأجْمَلَ يا ديكي»، فخَلَعَ ثيابَهُ كُلَّها، وٱتَّكَأ على الوِسادةِ مُتَمَدِّداً.

أووه خانمه، نَحْنُ نَرى، هذا أوّلُ نِصْفٍ لاَمْرَأةٍ، في أعْمارِنا المُتَدَلِّيَةِ مِنْ زَهْرِ اليَقْطينِ. هذا أَوّلُ نِصْفٍ عارٍ يُشْهَرُ على دِرْعِ أعْمِارنا. خانمه. مُسْتَديَرةً في البياضِ المُسْتَدَيرِ. نِصْفٌ أجملُ ما رأينا، لأنَّنا لم نَرَ الأجملَ. نِصْفٌ أوَّلَ رُؤْيةٍ. نِصْفٌ لاَسْتِعاراتِنا القاصِرَةِ. أووه خانمه... وحَمَلَتْ خانمه إلى أديبو كوبَ شايٍ: «تَمَتَّعْ يا ديكي، أنْتَ تَسْتَأْهِلُ». وٱسْتَوَتْ تَتَعَرّى بِدَوْرِها.

جَلَسا عارِيَيْنِ، يُلْقي أديبو بنَظَراتٍ فُضوليّةٍ كَثيرةٍ على جَسَدِها، مُرْتَشِفاً الشّايَ، وهي تُلْقي بِيَدِها كَثيراً على جَسَدِه، تَتَحَسَّسُ الأُفُقَ الغَضَّ لعُمْرِهِ الغَضِّ أو تَسْتَكْشِفُ الأُبَّهيِّ - وهي العارفَةُ بأُبَّهَةِ الرِّجالِ - في البَلاغَةِ الأولى لِأعْضاءِ صَبِيٍّ لمْ يَبْلُغِ الرابِعَةَ عشرةَ بَعْدُ. واثقةٌ وغَيْرَ واثقةٍ. تَمْتَحِنُ نَفْسَها لا أديبو. تَمْتَحِنُ ما مَضى مِن جَسَدِها، وما يَأْتي من جَسَدِه.

ونَحْنُ... ماذا؟ سِتارَةٌ قَصيرةٌ، وقاماتٌ أقْصَرُ. رُؤوسٌ مِثْلُ العَجّورِ في حَقْلٍ مِن الذُّهولِ آلمَرْمَريِّ: «إذْبَحْها أديبو. آذْبَحْها». نَسينا أنَّنا قَدِمْنا لِنَكْتَشِفَ أديبو. نسينا لُعْبَتَنا: «أُدْخُلْها من الخَلْفِ أديبو. آدْخُلْها بَجَسَدِكَ، وَبِدُكّانِكَ، وبعُلَبِ تَبْغِكَ، وبِبِنْطالِكَ، وبِحِذائِكَ... أُدْخُلْها مِن كُلِّ ثَقْبٍ أديبو».

عارِيانِ في المَهَبِّ الحَريريِّ لقُلوبِنا المُرْتَعِشَةِ. عارِيانِ أمامَ خريطَةِ آللُّهاثِ، يَتْبَعانِ بأصابِعِهِما آلأنْهارَ، وآلهَضَباتِ، وآلجِبالَ، وبأعيُنِهِما آلقُرى، وآلمُدُنَ، والسُّدودَ. عارِيانِ كَحَقْلِ عَدَسٍ، والمُداعَباتُ تَتَكاثَفُ في فَضائِهِما الرَّخْصِ ثُمَّ تُمْطِرُ، فتَقولُ خانُمَه: «كُنْ مِظَلّتي يا ديكي»، وتَسْتَلْقي، فيَجْثو أديبو بَيْنَ عَمودَيْنِ من غُيومٍ وحَبَقٍ. «إدْفَعْ ساقَيْكَ إلى وَراءٍ، وآحْتَضِنْ كَتِفَيّ» تَهْمِسُ خانمه، وتَفْتَحُ العَمودَيْنِ على وِسْعِهِما، ثُمّ تُطْبِقُهُما على خاصِرَتِه. «إدْفَعْ... إدْفَعْ»، وتَحْتَويه كُلَّهُ. تَحْتَوي آلمِظَلَّةَ، والرَّعَشاتِ، والدُّكّانَ، وَرَأسَ آلغَزالِ آلمُعَلَّقَ إلى الحائِطِ فَوْقَهُما، وسِراجَ آلكازِ والنّافِذَةَ وذُهولَنا.

في اليَوْمِ التّالي نَرْمُقُ أديبو بحَسَدٍ وخُبْثٍ، ونَتَقَدَّمُ من الدُّكّانِ واثِقينَ أنَّنا سَنَحْصُلُ على تَبْغٍ لأَشْهُرٍ: «هاتِ عُلْبَةَ بافره

أديبو»، ويَتَمَنَّعُ أديبو: «أأَنا مُسْتَودَعُ تَبْغٍ؟ حلّوا عنّي»، وعِنْدَها نَتَصَنَّعُ لَهْجَةَ دَلالٍ: «ولوْ يا ديكي؟ بافره»، فيُصْعَقُ أديبو من كَلِمةِ «ديكي» لِكنَّهُ يَمُدُّ يَدَهُ في حَرَكَةٍ آليّةٍ إلى الرَّفِّ، ويُعْطينا ما نُريدُ. وبالطَّبْعِ لا تُقْتَصرُ مَطالِبُنا على التَّبْغِ: «هاتِ ثَمَنَ تَذاكِرَ للسّينَما. هاتِ قُضامةً سُكَّرِيَّةً. هاتِ علبَةَ سَرْدينٍ. هاتِ. هاتِ. هاتِ»، ويَكادُ أبو أديبو يُعْلِنُ إفلاسَهُ بينَ مَطالِبِنا ومَطالِبِ خانمه، فيَعودُ إلى إدارَةِ دُكّانِهِ بنَفْسِهِ، مُدْرِكاً أنَّهُ سَها لوقْتٍ طَوَيلٍ عَنْ تِجارتِهِ الصَّغيرةِ، بفِعْلِ آنشغالِهِ الدّائِمِ بزَوْجتَيْهِ، آلقَديمَةِ أُمِّ أديبو، وآلجَديدَةِ الَّتي لَمْ يَكْتَفِ مِنْها بَعْدُ. وَكانَتا تَتَناحَرانِ لَيْلَ نَهارَ، يُسانِدُ آلقديمَةَ أولادُها، ويُسانِدُ الزَّوجُ زَوْجَتَهُ آلجَديدَةَ. حَرْبٌ في ساحَةِ آلبيتِ تَئِزُّ فيها آلأحْذِيَةُ آلمَقْذوفَةُ، وَنَهبٌ في الدُّكّانِ. بَلْ نَهْبٌ في الدَّكاكينِ كُلِّها. آلأولادُ يَسْرِقونَ آباءَهُم حينَ يَأْتَمِنُهُم هَؤلاءِ على آلبَيْعِ، في ساعاتِ ذَهابِهِم إلى آلمَسْجِدِ، فَكَمْ بآلحَرِيِّ إذا سافَروا؟... وعلى مَضَضٍ يُسِافرُ مرادو إلى الحَجِّ. إنّه يَعْرِفُ أبْناءَهُ جَيِّداً؛ يَعْرِفُهُم مِن «غَلَّةِ» الفرنِ آلَّتي كانَتْ تَتَناقَصُ يَوماً بَعْدَ يَوْمٍ، ولَمْ تَنْفَعِ آحتياطاتُهُ، وتَحَرِّياتُهُ، لِرَدْعِهِم، حتّى آضْطُرَّ ـ

كَحَلٍّ أخيرٍ ـ أنْ يَتَّفِقَ مَعَ أولادِه عَلى حِصَّةٍ يَوْميَّةٍ ثابتةٍ مِنْ دَخْلِ آلفرنِ يُؤَدّونَها لَهُ، ولهُمْ بعدَ ذلِكَ أن يَرْبَحوا ما يَقْدِرونَ عَلى رِبْحِهِ. وفِعْلاً نَشِطَ آلأولادُ، وَصاروا يَخْبِزون كيسَيْنِ مِنَ الطَّحينِ بَدَلَ كيسٍ واحِدٍ، وتَفَنَّنوا في صُنْعِ نَوْعٍ من الگاتوه لا يُشْبِهُ الگاتوه، وآسْتَأْجَروا فِتياناً لبَيْعِهِ في آلحاراتِ، يَحْمِلونَهُ عَلى رُؤوسِهِم في صاجاتٍ مُرَبَّعةٍ، تَحُفُّ بها هالاتٌ نورانيَّةٌ من الذُّبابِ، والزَّنابيرِ الشَّرِهَةِ.

لَقَدْ حَلَّ مرادو مُشْكِلَةَ الفُرْنِ، أمّا الدُّكّانُ... آه يَقولُ مرادو. آه. وسَلَّمَهُمُ الدُّكّانَ: «لا حَوْلَ ولا قُوَّةَ...»، مُتَوَكِّلاً عَلى اللَّهِ، ثُمَّ مَضى.

وَوَفَّقَ أولادُ مرادو بَيْنَ شُغْلِهِم في آلفُرنِ وشُغلِهِم في الدُّكّانِ. كانَ يَمْضي أحَدُهُم باكراً، وبالتَّحْديدِ مُحَمَّد، آلأصغرُ مِن بشيرو وحسينو آلفَرّانَيْنِ، وَيأْتي بالطَّحينِ على عَرَبةٍ، وَبِصناديقِ آلبَنَدورةِ، وآلكوسا، والسُّكَّرِ، على عَرَبَةٍ ثانيَةٍ. عَرَبَتا جَرٍّ، كلُّ عَرَبَةٍ يَقودُها رَجُلٌ بَدَلَ آلحِمارِ. وقَدِ آتَّفَقَ آلإخْوَةُ على أنْ يُديرَ مُحَمَّدٌ الدُّكّانَ، وكانَ بشيرو يَرْشونا لمُراقَبَتهِ: «أَنْتَ» يَهْتِفُ. «أَنْتَ، قِفْ على مَقْرُبَةٍ مِنْهُ، وأبْلِغْني أيْنَ يُخَبِّىءُ

ما يَسْرِقُ». ويَرْجِعُ ٱلمُراقِبُ سَريعاً: «ثَمَّتَ ثَقْبٌ في حِزامِهِ ٱلعَريضِ. يا أللَّهُ. ثَقْبٌ يَحْشُرُ فيهِ النُّقودَ ٱلوَرَقيَّةَ بشيرو». وفي كُلِّ وِشايةٍ يُغادِرُ بَشيرو ٱلفُرنَ، ويُهَشِّمُ صُنْدوقاً خَشَبيّاً على رَأْسِ مُحَمَّد، ثُمّ يَعودُ كَأنَّ شَيْئاً لـمْ يَكُنْ. وبعدَ كُلِّ صُنْدوقٍ يُغَيِّرُ مُحَمَّد مَخْبَأَ النُّقودِ. ومُحَمَّد ضَخْمُ ٱلجُثَّةِ. كانَ أمْهَرَ مَنْ يَسْلَخَ ٱلقِطَطَ بسِكّينِ ٱلقَصّابِ، وأمْهَرَ مُبَدِّدٍ لِنُقودِهِ ٱلمَسْروقةِ على آستئجارِ الدَّرّاجاتِ. لكِنَّهُ، في تَفَتُّحاتِ مُراهَقَتِه الآن، يدَّخِرُ النقودَ لأشياءَ أُخْرى، ودليلُه في ٱلإنفاقِ هو أديبو نَفْسُه. آهِ خانمه. باتَتْ تَضُمُّ آثْنَيْنِ إلى صَدْرِها ٱلعَريضِ؛ آثْنَيْنِ أكْثَرَ سَخاءً، في لَحَظاتِ حَياتِهما، مِن ٱلكِبارِ ٱلَّذينَ يَدْفَعونَ لها بمِقْدارِ ما يُساويهِ جَسَدُها مِن ثَمَنٍ. أمّا آبْناها، فَلَدَيْهِما غَريزَةُ مُغادَرَةِ ٱلبَيْتِ في آسْتِمْرارٍ، حينَ يَطْرُقُ زَبونٌ ما ٱلبابَ.

يَتَعَرّى أديبو ومُحَمَّدٌ معاً، وتَتَعَرّى خانمه. يَبْدَأُ أحَدُهُما، ويَنْتَظِرُ ٱلآخَرُ على كُرْسِيِّ ٱلقَشِّ. هذا ما يَقولانِه لنا، آنَ لَمْ يَعُدِ ٱلأمْرُ سِرّاً. ويَتَفَكَّهُ مُحَمَّد ضاحِكاً: «تَبْدو مُؤَخَّرَةُ أديبو ككُرَةِ قَدَمٍ في مَرْمى خانمه. تَرْتَجُّ هكَذا: طط، طط». ويَحْتَدُّ أديبو: «لَوْ تَرى نَفْسَكَ يا آبْنَ ٱلبَغْلِ، تَتَبَوَّلُ على فَخْذِكَ قَبْلَ أنْ

تَقْتَرِبَ مِنْها، ورائِحَتُكَ كَرائِحَةِ الزَّريبَةِ»، ويَتَعارَكانِ في خُشونَةٍ. ما هَمَّ. خانم تَسْتَأْهِلُ خَمْسينَ صُندوقاً مُهَشَّماً على رَأْسِ مُحَمَّد، وثَلاثَةَ دَكاكينَ مَلأى بالنُّقولاتِ من مِثْلِ دُكّانِ أديبو. لكِنَّ ٱلأُمورَ تَبَدَّلَتْ بَعْدَ مُعاوَدَةِ أبو أديبو دُكّانَه، وبَعْدَ عَوْدَةِ مرادو مِنَ ٱلحَجِّ. ومُذْ ذاك يحَومُ ٱلمُراهِقانِ حَوْلَ بَيْتِ خانمه فَلا تَسْتَقْبِلُهُما: «يا لَلْعاهِرَةِ. دَفَعْنا لَكِ وَزْنَ مُؤَخَّرَتِك الضَّخْمَةِ ليراتٍ وَرَقيَّةً. يا لَلْعاهرةِ. مَرّةً واحِدَةً بِاللَّهِ عَلَيكِ»، وَتُوصِدُ خانمه ٱلبابَ: «راجِعاني إذا خَشْخَشَتْ جُيوبُكُما يا عَنْزَتَيَّ»، فَيَقْذِفانِ بابَها بٱلحِجارَةِ: «سَنُحْرِقُ بَيْتَك يا خانمه. سَنَجْعَلُك تُغادِرينَ ٱلحَيَّ مِن غَيْرِ فَرْجٍ»، ثُمّ يُخْرِجانِ عُضْوَيْهِما وَيَتَبوَّلانِ في ٱتِّجاهِ بابِها.

كانَتْ عَوْدَةُ مرادو من ٱلحَجّ حَدَثاً. الرَّجُلُ الصَّلْبُ ٱلعَصَبِيُّ ـ بائِعُ ٱلبَنَدورةِ ٱلمُعَطَّنَةِ، وٱلبيضِ ٱلمَكْسورِ لِلْقَرَوِيّاتِ ـ عادَ رَصيناً جِدّاً، يُطَأْطِئُ في وَرَعٍ لِلْمُهَنِّئينَ: «حَجّاً مَبْروراً»، ويَتَبادَلُ مَعَهُمُ ٱلقُبَلَ عَلى ٱلأَكتافِ، وَهِيَ قُبَلُ التَّواضُعِ وٱلاحترامِ ٱلجَمِّ. ثَلاثَةَ أيّامٍ يَدْخُلُ النّاسُ لِلتَّهْنِئَةِ، ويَخْرُجونَ بِٱلهَدايا مِنْ خواتِمِ ٱلفِضَّةِ الرَّقيقَةِ، والسُّبُّحاتِ ٱلمُطَعَّمَةِ

بَشَذَراتِ الذَّهَبِ، كلٌّ بحَسَبِ مَقامِهِ. وتِلكَ عادَةُ ٱلعائِدينَ من ٱلحَجِّ، يَجْلِبونَ ٱلخَواتِمَ والسُّبَّحاتِ، وَقَواريرَ من ماءِ زَمْزَمَ لا يَذوقُها إلّا ٱلخاصَّةُ، وَسَجّاداتٍ، مَرايا مَرْسومٌ على أقْفِيَتِها ٱلكَعْبَةُ وٱلمَسْجِدُ ٱلحَرامُ؛ خَرْدَواتٍ، ومَلاليمَ رَشاديَّةً كانَتْ زَهيدَةَ الثَّمنِ آنَذاك. هَدايا... هَدايا. حتّى الصِّبْيَةُ، مِنْ أمْثالِنا، لَهُم حِصَّتُهم. وَلِأوّلِ مَرَّةٍ نَقْدِرُ على مُجابَهَةِ مرادو بِوَقارٍ مُتَصَنَّعٍ كَوَقارِه. نُقَبِّلُ يَدَهُ تَبَرُّكاً، فَيَنْحَني لِيَدُسَّ في أيْدينا شَيْئاً من مَعادِنِهِ. وَحينَ نَخْرُجُ نَتْفُلُ عَلى ٱلأرْضِ، وَنَجْمَعُ هَدايانا كُلَّها لِنَبيعَها لصائِغِ فِضّةٍ، مُشْتَرينَ بثَمَنِها رَغيفاً عَلَيهِ حَلاوَةٌ حَمَوِيَّةٌ، ومِنْ ثَمَّ نَقْتَسِمُهُ في طَريقِنا إلى مُسْتَنْقَعِ قاسمو للسِّباحَةِ.

بالطَّبْعِ، لَمْ يَمْضِ أُسبوعانِ إلّا وَعادَ مرادو إلى طَبيعَتِهِ الثّابتَةِ. يَطْرُدُنا مِنَ الفُرْنِ ومِن أَمامِ الدُّكّانِ، مُشْتَبِهاً بِنا أبَداً. صارِخاً هُنا، صارِخاً هُناكَ: «فَلْتَبْتَعِدِ ٱلقَرَوِيّاتُ عَنْ صَناديقِ ٱلبَنَدورَةِ»، وٱلقَرَوِيّاتُ يَتَجَمَّعْنَ أمامَ دُكّانِهِ كُلَّ ظَهيرةٍ، يَشْتَرينَ ٱلبَنَدورَةَ ٱلمَمْعوسَةَ، وٱلبَطّيخَ ٱلأصْفَرَ ٱلمَعْطوبَ، بأسعارٍ بَخْسَةٍ، ثُمّ يَمْضينَ إلى قُراهُنَّ مَشْياً على ٱلأقدامِ، بَعْدَما جِئْنَ إلى

ٱلـمَدينَةِ فَجْراً بِأوعِيَتِهِنَّ ٱلـمَعْدِنِيَّةِ الصَّغيرةِ لبَيْعِ ٱللَّبَنِ، أو ما تَيَسَّرَ مِنَ الدَّجاجاتِ وٱلبَيْضِ.

... وَمُحَمَّد يَحومُ حَوْلَ دُكّانِ والِدِه، وكَذلكَ يَفْعَلُ أديبو، من غَيْرِ أنْ تَسْنَحَ لَهُما فُرْصَةٌ قَطُّ. آه خانمه. العاهِرَةُ تفْتَحُ ٱلبابَ وتوصِدُ ٱلبابَ. رائحٌ وَغادٍ. وٱلمُراهِقانِ يَنْفَجِرانِ: «بِٱللّهِ دَعينا نَرى فَخْذَكِ فَقَطْ... وَلَوْ؟». لا فائِدَةَ. «سَتُغادِرينَ ٱلحَيَّ من غَيْرِ فَرَجٍ»، يَتَوعَّدانِ.

بَعْدَ أيّامٍ مِنْ ذلِكَ يَكْسِرانِ زُجاجَ النّافِذَةِ. وبَعْدَ أيّامٍ أُخْرى يُلْقِيانِ بِرُزْمَةِ مُفَرْقَعاتٍ هائِلَةٍ مِنَ النّافِذَةِ فيَحْتَرِقُ فِراشُ خانمه. وبعدَ شَهْرٍ يَتَحَيَّنانِ أنْ يَكونَ ٱلبَيْتُ خالياً فيَخْلَعانِ النّافذَةَ ٱلخَشَبِيَّةَ بحَبْلٍ يَجُرُّهُ حِمارٌ، ويُلْقِيانِ إلى الداخِلِ بُجُثَّةِ كَلْبٍ... وبِمَنْ تَسْتَنْجِدُ خانمه؟ أهْلُ الحُيِّ يَمْقُتونَها، ولنْ يُحَرِّكوا ساكِناً. الشُّرْطَةُ؟ لا. وتُغادِرُ إلى حَيِّ قدرو بك في شَرْقِيِّ ٱلمَدينةِ، حيثُ تُؤَسِّسُ وَكْراً يَذْهَبُ كالرِّيشِ في أوّلِ مُداهَمَةٍ لِلشُّرْطَةِ؛ وتُسْجَنُ، فَلا نَسْمَعُ عنْها بعدَ ذلِكَ.

آهٍ خانمه. سَنَتانِ أو أكْثَرُ بقَليلٍ؛ سَنَتانِ ويَكْتَشِفُ المُراهِقونَ أعْمِدَةً كَثيرَةً مِنَ ٱللَّحْمِ. يَجْثونَ وَيَلْهَثونَ. فالطَّريقُ إلى السّوقِ

ٱلعُموميَّةِ بَرِّيَّةٌ مَكْشوفَةٌ مِنَ الطّينِ، وَفي آخِرِها تَسْتَوي حَفْنَةٌ مِنَ ٱلبُيوتِ ٱلقَديمَةِ، مُتَّصِلَةٌ بِوساطَةِ أبْهاءٍ مُعْتِمَةٍ رَطْبَةٍ، وَلَها سُقوفٌ خَشَبيَّةٌ تَصُرُّ صَريراً تَحْتَ خِصْيَةِ الرّيحِ. هُناكَ سَيَفْتَتِحونَ زَوْبَعَتَهُمُ الثّانِيَةَ يا خانمه، ولَنْ يُكَلِّفَهُمُ ٱلأمْرُ عُشْرَ ما كُنْتِ تَأْخُذينَهُ. قدْ لا تَكونُ النِّساءُ الشَّبَحِيّاتُ بَيْضاواتٍ مِثْلَكِ تَماماً، لكِنَّهُنَّ مُسْتَديراتٌ أيضاً، يَتَدَلّى لَحْمُهُنَّ عَلى ٱلأَرْضِ إذا جَلَسْنَ عَلى أرائِكِهِنَّ ٱلمُتَفَسِّخةِ، وَإمّا نَهَضْنَ ٱرْتَجَّتْ أعْضاؤُهُنّ كَسَحْلَبٍ كَثيفٍ على عَرَبَةٍ تَجْتازُ مَطَبّاتٍ. هُناكَ، عَلى مَرْمى شُعاعٍ عُضْوِيٍّ، أو سَهْمٍ مِن سِهامِ ٱللَّهْفَةِ، تَنْهَضُ مَقْبَرَةُ النِّساءِ الشَّبَحيّاتِ بسُقوفِها ٱلمُنْحَنِيَةِ، وَأنينِها ٱلعابِقِ بٱلمَراهِمِ الطِّبِّيَّةِ، وَالصّابونِ الرَّخيصِ. مَمْلَكَةٌ مُهْمَلَةٌ، يَدْخُلُها ٱلعابِرونَ بأسْرارِهِمْ ويَتْرُكونَها على ٱلأسِرَّةِ. يَدْخُلونَها مُمْسِكيْنِ بصَوْلَجاناتِ ٱلفَراغِ، ويَخْرُجونَ مُعْتَمِرينَ تيجانَ ٱلفَراغِ. عابِرونَ يُشيحونَ بِوُجوهِهِمْ، بَعْضُهُم عَنْ بَعْضٍ؛ يُحَدِّقونَ في أحْذِيَتِهِم، وإذا رَفَعوها فإلى وَجْهِ شَبَحٍ يَخْتارونَه لِاعْتِرافِهِم ٱلجَسَدِيِّ. هُناكَ يا خانمه، هُناك، بَعْدَ سَنَتَيْنِ أو أكْثَرَ قَليلاً، سَيَتَواطَأُ ٱلقادمونَ الصِّغارُ عَلى أجْسادِهِم، وَعَلى آلِهَتِهِم، وَحُكوماتِهِم،

وَأهْلِهِم، وَقوانينِ أهْلِهِم. سَيَتَواطَؤونَ عَلى ٱلمَدْرَسَةِ، وَعَلى ٱلعَصْرِ الَّذي قَدَّرَ لَهُمْ أن يولَدوا في هَذا ٱلعَراءِ ٱلغَضْبانِ، وفي هذِهِ ٱلجِهَةِ مِنَ ٱلأرْضِ، وَتَحْتَ هذا ٱلخَتْمِ الصَّلْصاليِّ، الَّذي يَغْمِسُهُ ٱلجاهِلونَ في الرُّعْبِ، ويَمْهُرونَ بِهِ صَحائِفَ ٱلهَواءِ وَكَراريسَ دَمِنا، هُناكَ، على أسِرَّةٍ غَسَلَها جيلٌ سابِقٌ بعَرَقِ روحِهِ، سَيَجْثو جيلٌ جَديدٌ مُحْتَضِناً بِذِراعَيْهِ، وبِأعْمَقِ أعْماقِهِ، كُراتٍ حَيَّةً، تَنْبِضُ تَحْتَ قِشْرَةٍ سَميكَةٍ مِنْ أحْمَرِ الشِّفاهِ والكُحْلِ؛ كُراتٍ تَتَفَتَّحُ في كَسَلٍ، وتُرَبِّتُ على مُؤَخَّراتِ الرِّجالِ: «نَعيماً»، فيَنْهَضونَ إلى صُنْبورِ ٱلمِياهِ مُتَقزِّزينَ مِنْ أعْضائِهِم. هُناكَ، كُلُّ شَيْءٍ يَبْدَأُ مِن هُناكَ: ٱلضَّرْبَةُ ٱلأولى لِلرّوحِ، والضَّرَباتُ ٱلألْفُ لِلْمَصائِرِ ٱلحامِضَةِ كنَبيذٍ فاسِدٍ. مَرْحى جيلي... مَرْحى.

لا يَدومُ إفلاسُ مُحَمَّد طَويلاً، فَمرادو وٱبْنُهُ ٱلفَرّانُ بشيرو على خِصامٍ. يُحِسّ بشيرو، ٱبْنُ ٱلعِشرينَ عاماً، أنَّه باتَ على قَدْرٍ من الثِّقَةِ بِنَفْسِهِ وَبِفُرْنِه لا يَسْمَحُ لِوَساوِسِ والِدِه بزَعْزَعَتِها، ولا لِلَجاجَتِهِ أنْ تَطْغى. وباتَ يَكْرَهُ كَراهِيَةً غَريبَةً تَرَدُّدَ والِدِهِ عَلى بابِ ٱلفُرْنِ، حَيْثُ يُقَرْفِصُ عَلى مَدْخَلِ الدَّرَجِ

وقَدْ تَدَلَّتْ خِصْيَتاهُ الدّاكِنَتانِ مِنْ تَحْتِ دَشْداشَتِهِ، يُلْقي أوامِرَهُ، أوْ يَسْتَوْضِحُ ٱلأُمورَ مِنْ دونِ داعٍ. وَحينَ بَلَغَتِ ٱلخُصومَةُ مَداها، ضَرَبَهُ بشيرو بِمِجْذافِ ٱلفُرْنِ فَٱنْهارَ الأبُ مُتَدَحْرِجاً عَلى الدَّرَجِ إلى القَبْوِ، ومِنَ اليومِ ذاكَ، تَسَلَّمَ مُحَمَّد مَكانَ حسينو، يُرَقِّقُ قِطَعَ ٱلعَجينِ؛ وٱسْتَلَمَ حسينو مَكانَ بشيرو أمامَ ٱلفُوَّهَةِ ٱللَّهبِيَّةِ، الَّتي تَتَفَجَّرُ داخِلَها، بَيْنَ الحينِ وَٱلحينِ، فِئْرانٌ ضالَّةٌ. أمّا بشيرو فَقَدِ ٱلْتَحَقَ بفُرْنٍ آخَرَ، قُرْبَ ٱلجِسْرِ ٱلقَديمِ في شَرْقِ ٱلمَدينةِ، وَكانَ يَشْتَكي، طَوالَ ٱلوَقْتِ، مِنْ صاحِبِ ٱلفُرْنِ باسيل ٱلأحْوَلِ، ٱلَّذي يَتْرُكُهُ أثْناءَ ٱلعَمَلِ وَلا يَعودُ، فيُضْطَرُّ بشيرو أنْ يَعْجِنُ، ويُرَقِّقَ ٱلعَجينَ، ويَقْذِفَ بِهِ إلى بَيْتِ النّارِ، وَيُخْرِجَ ٱلأرْغِفَةَ حينَ تَنْضُجُ، وفَوْقَ هذا كُلِّهِ يَقِفُ أمامَ ٱلميزانِ الصَّدىءِ ذي ٱلكفَّتَيْنِ النُّحاسِيَّتَيْنِ لِيَبيعَ الخُبْزَ.

يَظَلُّ بشيرو مُشْتَكِياً، ويَظَلُّ باسيلُ الأحْوَلُ عَلى حالِهِ. «أيْنَ يَمْضي ٱبْنُ السَّحْليَّةِ؟» يَقولُها مُتَذَمِّراً، «سَأدْلُقُ ٱلكازَ على كُلِّ شَيْءٍ وَأمْضي». لكِنَّ تَذَمُّرَه يَخْفُتُ بينَ ٱلحينِ وَٱلحينِ، آنَ تزورُهُ زَوْجَةُ صاحِبِ ٱلفُرْنِ الشّابَّةُ، مُبْتَسِمَةً دائِماً، تَحْتَضِنُ طِفْلاً إلى صَدْرِها، وتَقودُ آخَرَ من يَدِهِ.

«غابَ كعادَتِه... ها؟» تَسْأَلُ بشيرو، فيُجيبُها بعَيْنَيْنِ خَفيضَتَيْنِ مِلْؤُهُما الرَّغبةُ: «كعادَتِهِ سَيِّدَتي، كعادَتِهِ»، ويَتَكَلَّفُ حَرَكاتٍ سَريعَةً بآلـمِجْذافِ لإخْراجِ ٱلأرْغِفَةِ، حتّى تَلْحَظَ عَضَلاتِ زَنْدَيْهِ، وهيَ تَلْحَظُها بالطَّبْعِ؛ مِن غَيْرِ أن تَلْفِتَ ٱنْتِباهَهُ إلى إعْجابِها.

كانَتْ تَزورُ ٱلفُرْنَ لِماماً، في ٱلأيّامِ ٱلأولى لِمَجيءِ بشيرو، لكِنَّها باتَتْ تَتَرَدَّدُ عَلَيْهِ كَثيراً، ٱلآنَ. تُوصي ٱبْنَها البِكْرَ ذا السَّنَواتِ السِّتِّ بِأخيهِ، ثُمّ تُشَمِّرُ كُمَّيْها لِتَقْطَعَ ٱلعَجينَ وتُرَقِّقَهُ. وكُنّا نُخَفِّفُ عَنْ بشيرو في زِياراتِنا ٱلمُسْتَديمَةِ، فَنَتَوَلّى ٱلبَيْعَ، مُتَشَمِّمينَ بُروقاً من الطَّحينِ ٱلأبيضِ بَيْنَ ٱلفَرّانِ الشّابِّ وبَيْنَ زَوْجَةِ مُعَلِّمِهِ ٱلمُهْمَلَةِ. وقدْ تَقَصَّدْنا، ذاتَ مَرَّةٍ، أنْ نوقِفَ سَيْلَ تِلكَ البُروقِ ٱلخَفِيَّةِ: «أيْنَ يَذْهَبُ ٱلمُعَلِّمُ باسيلُ يا سَيِّدَتي؟»، وَكَأنَّما أفاقَتْ مِنْ نِعْمَةِ غِيابِه، فَأَشارَتْ بِيَدِها إشارَةَ مَنْ يَطْرُدُ ٱلآخَرَ في ٱحْتِقارٍ: «يَذْهَبُ إلى فَرْجِ أُمِّهِ»، فتَدارَكَها بشيرو مُخَفِّفاً: «ٱلمُعَلِّمُ طَيِّبٌ يا سَيِّدَتي، لكِنَّ هَذِهِ ٱلعادَةَ...»، فَقاطَعَتْهُ كَمَنْ يُبَرِّرُ لِنَفْسِهِ أمراً مُبَيَّتاً يَتَراءى في ٱلأُفُقِ: «سيُقامِرُ بآلفُرْنِ كُلِّهِ، وقَدْ يَأْتي دَوْري لِيُقامِرَ عَلَيَّ. شَرَفُهُ أَحْوَلُ

كَعَيْنِهِ ٱلحَوْلاءِ»، وضَرَبَتْ بِقِطْعَةِ عَجينٍ عَلى ٱلمِنْضَدَةِ ٱلخَشَبيَّةِ فَتَطايَرَ الطَّحينُ ٱلخَفيفُ.

هكَذا باسيلُ؟ هكَذا إذَنْ؟ تَأْخُذُ غَلَّةَ ٱلفُرْنِ مِنْ بشيرو صَباحاً وَتَمْضي إلى قَرافَةِ السَّيّاراتِ، وهُناكَ تَجْتَمِعُ بِأَصْحابِكَ حَوْلَ طاوِلَةٍ مُلَوَّثَةٍ بالشَّحْمِ وَبِبُرادَةِ ٱلحَديدِ، حَيْثُ يَتَناوَبُ ٱلمَهْزومونَ عَلى هَزائِمِهِم، وَسْطَ أكْوامٍ مِنَ الدَّواليبِ ٱلمَطّاطيَّةِ ٱلباليةِ، وَٱلمُحَرِّكاتِ ٱلمَكْسورَةِ، وَٱلبَراغي ٱلمُتَفاوِتَةِ ٱلأحْجامِ، وَٱلمَطارِقِ الَّتي تَهْوي بِها أيْدي ٱلعُمّالِ عَلى قُضْبانٍ مُلْتَوِيَةٍ. لا أحَدَ يَسْمَعُ شَيْئاً. ضَجيجٌ في ٱلحَناجِرِ وضَجيجٌ في ٱلحَديدِ. ٱلعُيونُ، وَحْدَها، تَتَقَرّى ٱلعُيونَ وَٱلوَرَقَ ٱلمُسْتَطيلَ الصَّغيرَ. هكَذا إذَنْ؟!

... والزَّوْجَةُ الشّابَّةُ تَحْتَدِمُ: «ٱلأحْوَلُ يَرى ٱلوَرَقَةَ وَرَقَتَيْنِ، فكَيْفَ لا يَخْسَرُ في ٱستِمْرارٍ؟». آهٍ للبُروقِ. آهِ لِبُروقِ الطَّحينِ. إنَّها تَتَعَمَّدُ أنْ تَدورَ نِصْفَ دَوْرَةٍ مِن حَوْلِ مِنْضَدَتِها إلى الفُوَّهَةِ اللَّهَبيَّةِ، حَيْثُ يَكونُ بشيرو مُنْحَنِياً قَليلاً يُراقِبُ الأرغِفَةَ، فَتَنْحَني بدَوْرِها، لِتَدُلَّهُ، آمِرَةً في تَوَدُّدٍ: «ذاكَ الرَّغيف... بلْ ذاك، يَكادُ يَحْتَرِق»، وهيَ لا تَنْحَني إلّا لتَشُمَّ ظَهْرَهُ العاري، أَوْ

إبْطَهُ، نَشْوى بِنُثاراتِ ٱلعَجينِ الصَّغيرةِ ٱلمُلْتَصِقَةِ بِشَعْرِ يَدَيْهِ. آه لِلْبُروقِ. آه لِبُروقِ الطَّحينِ، فالَّذي لا يَكْتَمِلُ أمامَ عُيونِنا يَنْقُلُهُ لنا بشيرو: «لَقَدِ ٱنْهارَتْ عَلَيَّ بثِقْلِ لَحْمِها». يَقولُ ذلِكَ بَعْدَما تَرَكَ الفرّانَ ٱلمُقامِرَ، وصالَحَ أباهُ فَعادَ إلى فُرْنِهِ ٱلخاصِّ: «حَصَلَ ذاتَ فَجْرٍ. جاءَ باسيلُ، أخَذَ الغَلَّةَ ومَضى. كُنْتُ مُنْكَبّاً عَلى ٱلمَعْجَنِ، وقد غاصَتْ يَدايَ في ٱلعَجينِ حتّى ٱلمِرْفَقَيْنِ. وَكانَ بابُ ٱلفُرْنِ الشَّبَكِيُّ مَرْفوعاً إلى نِصْفِهِ فَقَطْ، فَدَخَلَتْ لامو من تَحْتِه مُنْحَنِيَةً، ثمّ أسْدَلَتْهُ وَراءَها، وسَدَّتْه بالسّاتِرِ ٱلخَشَبيِّ مِنَ الدّاخِلِ. فَهِمْتُ حَرَكَتَها، لكنّني تَحاشَيْتُ أنْ أُبادِرَ، بَلْ تَصَنَّعْتُ تَأَفُّفي ٱلمُعْتادَ مِنْ زَوْجِها وَمِنْ فُرْنِهِ. لمْ تَرُدَّ عَلَيَّ. تَقَدَّمَتْ وَطَوَّقَتْ خاصِرَتَيَّ مِنْ وَراءَ. هَمَسْتُ: لامو، ماذا تَفْعَلينَ؟ كانَتْ تَرْتَجِفُ. شَدَّتْ شَعْري بقُوّةٍ إلى الخَلْفِ، وأهْوَتْ بفَمِها على فَمي. لامو، ٱلعَجينُ... يَدايَ... ٱلعجينُ. كانَتْ تَرْتَجِفُ وتَلْهَثُ. سَقَطْنا مَعاً على كيسِ طَحينٍ قُرْبَ ٱلمَعْجَنِ. قُلْتُ لِنَفْسي: ما لَكَ يا وَلَد؟! وطَوَّقْتُها بذِراعَيَّ ٱلمُخَضَّبَتَيْنِ بٱلعَجينِ. طَوَّقْتُ شَعْرَها، وخَصْرَها، وفَخْذَيْها، مُتَنَقِّلاً بفَمي بَيْنَ وَجْهِها وقَدَمَيْها يا شَباب. فَوْقَ ثَوْبِها وتَحْتَ

ثَوْبِها. صِرْنا كَرَغيفٍ حَلَبيٍّ. جَثَتْ هاتِفَةً: مِن وَراءَ... خُذْ شَرَفَ ٱلأحْوَل. آه يا شَباب. أرْبَعَ مَرّاتٍ قَبْلَ أنْ نَسْمَعَ خُطُواتِ أوَّلِ زَبونٍ. أرْبَعَ مَرّاتٍ يا شَبابُ وَهِيَ تَعِنُّ وتَئِنُّ»، وَنُعَقِّبُ نَحْنُ عَلى كَلامِهِ: «حلو أبو ٱلبِشْر... حلو».

كانَ ٱلفَصْلُ خَريفاً حينَ تَرَكَ بشيرو مُعَلِّمَهُ ٱلأَحْوَلَ. ولَـمّا جاءَ الشِّتاءُ مَوْجَةً مَوْجَةً مِنْ طَحينٍ سَماوِيٍّ أبْيَضَ، وبُروقاً شارِدَةً من فُوَّهَةِ ٱلفُرْنِ ٱلَّذي يَعْلو ٱلغُيومَ، سَرَتْ قِصَصٌ مُثَلَّجَةٌ عنَ باسيلَ ٱلأحْوَلِ «غادَرَ ٱلفُرْنَ قَبْلَ شَهْرَيْنِ، ولَمْ يَعُدْ بَعْدُ». «رَأَوْهُ أخيراً، رَأَوا جُثَّتَهُ». أووه. «لا رَأْسَ لها. عَرَفوهُ مِنْ ثِيابِهِ، ومِن نُدْبَةِ ٱلجُدَرِيِّ ٱلكَبيرَةِ عَلى عَضُدِهِ». آهِ. «عَثَروا عَلى الرَّأسِ ٱلمَقْطوعِ عَلى مَبْعَدَةِ مائتَيْ مِتْرٍ مِن ٱلجُثَّةِ». ها. «ثَلْجٌ أحْمَرُ في دائِرَةٍ قُطْرُها أرْبَعونَ مِتراً حَوْلَ ٱلجُثَّة». مِنْ أينَ كُلُّ ذلِكَ الدَّمُ؟ «الرَّأسُ مُهَشَّمٌ بِمِطْرَقَةٍ». أوْلادُ «قَدّور بك» وَحْدَهُم يَسْتَطيعونَ فِعْلَ ذلِكَ. أوْلادُ حارَة قدّور بك، ٱلأكْثَرُ نَهْباً لِلْمَقابِرِ في ٱلأرْضِ. ونَهُزُّ رُؤوسَنا. نَحْنُ نَعْرِفُهم. وَحْدَهم يَسْتَطيعونَ فِعْلَ ذلِكَ بباسيلَ ٱلأحْوَلِ. فمِنْ أجْلِ خاتَمٍ، أو ثَوْبٍ، يَنْبِشونَ أرْبعينَ قَبْراً قَديماً وَجَديداً في ٱللَّيْلَةِ ٱلواحِدَةِ، ولا يَرْدُمونَها. وَضَعَتِ

ٱلحُكومَةُ حارِسَيْنِ عَلى ٱلمَقْبَرَةِ وَلَمْ تَسْلَمِ ٱلقُبورُ. يَأْتونَ كَبَناتِ آوى إلى مَقْبَرةِ الرّومِ إذا سَمِعوا بدَفْنٍ جَديدٍ، وقدْ واكَبْناهُم مَرَّتَيْنِ، لنُعْلِنَ لَهُمْ أنَّ أوْلادَ ٱلحَيِّ ٱلغَرْبيِّ لا يَخافونَ. واكَبْناهم برُغْمِ ٱلخُصومَةِ ٱلَّتي لا تَنْتَهي بَيْنَنا. نَحْنُ، أولادَ ٱلحَيِّ ٱلغَرْبيِّ، نَقولُ لهم، أولادُ آغوات وَمَلالي وتُجّارِ قَمْحٍ، لَسْنا وادِعينَ قَطّ.

في ٱلمَرَّةِ ٱلأولى نَبَشوا قَبْرَيْنِ لمْ يَكونا ٱلمَقْصودَيْنِ. فاحَتْ رَوائِحُ غَريبةٌ، وَهاجَتْ أشْباحٌ ٱخْتَلَطَتْ بصُراخِ ٱلحارِسَيْنِ فَهَرَبْنا. وَفي ٱلمَرَّةِ الثّانيَةِ أخْرَجوا جُثَّةَ فَتاةٍ في الثّالثةَ عَشْرَةَ، طازَجَةً، لم تَنْفُخْ فيها ٱلأرْضُ مِن روحِ خَشاشِها بَعْدُ. عَرَّوْها - أوْلادُ قدّور بك - وَمَثَّلوا أمامَ أعْيُنِنا ٱللَّيْلِيَّةِ فَصْلَ ٱغْتِصابٍ مُدَمِّرٍ. قُلْنا لَهُم - بَعْدَ تلكَ اللَّيلةِ - لا تَسْتَهْوينا ٱلمَقابِرُ. تَعالَوْا مَعَنا - إذا كُنْتُمْ جَريئينَ - إلى غابةِ ٱلهِلاليَّةِ ليْلاً، لكِنَّهُم أبَوْا أنْ يَنْجَرّوا إلى «ٱلفَخِّ» بحَسْبِ ما سَمّى عُقَلاؤُهُم دَعْوَتَنا. وٱفْتَرَقْنا. بَيْدَ أنَّ أوْلادَ قدّور بك ٱسْتَمَرّوا في نَبْشِ ٱلقُبورِ بالرُّغْمِ مِنْ حُرّاسِ ٱلحُكومَةِ، وحينَ ٱسْتَفْحَلَ ٱلأمْرُ شَيَّدَتِ ٱلبَلَديّةُ سوراً ضَخْماً حَوْلَ ٱلمَقْبَرَةِ، فَحَفَرَ أوْلادُ قدّور بك أساساتِ السُّورِ وعَبَروهُ. إذْ ذاكَ ٱسْتَسْلَمَتِ ٱلحُكومَةُ، وٱلبَلَدِيَّةُ، وٱلمَقْبَرَةُ، لأَمْرِ

لا رادَّ لَهُ؛ لأمْرٍ كَٱلقَدَرِ، وَكَٱلشِّمالِ ٱلَّذي خَلَقَتْهُ ٱلآلِهَةُ، مُصادَفَةً، مِنْ ضَجَرِها.

نَعَمْ. أَوْلادُ قدّور بك قَطَعوا رَأْسَ باسيلَ ٱلأحْوَلِ، نَقولُ لبشيرو، فيَنْظُرُ إلَيْنا في ٱستِخْفافٍ: «لا. أصْحابُهُ ٱلمُقامِرونَ يا بُلَهاءُ. أصْحابُهُ فَعَلوا ذلِكَ». ونَزِنُ ٱلأمْرَ في رُؤوسِنا فَنَراهُ على حَقٍّ. غَيْرَ أنَّ باسيلَ عادَ حَيّاً بشَحْمِه ولَحْمِه. بجِذْعِه وَرأْسِه مَعاً، يَتَكَلَّمُ ويَشْتَغِلُ في الفُرْنِ كسابِقِ عَهْدِهِ، و... أحْوَلُ. هَرَبَ من دُيونِه إلى ٱلعاصِمَةِ أرْبَعَةَ أشْهُرٍ، وعادَ فَسَدَّدَها. يا لَلْحكايَةِ. لكِنَّ جَدَّ عزّو شَغَلَنا بمَوْتِه، فَنَسينا باسيلَ.

فَفي يَوْمٍ لَمْ نَكَدْ نُفيقُ فيهِ مِنَ الضَّحِكِ جاءَنا ٱلخَبَرُ. كُنّا نَضْحَكُ مِلْءَ رِئاتِنا. نَضْحَكُ وَنَتَلَوّى مِنْ وَجَعِ الضَّحِكِ. نَضْحَكُ وَنَتَمَرَّغُ عَلى التُّرابِ الرَّماديِّ، رافِعينَ سيقانَنا في ٱلهَواءِ كَزيزٍ مَقْلوبٍ على ظَهْرِهِ. نَضْحَكُ مِنَ ٱبنِ زرزي ٱلَّذي ٱبْتَلَعَ عُصْفوراً حَيّاً بكامِلِ ريشِهِ فَحَمَلوهُ عَلى نَقّالَةٍ إلى ٱلمُسْتَشْفى. وٱبنُ زرزي أقْرَبُ إلى ٱلبَلاهَةِ منهُ إلى أيِّ شيْءٍ آخَرَ. كُنّا نُحادِثُه ـ آنَ ٱبْتَلَعَ ٱلعُصفورَ ـ عَنْ مَغاويرِ ٱلجَيْشِ: «يَأْكُلونَ ٱلأفاعِيَ ٱلحَيَّةَ. آهِ. يَأْكُلونَ ٱلكِلابَ وَٱلعَقارِبَ يا ٱبنَ

زرزي». وَيُجيبُنا في حَماسَةٍ وتَهَوّرٍ: «أنا آكُلُ ٱلحَيَّةَ. هاتوا ٱلحَيَّةَ». ويَغْمِزُ بَعْضُنا بَعْضاً: «يَأْكُلونَ ٱلكِلابَ»، فَيَنْتَفِخُ: «هاتوا كَلْباً. أنا آكُلُ ٱلكِلابَ». كُنّا نَسْخَرُ مِنْهُ، لكِنَّ إعْجابَنا بِٱلمَغاويرِ إعْجابٌ رَصينٌ. نَحْنُ، حَرَسَ البُطولةِ في ذلِكَ ٱلعَراءِ، تَسْتَهْوينا ٱلبُطولَةُ، وكُلُّنا قادِرٌ ـ إذا جَرَّهُ التَّحَدّي ـ على ٱلْتِهامِ بَقَرَةٍ حَيَّةٍ، وقَدْ نَعَضُّها ـ أوّل ما نَعَضُّ ـ من قَرْنَيْها إذا لَزِمَ ٱلأَمْرُ. غَيْرَ أنَّنا وَجَدْنا، في غِيابِ أيِّ تَحَدٍّ، مَنْ نَتَفَكَّهُ عَلَيْهِ أكْثَرَ مِنْ أنْفُسِنا. «المَغاويرُ يَأْكُلونَ ٱلقِطَطَ»، ويَصْرُخُ ٱبْنُ زرزي: «أنا آكُلُ ٱلقِطَطَ. هاتوا قِطَّةً». ومِنْ أيْنَ نَأْتي لِٱبْنِ زرزي بقِطَّةٍ؟ آهٍ، يَهْتِفُ أحَدُنا، سَنَأْتيكَ بعُصْفورٍ. «أنا آكُلُ ٱلعَصافيرَ» يَرُدُّ ٱبْنُ زرزي.

نَصْعَدُ إلى سَطْحِ أحَدِ ٱلبُيوتِ، ونَمُدُّ أيْدِيَنا إلى أوْكارِ ٱلعَصافيرِ. وبَعْدَ تَهْديمِ ٱلكَثيرِ مِنَ ٱلأعْشاشِ، وَكَسْرِ ٱلكَثيرِ مِنَ ٱلبَيْضِ الصَّغيرِ، نَعْثُرُ عَلى فَرْخٍ عَلى أُهْبَةٍ أنْ يَغْدُوَ عُصفوراً كامِلاً، إذْ لا تَزالُ تُحيطُ بِمِنْقارِهِ هالةٌ صَفْراءُ لَيِّنَةٌ. «خُذْ يا ٱبْنَ زرزي». ويَنْظُرُ ٱبْنُ زرزي إلى ٱلعُصْفورِ في أوَّلِ ٱلأَمْرِ، ثُمّ لا يَلْبَثُ أنْ تَنْتَفِخَ أوْداجُهُ، كَمَنْ يَسْتَذْكِرُ عَداوَةً قَديمَةً،

ويَحْشُرَ ٱلفَرْخَ في فَمِهِ. يَمْضَغُهُ مَرّتَيْنِ فَتَخْرُجُ زَقْزَقَةٌ أليمَةٌ مِنْ أُذُنَيْهِ. لا يَعْبَأُ بِنَفْسِهِ. يَرْفَعُ يَدَيْهِ عالياً في حَماسَةِ ٱلمُنْتَصِرِ: «حـ حـ حـ حـ م. بوووو» ويَزْدَرِدُ ٱلفَرْخَ كامِلاً، ثمّ تَنْتابُهُ نَوْبَةُ غَثَيانٍ، فيُحاوِلُ أنْ يَتَقَيَّأَ ولا يَسْتَطيعُ. يَتَشَنَّجُ لِساعَتَيْنِ قَبْلَ أنْ تَصِلَ سَيّارَةُ ٱلإسْعافِ ٱلأُبَّهيَّةُ.

ضَحِكْنا، لِيَوْمَيْنِ، ما يَعْدِلُ ضَحِكَ أهْلِ الشِّمالِ، كُلِّهِم، مَدى سَنَةٍ، حتّى جاءَنا خَبَرُ مَوْتِ جَدِّ عزّو.

كانَ أحَدُهُمْ يَرْكُضُ لاهِثاً، وحينَ جاوَرَنا ـ نَحْنُ حَفْنَةَ الصِّبْيَةِ الضّاحِكينَ ـ صَرَخَ: «أبْلِغوهُمْ أنَّهُ تَحْتَ الرَّدْمِ». جاءَ كَلامُه غامِضاً، مُبَلَّلاً بالنَّشيجِ. قُلْنا: «مَنْ تَحْتَ الرَّدْمِ؟»، فَحاوَلَ أنْ يَتَمالَكَ لُهاثَهُ: «جَدّ... جَدّ عِزّو. إنهار ٱلمَقْلَعُ». وَسَأَلْناهُ في فُضولٍ: «أماتَ؟»، صَرَخَ بِنا: «أبْلِغوهُم... ماتَ»، وَعادَ أدْراجَهُ راكِضاً مِثْلَما جاء.

كُلُّ أبْناءِ ٱلجَدِّ يَعيشونَ في مَنْزِلٍ واحِدٍ، مُقَسَّمٍ مِنَ الدّاخِلِ إلى غُرَفٍ مُتَقابِلَةٍ، يَفْصِلُها مَمَرٌّ يَقودُ إلى زَريبَةِ ٱلبَقَرِ وٱلبِغالِ. أبو عزو أكْبَرُهم، وٱلآخَرونَ حَديثو زَواجٍ.

عَبَرْنا ٱلبَوّابَةَ ٱلمَفْتوحَةَ إلى ٱلمَمَرِّ مُباشَرَةً، فتَطايَرَتْ مِنْ

تَحْتِ أقْدامِنا الدَّجاجاتُ مَذْعورَةً، وَتَنَحَّتِ ٱلبَقَراتُ ٱلمُدَلَّلَةُ. أمّا ٱلبِغالُ فَلَمْ تَكُنْ هُناكَ، لأنَّها كانَتْ، في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، لا تَزالُ مَرْبوطَةً إلى عَرَبَةِ ٱلجَدِّ وأحَدِ أبْنائِهِ، في مَقْلَعِ التُّرابِ. صَرَخْنا: «ماتَ الجَدُّ»، فَقَرْقَعَتِ ٱلأبْوابُ ٱلكَثيرةُ المُتَقابِلَةُ، وَخَرَجَ سَيْلٌ مِنَ ٱلبَشَرِ. رِجالٌ، ونِساءٌ، ودَجاجاتٌ، وَأطْفالٌ ثَمانيةٌ هُم إخْوَةُ عزّو. أشَرْنا بأصابِعِنا «هُناكَ... ٱلمَقْلَع». لَمْ يَنْتَظِروا أنْ نُكْمِلَ، تَدَحْرَجوا إلى الطَّريقِ، ثُمّ تَسابقوا في ٱتِّجاهِ مُسْتَنْقَعِ قاسمو. فَعَلى حَوافِّ ذلِكَ ٱلمُسْتَنْقَعِ تَتَجاوَرُ حُفَرٌ ضَخْمَةٌ عَميقَةٌ، تَتَخَلَّلُها مَمَرّاتٌ ومَسالِكُ مُنْحَدِرَةٌ لِدُخولِ وخُروجِ ٱلعَرَباتِ.

كانَ جَدُّ عزّو، وَآخرونَ كَثيرونَ، يَكْسِبونَ رِزْقَهُم مِنْ بَيْعِ التُّرابِ ٱلأحْمَرِ، وَالرَّماديِّ، بحَسَبِ الطَّلَبِ. الأحْمَرُ لِصُنْعِ طوبِ ٱلبِناءِ، وَالرَّماديُّ كمِلاطٍ لِلتَّمْليسِ. يَأْتونَ بعَرَباتِهِم ٱلَّتي تَجُرُّها ٱلبِغالُ، ثُمَّ يَنْحَدِرونَ إلى أعْماقِ تِلْكَ ٱلحُفَرِ فَيَنْبِشونَ التُّرابَ بمَعاوِلِهِم ٱلمُدَبَّبَةِ. وَفي أثْناءِ تَحْميلِ ٱلعَرَباتِ، يَقومُ الصِّبْيَةُ، ٱلَّذينَ يُرافِقونَ هؤلاءِ ٱلحَفّارينَ ٱلأقْوِياءَ، بِفَكِّ ٱلبِغالِ، وَقِيادَتِها إلى نَهْرِ ٱلهِلاليَّةِ ٱلقَريبِ. يَغْسِلونَها، وَيَلْهونَ برُكوبِها،

ويَكْفي أن يُناديَهُم مُنادٍ ليَعودوا. وَعزّو يُرافِقُ جَدَّهُ عادَةً. وَكانَ أنْ رافَقَهُ لِلْمَرَّةِ الأخيرَةِ فَرَأى كَيْفَ دُفِنَ الشَّيخُ مَرَّتَيْنِ.

تَبِعْنا ٱلجَمْعَ الرّاكِضَ حتّى مُسْتَنْقَعِ قاسمو، ومِنَ ٱلحافّاتِ ٱلعاليةِ ٱسْتَعْرَضْنا الانْهِيارَ ٱلمُرَوِّعَ: ثَمَّتَ عَرَبَةٌ مُهَشَّمَةٌ في ٱلقاعِ، تَدَحْرَجَتْ بِفعْلِ ٱلانْجِرافِ التُّرابيِّ مِنَ ٱلأعْلى، وَكَذلِكَ أحَدُ ٱلبِغالِ، وَكانَ موهَناً، يَعْرُجُ في مِشْيَتِهِ، أمّا الرِّجالُ فمُنْهَمِكونَ على الرَّدْمِ، يُبَدِّدونَهُ بِرُفوشِهِم لِيَعْثُروا عَلى ٱلجَدّ.

أوه عزّو، كُنْتَ تَرْتَجِفُ كَنَبْتَةِ ٱلخَرْنوبِ. وكُنّا نَرْتَجِفُ أيْضاً. عَويلٌ وَرَنينٌ، وَشُرودٌ أخْرَسُ لِبِغالٍ خَرْساءَ تَقْتَرِبُ، بِدَوْرِها، لِتَرى. وَأخيراً بانَ قِسْمٌ مِن دَشْداشَتِهِ. جَرّوها فَتَمَزَّقَتْ، كَأَنَّما ٱلْتَصَقَتِ ٱلجُثَّةُ بِٱلأرْضِ. رَمَوُا الرُّفوشَ وَحَفَروا حَوْلَ ٱلجُثّةِ بِٱلأَيْدي. آهِ عزّو، كانَ الطَّرفُ ٱلمُدَبَّبُ لِلمِعْوَلِ غائِصاً بتَمامِهِ في خاصِرَةِ ٱلجَدِّ. إنْتَزَعوا ٱلمِعْوَلَ وَلَفّوا ٱلجُثَّةَ بِغِطاءٍ أصْفَرَ ما لَبِثَ أنْ تَبَقَّعَ مِن جِهاتِهِ كُلِّها بالدَّمِ. وَضَعوها في عَرَبَةٍ يَقودُها بَغْلٌ حَزينٌ، وتَبِعْنا ٱلعَرَبَةَ حتّى مُعَسْكَرِ أبْنائِهِ، ودَجاجاتِ أبْنائِهِ، وبَقَراتِهِم. وَبِالطَّبْعِ ظَلَلْنا واقِفينَ وَسَطَ ٱلحُشودِ، في ٱلمَمَرِّ، حتّى تَكْتَمِلَ فُصولُ ٱلمَوْتِ.

ذَهَبوا بِآلـجُثَّةِ إلى آلـمَسْجِدِ. غَسَلوها وَصَلّوا عَلَيْها، ثَمَّ أعادوها إلى عَرَبَةٍ من عَرَباتِهِم، مُتَّجِهينَ بها صَوْبَ قريةِ تُوبْز، مَسْقِطِ رأسِ آلـجَدِّ. وَتُوبْز على مَبْعَدَةِ عَشْرَةِ كيلومتراتٍ مِنَ آلـمَدينَةِ. سِباقٌ بَيْـنَنا وبَيْنَ آلبِغالِ، والـمُشَيِّعونَ يَتَناوَبونَ مَقاعِدَهُم في آلعَرَباتِ مَعَ الرّاجِلينَ.

فَرَحٌ حَقيقيٌّ أنْ نَرْكَبَ آلعَرَباتِ. فَرَحٌ صَريرُ عَجَلاتِها عَلى آلإسْفَلْتِ، وَقَعْقَعَةُ أخْشابِها. وَجَلالُ آلـمَوْتِ لا يَمْحو اللَّهْوَ، إذْ نَقْتَلِعُ في الطّريقِ جُذورَ آلـحَرْشوفِ آلـحُلْوِ لِنَأْكُلَها، أو نَنْبُشُ جُحورَ عَناكِبِ التُّرابِ، تِلْكَ آلـجُحورَ الضَّحْلَةَ، آلـمَكْشوفَةَ، آلَّتي تَتَراءى واضِحَةً في آلعراءِ كَبراكينَ صَغيرَةٍ جِدّاً. أمّا آلعَناكِبُ، هذِهِ، فبَطيئَةٌ طَريفَةٌ، نَضَعُها فَوْقَ حَفْنَةِ التُّرابِ في أيْدينا فتَدورُ على نَفْسِها قَليلاً، ثُمّ تَدْفَعُ التُّرابَ مَرَّةً إلى أمامَ، ومَرَّةً إلى وَراءَ، حتّى تَخْتَفيَ تَحْتَ قِشْرَةٍ هَيِّنَةٍ مِنْها. وَتَكْفي قَطْرَةُ ماءٍ لِتَخْرُجَ مِنَ الجُحْرِ، وَحينَ لا نَجِدُ آلماءَ نَبْصُقُ فيها، وَسِيّانِ عِنْدَها آلماءُ وَالتُّفْلُ.

آه عزّو، هذِهِ هِيَ تُوبْز إذَنْ؟ لَقَدِ آنْحَرَفْنا عنِ الطَّريقِ آلإسْفَلْتيِّ إلى مَسالِكَ تُرابيَّةٍ رَسَمَتْها آلعَرَباتُ وَأظْلافُ آلأغْنامِ،

وَعَصْراً أَلْفَيْنا أَنْفُسَنا أمامَ أَشْباحِ كَهْلَةٍ لا لَوْنَ لها؛ أَشْباحِ مَنازِلَ لَمْ يَخْرُجْ مِنْها أحَدٌ لِيَرى ٱلْمَوْكِبَ. ما هَمَّ يا تُوبْز، الدِّيَكَةُ وَحْدَها مَدَّتْ أعْناقَها في فُضولٍ، ثُمَّ رَجَعَتْ إلى بَحْثِها ٱلأزَلِيِّ عن بِذْرَةٍ ضائِعَةٍ.

مرَّ ٱلْمَوْكِبُ بِمُحاذاةِ ٱلْقَرْيَةِ. جاوَزَها قَليلاً لِيَقِفَ في مُواجَهَةِ ٱلْمَقْبَرَةِ تَماماً. مَحْضُ كُتَلٍ مُسْتَطيلةٍ من التُّرابِ تَكادُ تَنْدَثِرُ. لا شَواهِدَ حَجَرِيَّةٌ، لا رَقائِقَ مِنَ ٱلآجُرِّ أوِ ٱلْخَزَفِ. تُرابٌ مُحْدَوْدِبٌ يَكادُ يَسْتَسْلِمُ لِآخِرِ فُكاهَةٍ تُطْلِقُها الرّيحُ. تُرابٌ سَيَتَفَجَّرُ بِٱلقَهْقَهَةِ ويَمْضي، وسَتَبينُ ٱلهُوَّةُ ٱلعَمْياءُ تَحْتَ أساساتِ تُوبْز الرَّخْوَةِ، حَيْثُ يَجْلِسُ ٱلْمَوْتى، مُنْذُ آلافِ السِّنينِ، حَوْلَ قِدْرٍ يَغْلي عَلى نارٍ خَفيفَةٍ، وَفي أيديِهِم صُحونٌ مِنَ التّوتياءِ، وَأَرْغِفَةٌ مِنْ دَقيقِ الشُّوفانِ، وقُرْبَ ظِلالِهِمُ ٱلْمُسْتَطيلَةِ تَجْثُمُ بِغالٌ لَمْ يَبْقَ مِنْها إلّا هياكِلُ مُضيئةٌ، تَمْضَغُ مَناديلَ ٱلآلِهَةِ وَأَذْيالَ عَباءاتِها.

الحُفْرَةُ جاهِزَةٌ. ثَمَّتَ مَنْ سَبَقَنا وأعَدَّ ٱلمَرْقَدَ. أنْزَلوا ٱلجُثَّةَ ٱلْمُكَفَّنَةَ في جَلالٍ. «وَسِّعوا قَليلاً يَرْحَمْكُمُ ٱللَّهُ»، والرُّؤوسُ ٱلفُضوليّةُ تَتَدافَعُ مِنْ فَوْقِ ٱلأكْتافِ، أمّا ٱلأرْجُلُ فَكانَتْ تَطَأُ

التُّرابَ الرَّطْبَ على حَوافِّ ٱلـحُفْرَةِ، وتُبَعْثِرُ ثُلَّةً من ٱلعِظامِ، إذْ بَدا واضِحاً أنَّهُم حَفَروا مَكانَ قَبْرٍ قَديمٍ، لكِنَّهم لَمْ يُكَلِّفوا أنْفُسَهم ـ بَعْدَ عَناءِ ٱلحَفْرِ ـ تَرْكَ الضَّيْفِ ٱلعَظْمِيِّ فَأَقْلَقوهُ. رَمَوْهُ مَعَ التُّرابِ خارِجاً: «وَسِّعوا لِلْكَريمِ ٱبْنِ ٱلكَريمِ يَرْحَمْكُمُ ٱللَّهُ». وَها نَحْمِلُ جُمْجُمَةَ ٱلكائِنِ ٱلَّذي لا ٱسْمَ لَهُ. جُمْجُمَةٌ مُهْتَرِئَةٌ ضاعَ صَفٌّ مِنْ أسنانِها. وَحينَ أهالوا التُّرابَ على ٱلـحُفْرَةِ لَمَحوها بَيْنَ أيْدينا، فَصَرَخوا: «هاتوها. هاتوا كُلَّ عَظْمَةٍ تَرَوْنَها خارِجاً لِنَدْفِنَها مِنْ جَديدٍ»، فٱنْحَنَيْنا عَلى ٱلأرْضِ في بَحْثٍ مَحْمومٍ عَنِ ٱلعِظامِ، حتّى جَمَعْنا قَدْراً هائِلاً ٱخْتَلَطَ فيه عَظْمُ ٱلـمَيِّتِ بعَظْمِ الدَّجاجِ، وٱلـخِرافِ، وحَيَواناتٍ أُخْرى جَرَّتْها ٱلكِلابُ إلى ٱلـمَقْبَرَةِ. لَمْ يُعايِنْها أحَدٌ. رَمَوْها في ٱلـحُفْرَةِ، بدَوْرِها، وَطَمَروها. «تَغَمَّدَكُمُ ٱللَّهُ...»، ثُمَّ جَلَسَ المُشَيِّعونَ في حَلْقَةٍ كَبيرةٍ حَوْلَ ٱلقَبْرِ، وَبَدَأَ النُّواحُ والنَّدْبُ. وَبَعْدَ ساعةٍ مِنْ أداءِ ٱلـجَوْقَةِ فَتَحَ أعْمامُ عزّو صَفيحَةَ ٱلـحَلاوَةِ، نَثَروها على أرغِفَةِ التَّنّورِ وقَسَّموا ٱلأرْغِفَةَ بَيْنَ ٱلـمُشَيِّعينَ: «كُلُوا عَنْ روحِهِ...». وَأَكَلَ ٱلـجَميعُ، حتّى أولئِكَ ٱلأكثَرُ حُزْناً لِفَقْدِ ٱلـجَدِّ. «عَنْ روحِهِ. عن روحِ ٱلكَريمِ ٱبْنِ ٱلكَريمِ. كُلوا لِيَهْدَأَ».

كانَ آلمَغيبُ يَسْتَلُّ ظِلالَهُ آلبارِدَةَ مِنْ غِمْدِها آلأرْضِيِّ، ويَنْثُرُ آلوَحْشَةَ. هُرِعْنا إلى آلعَرَباتِ، أو مَشْياً وَراءَها، وَعُدْنا، بَيْنَما بَقِيَ آثْنانِ مِنْ أوْلادِ آلجَدّ جالِسينَ قُرْبَ آلقَبْرِ لِمُؤانَسَةِ جَدِّهِم. هكَذا تَقْضي آلعادَةُ، فَآلقَبْرُ موحِشٌ، وَعَلى بَعْضِ آلأحْياءِ أنْ يُؤازِروا آلمَيِّتَ في ساعاتِ دَفْنِهِ آلأولى، إذْ يَأْتي آلمَلَكانِ، مُنْكَرٌ ونَكيرٌ، يَحْمِلانِ مِطْرَقَتَيْنِ وَحَفْنَةً مِنَ آلأسْئِلَةِ، كُلَّما أخْطَأَ آلمَيِّتُ في الإجابَةِ عَلَيْها دَفَعوهُ إلى آلأعْماقِ، بضَرْبَةٍ واحِدَةٍ، ألْفَ ذِراعٍ، أوْ ضَيَّقوا عَلَيْهِ آلحُفْرَةَ حتّى تَخْتَنِقَ روحُهُ ألفَ مَرّةٍ. وإنْ أصابَ في الإجابَةِ نَفَحوهُ بَعْضَ طَعامِ آلجَنَّةِ، وَوَسَّعوا عَلَيْهِ آلحُفْرَةَ إلى يَوْمِ آلقِيامَةِ. وَوُجودُ أحْياءٍ حَوْلَ آلقَبْرِ يُسْعِفُ آلمَيِّتَ في تَمالُكِ أعْصابِهِ لآجْتِيازِ الآمْتِحانِ.

والشِّمالُ آمْتِحانٌ. جِهَةُ الضَّجَرِ آلكَبيرَةُ سَيِّدَةُ الجِهاتِ في آمْتِحانِها. تَأْخُذُ كُلَّ شَيْءٍ لِتُعْطِيَكَ آلبَسالَةَ والتَّهَوُّرَ. وفي أضْعَفِ حالٍ تَجْعَلُكَ وَكيلاً عَلى مِلْكٍ لا يُرى، أو حارِساً لِلْهَواءِ. لكِنَّ آبْنَ حجي كفر وَكيلُ الضَّحِكِ في آلأرْضِ، لَمْ يَنْقَطِعْ عَنْ ذلِكَ في أثْناءِ عَوْدَتِنا مِنْ جَنازَةِ جَدِّ عزّو. ولَمْ يَنْقَطِعْ قَبْلَ ذَلِكَ بِالطَّبْعِ. يُوَبِّخونَهُ فَيَضْحَكُ. يَضْرِبونَهُ

فَيَضْحَكُ. يَشُجّونَ رَأْسَهُ، أوْ يَكْسِرونَ ساقَهُ، فَيَضْحَكُ. لَيْسَ أبْلَهَ قَطُّ، لكِنْ مَنْ يَراهُ لِلْمَرَّةِ الأولى لا يَشُكُّ في بَلاهَتِهِ: ٱبْتِسامَةٌ عَريضَةٌ في وَجْهٍ عَريضٍ، تَحْتَ عَيْنَيْنِ لا تَثْبُتانِ عَلى شَيْءٍ، دائِمَتَي ٱلحَرَكَةِ كَنواسِ السّاعةِ.

إسْمُهُ أمينٌ، ونُسَمّيهِ ٱبْنَ حجي كفْر، أي ٱبْنَ ٱلحاجِّ حَجَر، لِأنّ والِدَهُ لا يُخْطِئُ في رَمْيِ ٱلحَجَرِ. يَرْمي دَجاجاتِ ٱلجيرانِ إذا ٱقْتَرَبَتْ مِنْ حَقْلِ ٱلبَصَلِ والرَّشادِ فَتَهْوي. وحَقْلُهُ لا يَتَعَدّى خَمْسَةَ أمْتارٍ مُرَبَّعَةٍ... خُصومَةٌ أبَدِيَّةٌ بينَهُ وَبَيْنَ الدَّجاجِ، وخُصومَةُ الدَّجاجِ تَجُرُّ عَلَيْهِ خُصومَةَ جيرانِهِ. خِصامٌ في خِصامٍ، وَٱلحاجُّ يَحومُ كَديكٍ في عَباءَتِهِ الصَّيْفِيَّةِ ٱلمُقَصَّبَةِ: «يا ٱبْنَةَ الكَلْبِ»، ويَرْمي بحَجَرٍ. «يا ٱبْنَةَ ٱلبَوْلِ»، ويَرْمي بحَجَرٍ. وتُضْطَرُّ الدَّجاجاتُ أنْ تُراقِبَ حَقْلَهُ مِنْ بَعيدٍ، وَفي وُدِّها أنْ تَنْقَرِضَ ٱلحِجارَةُ لِيَتَكافَأَ الصِّراعُ.

كُنّا نُمْضي ٱللَّيالِيَ ٱلخَمْسَ ٱلأخيرَةَ مِنْ رَمَضانَ في ٱلمَسْجِدِ، بَدْءاً مِنَ ٱلغُروبِ حَتّى السَّحَرِ، نَتَلَمَّسُ لَيْلَةَ القَدْرِ غَيْرَ ٱلمَعْلومَةِ، عَسى تَمْتَلِئُ خَزائِنُ بُيوتِنا ٱلفارِغَةُ بالسَّمْنِ أَوْ بِالذَّهَبِ. وَفي صِبانا ذاكَ، لَمْ نَعُدْ مُقْتَنِعينَ بِٱلأمْرِ، لا أحَدَ

أخْبَرَنا، ذاتَ صَباحٍ، أنَّ لَيْلَةَ ٱلقَدْرِ نَثَرَتْ عَلى بَيْتِهِ شَذَراتٍ مِنْ قِشْرِ العَدَسِ، أوْ مِنَ الطّينِ. لكِنّ ٱلمَسْجِدَ تَحَوَّلَ إلى مَكانِ مُؤانَسَةٍ خَفِيٍّ، وَٱجْتِماعاتٍ لَيْلِيَّةٍ قانونيَّةٍ كانَ يَحْظُرُها آباؤُنا عَلَيْنا في ٱلأيّامِ ٱلعاديَّةِ مِنَ السَّنَةِ. وَنَحْنُ نَعْرِفُ كَيْفَ سَيَتَصَرَّفُ ٱلكِبارُ سَلَفاً، وَكَيْفَ سَيُخْلونَ لنا السّاحَةَ. ففي الشَّوْطِ ٱلأوَّلِ مِنَ ٱللَّيلِ يَأْتونَ خاشِعينَ، وَنَتَصَنَّعُ ٱلخُشوعَ مَعَهُم. يَتَثاءَبونَ، بَعْدَ ذلك، ويَنْسَلّونَ، واحِداً وَراءَ ٱلآخَرِ، فَنَبْقى نَحْنُ. وإذْ يَنْفَضّونَ عَنِ ٱلمَسْجِدِ تَتَزاحَمُ شَياطينُنا. نَصْعَدُ فَنُقَلِّدُ ٱلإمامَ. أمّا ٱبْنُ حجي كفر فيُقَلِّدُ قاسمو في ٱلأذانِ. ويُلَعْلِعُ صَوْتُهُ ٱلحادُّ: «حَيَّ على..»، وَقَبْلَ أنْ يُكْمِلَ تَفْجَؤُهُ ٱلقَهْقَهَةُ «ها ها... على بَلَدي ٱلمَحْبوب». يَنْقَلِبُ ٱلأذانُ إلى غِناءٍ. لا يُكْمِلُ أمينُ شَيْئاً. القَهْقَهَةُ كُلَّ ثانِيَتَيْنِ. قَهْقَهَةٌ تُرَدِّدُها الجُدرانُ ٱلإسْمَنْتيَّةُ ٱلعاليَةُ، قَبْلَ أنْ تَتَدَحْرَجَ على ٱلحُصُرِ وَالسَّجاجيدِ، وتَرْتَطِمَ بِٱلأحْذِيَةِ ٱلمَصْفوفَةِ أمامَ ٱلبَوّابَةِ. وَنَسْأَلُ أنْفُسَنا: مَنِ ٱلَّذي ضَحِكَ، أوّلَ مَرَّةٍ، آنَ وُلِدَتِ ٱلأَرْضُ؟ أيُّ دَعابَةٍ، في ذلِكَ الزَّمَنِ ٱلموحِشِ، جَعَلَتْ شَفَتَيْهِ تَفْتَرّانِ عَنْ أسْنانِهِ، وصَعِدَتْ مِن حَنْجَرَتِه ٱلقَهْقَهَةُ؟ سَنَظَلُّ نَسْأَلُ عَنِ النَّشْءِ

ٱلأوَّلِ لِلأُمورِ، إلهي. سَنُرَدِّدُ: أيُّ ٱبْنِ قَحْبَةٍ عَرَفَ ٱلبَصَلَ، مَثَلاً؟ وأيُّ ٱبْنِ جَرادَةٍ عَرَفَ التَّبْغَ؟ مَنْ تَذَوَّقَ ٱلإجّاصَ، وَنَهْنَهَهُ ٱلبُكاءُ؟ لِماذا نَتَكَهَّنُ بِٱلمَصادِرِ ٱلأولى، إلهي؟ كانَ حَرِيّاً بِالَّذينَ عَرَفوا جُذورَ سُؤالاتِهِم أنْ يَكْتُبوها. كانَ حَرِيّاً بِكَ، إلهي، أنْ تُلْهِمَ ٱبْنَ ٱلعاهِرَةِ ٱلأوَّلَ، الَّذي ضَحِكَ عَقِبَ تواجُدِهِ في ٱلأرْضِ، أنْ يَشْرَحَ على وَرَقَةٍ، أو حَجَرٍ، هَذا الآنْفِعالَ، ولِماذا هُوَ تَعْبيرٌ عَنْ تَرْفيهٍ، أو تَعْبيرٌ عَنِ الشَّطْرِ ٱلمُهَرِّجِ مِنْ روحِهِ؟ وما ٱلَّذي جَرى لِيَضْحَكَ؟ كانَ حَرِيّاً بكَ، إلهي، أنْ تُلْهِمَ ٱلجَمْعَ ٱلأوَّلَ كَيْفَ يَكْتُبُ سَبَبَ الرَّقْصِ، وَالرُّعْبِ، وَٱنْشِغالِ ٱلآباءِ بِٱلأبْناءِ، وَٱلمِلْكِيَّةِ، وإيمانِهِم بِكَ أنْتَ. فنَحْنُ ٱلقَريبينَ مِنْ عَصْرِ ٱنْبِجاسِ ٱلكائِنِ كنافورَةٍ مُعْتِمَةٍ في الظَّلامِ نَتَكَهَّنُ بِكُلِّ ذلِكَ. نَتَكَهَّنُ فَحَسْبُ. نُخَمِّنُ، ونُقَلِّبُ ٱلأُمورَ على وَجْهِها حتّى تَمَّحيَ ٱلوُجوهُ، فَكَيْفَ بِٱلبَعيدينَ، ٱلمُقْبِلينَ مِنْ عُصورٍ، في ٱلمُسْتَقْبَلِ، أكْثَرَ بُعْداً مِمّا يُصيبُهُ الظَّنُّ؟ سَيَتَكَهَّنونَ. سَتَزْدادُ كَهانَتُهُم وَتَخْمينُهم، وَسَيَكونونَ أقَلَّ يَقيناً مِنّا، وَمَنْ يَقِلُّ يَقينُهُ يَتَسَلّى بِٱخْتِراعِ ٱليَقينِ. لكنَّنا نَعْلَمُ، سَلَفاً، أنَّ جُنونَهُم سَيُجاوِزُ جُنونَنا، ولَنْ يَقِفوا عِنْدَ حُدودِ عِظامِ جَدٍّ

عزو وَأساساتِ تُوبْز ٱلَّتي سَتَنْدَثِرُ. لَنْ يُحاوِلوا مَعْرِفَةَ شَيْءٍ عَنّا، فَنَحْنُ وَصْلَةٌ مُهْمَلَةٌ لا يُؤْبَهُ لها في تاريخٍ مُهْمَلٍ بِرُمَّتِهِ، لكِنَّهُم سَيَقِفونَ طَويلاً عِنْدَ ضِحْكَةِ ٱبْنِ حجي كفْر، وسَيُحَلِّلونَ ـ عَبْرَها ـ ٱلبُنى، وَٱلهَنْدَسَةَ وَٱلخُسوفَ، وَٱلكُسوفَ، وَٱلكِتابَةَ ٱلحَمْقاءَ، وَٱلمُصادَفَةَ ٱلَّتي خَلَقَتِ الشِّمالَ كُلَّهُ. ضِحْكَةٌ تَفْتَحُ التّاريخَ عَلى مِصْراعَيْهِ لِآلاتِ ٱلمُسْتَقْبَلِ ٱلكَلْبِ، وَتَجْعَلُ رُؤوسَ كائِناتِهِ تَتَدافَعُ مِنَ ٱلبابِ لِتُلْقِيَ نَظْرَةً عَلى بِغالِنا ٱلمُضيئَةِ.

أمينُ... أمينو... ٱبْن حجي كفْر، أَوْقِفْ ضَحِكَكَ كَيْ لا توقِظَ ميرو وأَكْباشَهُ، كَيْ لا توقِظَ ٱلحُكومَةَ، وَمُوَظَّفي مَسْحِ ٱلأراضي. لكِنْ، هَيْهاتَ، الضَّحِكُ سَمادُ أمينٍ، سَمادُ خَلاياهُ، وَهُوَ ٱلآنَ أَشَدُّ صَخَباً. فَٱليَوْمَ عُرْسٌ. وَنَقولُ لَهُ: «سَيُفَصِّلُ دريج قُبَّعَةً لِأُخْتِكَ، وقُبَّعَةً لَكَ»، فَلا يَزْدادُ إلّا ضَحِكاً.

إنّه عُرْسُ بِنْتِ حجي كفر أخْتِ أمينٍ، الفَتاةِ الضَّخْمَةِ ٱلَّتي لا تُجاوِزُ السّادِسَةَ عَشْرَةَ. وَدريج هُوَ خَطيبُها، في ٱلعِقْدِ ٱلخامِسِ مِنْ عُمْرِهِ. لهُ زَوْجَةٌ وَسِتَّةُ أوْلادٍ، وأُخْتُ أمينٍ سَتَكونُ الثّانيَةَ، بَعْدَما دَفَعَ مَهْراً مُجْزِياً. «سَيَصْنَعُ قُبَّعَةً لكَ يا أمينُ»، نَقولُها، ونَحومُ مِنْ حَوْلِهِ، وَٱلمَعْنى ٱلخَفِيُّ للعِبارَةِ الشّائِعَةِ،

هذِهِ، أنَّ ٱلعَريسَ سَيَجْعَلُ مِنْ غِشاءِ ٱلبَكارَةِ قُبَّعَةً لعُضْوِهِ. وَأمينُ يَضْحَكُ، أمّا أُخْتُهُ فَتَتَصَنَّعُ ٱلوَقارَ وَٱلحُزْنَ ـ مِثْلَما دَرَّبَها أهْلُها ـ وَسَطَ حَلَقاتِ النِّساءِ ٱلمُحيطاتِ بِها، وَوَسَطَ أغانٍ تَقْضَمُ ٱلمُغَنِّياتُ نِصْفَ كَلِماتِها، فَالصَّخَبُ هُوَ ٱلمُرادُ، لِذلِكَ لا يَأْبَهْنَ لِلْمَعاني.

وقُرْبَ ٱلجَمْعِ ٱلمُغَنّي ذاكَ، كانَتْ زَوْجَةُ دريج ٱلأولى تَحومُ كَباشِقٍ، تَهْجُمُ عَلى ٱلمُعَرِّسينَ فَتَتَطايَرُ أسْرابٌ مِنْ مَناديلِ النِّساءِ قَبْلَ أنْ يَرْدُدْنَها. وَبَعْدَ ٱستِراحةٍ قَصيرةٍ مُزْبدَةٍ تُعيدُ الكَرَّةَ، فَتَتَطايَرُ أسْرابٌ مِنَ ٱلأوْشِحَةِ، وتَتَناثَرُ عُقودٌ مِنْ خَرَزٍ. وَحينَ تَنْكَفِىءُ تَصْرُخُ: «حجي كفر، أنا سَأَفُضُّ ٱبْنَتَكَ، لا دريج»، ويُشيحُ حجي بِوَجْهِه عَنْها، نابِحاً: «أبْعِدوا المَسْعورَةَ، بِٱللَّهِ عَلَيْكُم».

في تِلْكَ ٱللَّيْلَةِ، وَفي غُرْفَةِ الزَّوْجَةِ الأولى ذاتِها، دَخَلَ دريج عَلى عَروسِهِ. وَدريج لا يَمْلِكُ إلّا هَذا ٱلبَيْتَ بغُرَفِهِ الثَّلاثَةِ، وَعَلى عِيالِهِ أنْ يَناموا في غُرْفَةٍ ثانِيَةٍ بَعْدَ الآنَ. لكِنَّ الزَّوْجَةَ الأولى ظَلَّتْ في ٱلباحَةِ، تَهْجُمُ بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ عَلى النّافِذَةِ ٱلمُضيئَةِ: «أيُّها ٱلمُتَهَدِّلُ، بِأيِّ شَيْءٍ سَتَفْتَضُّها؟ خُذْ مَعَك

آلمِكْنَسَةَ يا عِنّينُ». ولَمْ يَطُلْ مُكوثُ دريج في الدّاخِلِ. خَرَجَ مُرْتَعِداً: «إنّها كَآلمَذْبوحِ». وهُرِعُ بَعْضُ النِّساءِ إلى الداخِلُ: «يا أللَّهُ!! هاتوا سَيّارةً». جاءَتِ السَّيّارَةُ لتَتَوَجَّهَ بِآلعَروسِ إلى المُسْتَشْفى. «مَزَّقَها»، تَهْمِسُ النِّساءُ في شَبَقٍ خَفِيٍّ. «دريج حِصانٌ آبْنُ حِصانٍ». ولَمْ يَطُلِ آلأمْرُ بدريج مَعَ عَروسِه بَعْدَ ذلِكَ. سِتّةَ أشْهُرٍ فَقَطْ، وعادَتْ أُخْتُ أمينٍ إلى بَيْتِ أبيها، والسِّرُّ عِنْدَ آللَّهِ. أمّا أمينٌ فَيَضْحَكُ. «أخَذوا أخاكَ الأكْبَرَ إلى السِّجْنِ»، ويَضْحَكُ. «هَجَمَ أخوكَ لَيْلاً على جارَتِهِ آلبَدَويَّةِ آلمَوْشومَةِ»، ويَضْحَكُ. «كانَ عَشيقَها لفَتْرَةٍ طَويلَةٍ، فلِماذا صَرَخَتْ تِلْكَ آللَّيْلَةَ؟»، ويَضْحَكُ. «أخوكَ آلمُتَأَنِّقُ، آلَّذي لا يُسَلِّمُ عَلى أحَدٍ، كأنَّهُ مِن عالَمٍ آخَرَ. أخوكَ آلمُتَرَفِّعُ آلَّذي تَصْحَبُهُ حَقيبَتُهُ دائِماً. أخوكَ آلَّذي آخْتَلَسَ ألْفَ ليرةٍ من صُنْدوقِ عَمَلِهِ، يَدْخُلُ السِّجْنَ لِلْمَرَّةِ الثّانيَةِ»، ويَضْحَكُ. «أخوكَ... أخوكَ» ويَضْحَكُ أمينٌ. يا لَلآلِهَةِ. وَلْتَحْرُسِ آلحِجارَةُ حَقْلَ حجي كفر.

النَّفير الثّاني

لَيْسَ سُقوطَ حُكومَةٍ ما نَراهُ؛ لا، لَيْسَ صُعودَ حُكومَةٍ. بَلِ ٱلبَدْوُ يَهْجُمونَ عَلى سينما شَهْرَزاد. كانَ ٱلبَدْوُ يَقْتَحِمونَ ٱلمَدينَةَ مِن كُلِّ ٱلجِهاتِ. بَدْوٌ راجِلونَ، وَبَدْوٌ في عَرَباتٍ تَجُرُّها ٱلبِغالُ، وَبَدْوٌ عَلى ٱلحَميرِ، وَبَدْوٌ في شاحِناتٍ كَبيرَةٍ. بَدْوٌ إذْ يَنْفُضونَ ٱلغُبارَ عن ثِيابِهِمْ تَعْلو غَيْمَةٌ صَفْراءُ عَلى طولِ الطُّرُقِ وَعَرْضِها، وَلَرُبَّما غَطَّتِ ٱلمَدينَةَ لِيَوْمَيْنِ. مُعْظَمُهُم حُفاةٌ، وَآخَرونَ يَرْتَدونَ نِعالاً مِن مَطّاطٍ، مَشْدودَةً إلى سيقانِهِم بِخُيوطِ ٱلقِنَّبِ. يَفِدُونَ فَوْجاً فَوْجاً، ويَقْتَعِدونَ ٱلأَرْصِفَةَ، أو يَفْتَرِشونَها، وَكُلُّ خَمْسَةٍ، أَوْ أَكْثَرُ، يَتَوَزَّعونَ ٱلبَطّيخَ ٱلمُهَشَّمَ بِٱلأَيْدي، حَيْثُ تَسيلُ ٱلعُصارَةُ ٱلحَمْراءُ على ذُقونِهِمْ وَصُدورِهِم، وإذْ يَنْتَهونَ يَمْسَحونَ أَفْواهَهُم بِأَرْدانِ دَشْداشاتِهِم، ثُمَّ يَتَجَشَّؤونَ ويَسْتَلْقونَ.

في ٱلفصلِ الرّابعِ مِنَ السَّنَةِ، حينَ تَتَهَدَّلُ السَّماءُ كَأَثْداءِ

ٱلكَلْبَةِ ٱلـمُرْضِعِ، وَتَغْلي الظِّلالُ، تَفْتَحُ دارُ السّينَما الصَّيفيَّةِ أبْوابَها ـ سينَما شَهْرَزاد، ذاتِ ٱلـمَقاعِدِ الـخَشَبِيَّةِ الطَّويلَةِ، ٱلـمُبْتَلَّةِ أبداً بٱلـماءِ ٱلَّذي يَرُشّونَه عَلى أرضِيَّتِها، عَصْراً، للتَّخْفيفِ مِنْ وَهْجِ ٱلإسْمَنْتِ. سينَما شَهْرَزاد ٱلَّتي نَسْتَطيعُ أنْ نُشاهِدَ عُروضَها مِنَ التِّلالِ ٱلواقِعَةِ في شِمالِ ٱلـمَدينةِ. وَكانَ ٱلبَدْوُ يَصْعَدونَ تِلْكَ التِّلالَ أيْضاً، بَيْنَ ٱلعَرْضِ وَٱلعَرْضِ، في ٱنْتِظارِ دَوْرِهِم لِلدُّخولِ إلى فيلم عَنْتَرَةَ بْنِ شَدّادٍ، ٱلَّذي ٱسْتَمَرَّ عَرْضُهُ صَيْفاً كامِلاً، وَبَعْضاً مِنْ أيّامِ ٱلخَريفِ.

البَدْوُ في كُلِّ مَكانٍ، وَلِلرَّصيفِ الَّذي يُفْضي إلى السّينَما حَظُّهُ الأوْفَرُ مِنْهُم. يَأْتونَ في الصَّباحاتِ وَيَنْتَظِرونَ حتّى ٱلـمَساءِ، حَيْثُ تَسْتَقْبِلُ السّينَما ٱلَّتي لا سَقْفَ لـها أوَّلَ الدّاخِلينَ. وإذْ يَخْرُجونَ يَنامونَ عَلى ٱلأرْصِفَةِ، ليَمْضوا في الصَّباحِ إلى قُراهُمُ ٱلبَعيدةِ. لا نَعْرِفُ مَنْ دَلَّهُم على هَذا ٱلفيلم، لكِنَّهُم أتَوْا. وَمِنْهُم مَنْ شاهَدَه عَشْرَ مَرّاتٍ. كانوا مَبْهورينَ بعَنْتَرَةَ. يَصِلُ صُراخُهُم إلى أقْصى ٱلـمَدينَةِ في لَـحَظاتِ حَماسَتِهِمْ: «هاي هاي، ٱنْتَبِهْ يا عَنْتَرَة. هاي هاي، ٱنْتَبِهي يا عَبْلَة»، وَقَدْ يَسْتَلّونَ خَناجِرَهُمُ ٱلـمُخَبَّأَةَ تَحْتَ السُّتْراتِ،

كَأَنَّهُم في طِرادٍ حَقيقيٍّ يُحاوِلونَ حَمْلَ جُزْءٍ من ثِقْلِ ٱلحُروبِ عَنْ كاهِلِ مَعْبودِهِمُ ٱلأَسْوَدِ. لكنّ حُروباً صَغيرةً حَقيقيَّةً كانَتْ تَنْتَظِرُهُم، دائِماً، أمامَ بَوّابَةِ السّينَما، إذْ يَنْخَرِطُ النَّشّالونَ الصِّغارُ في جَمْهَراتِهِمْ، وَبَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ تَعْلو المَنْدَبَةُ: «سَرَقوني يا ااااي»، وَتَلْحَقُ ثُلَّةٌ مِنْهُم بشَخْصٍ راكِضٍ، سَرْعانَ ما يَخْتَفي في أزِقَّةِ سوقِ ٱلخُضارِ. غَيْرَ أنَّ نَشّالينَ مِنْ نَوْعٍ آخَرَ كانوا يَنْصُبونَ لِهؤلاءِ السُّذَّجِ أحابيلَ مُرَّةً، وَهُم لاعِبو ٱلكُشْتُبانِ، وَٱلوَرَقاتِ الثَّلاثِ، وَيانَصيبِ ٱلعَشْرَةِ قُروشٍ. يَأْتونَ مع شُرَكائِهِم، فيُلاعِبُ بَعْضُهُم بَعْضاً في طَريقَةٍ تَجْعَلُ الرِّبْحَ سَهْلاً، أمامَ أعْيُنِ ٱلبَدْوِ، وَإذْ تَنْطَلي ٱللُّعْبَةُ عَلَيْهِم يَكونُ قَدْ فاتَ ٱلأوانُ. يَنوحونَ ويَنْدُبونَ، بَيْنَما يَنْسَلُّ أَوْلادُ الكُشْتُباناتِ في هُدوءٍ، بَحْثاً عَنْ فَرائِسَ أُخْرى.

مَوْسِمُ ٱلبَدْوِ مَوْسِمُ يَقَظَةِ ٱلحِيَلِ وَٱلأحابيلِ. يَرْبُطُ ٱلأطْفالُ السَّكاكينَ إلى خُيوطٍ رَفيعةٍ، وَيُلْقونَ بها في طَريقِ ٱلبَدْوِ ثُمَّ يَخْتَبِئونَ، وإذْ يَنْحَني هَؤلاءِ لاَلْتِقاطِها يَجُرُّ ٱلأطْفالُ ٱلخُيوطَ فَيَرْكُضُ ٱلبَدْوُ وَراءَها. وَالصِّبْيَةُ الرّاشِدونَ يَدُلّونَهُم عَلى طَريقِ السّوقِ ٱلعُموميّةِ، فَتَنْتَهِبُهُمُ ٱلعاهِراتُ وَٱلقَوّادونَ. يَأْخُذونَ مِنْهم

ٱلأسْعارَ مُضاعَفَةً، وَقَدْ تَكْتَفي عاهِرَةٌ ما أنْ تُريَ ٱلبَدَويَّ فَخْذَها، أَوْ ثَدْيَها مُقابِلَ ما يَدْفَعُ. أو قَدْ يَكْتَفي ٱلبَدَوِيُّ بِبَعْضِ ٱلمُداعَباتِ الشَّفَهِيَّةِ، بَلْ يَكْتَفي آخَرونَ مِنْهم بُقبْلَةٍ، ويَنْتَهي ٱلأمْرُ. وَهُمْ يَعودونَ مِنَ السّوقِ ٱلعُموميَّةِ مُبْتَهِجينَ، عَلى أيَّةِ حالٍ. «يا لَلشِّفاه ٱلحَمراءِ والرِّقابِ ٱلبَضَّةِ»، وَٱلحَقُّ مَعَهُم، فَنِساؤُهُم لا يَغْتَسِلْنَ قَطُّ، داكناتُ ٱلجُلودِ، وَعَليهِنَّ طَبَقَةٌ مِنَ الصَّدَأِ في سَماكَةِ ثِيابِهِنَّ. «جوجو... آه جوجو»، يَلْفُظونَ ٱلأسْماءَ في بَهْجَةٍ تَعْدِلُ ٱكْتِشافَ كَوْكَبٍ؛ «زوزيكا». يا لَعَنْتَرَةَ ٱلعَبْسِيِّ.

ويَنْتَهي الصَّيْفُ وَالزِّحامُ عَلى أشُدِّهِ أمامَ دارِ السّينَما. تَأْتي ٱلغُيومُ ٱلأولى بِقطَراتِها وَٱلبَدْوُ لا يُغادِرونَ ٱلمَقاعِدَ ٱلخَشَبِيّةَ. يَنْهَمِرُ ٱلمَطَرُ فَيَجْلِسُ ٱلبَدْوُ تَحْتَ ٱلمَقاعِدِ. تُغْلِقُ السّينَما أبْوابَها وبَعْضُهُم يَنْتَظِرُ الدُّخولَ.

وَفي الصَّيْفِ الثّاني ٱفْتَتَحَتِ الدّارُ مَوْسِمَها بِالفيلمِ ذاتِه، لكِنَّ اللُّعْبَةَ لَمْ تَنْطَلِ عَلى ٱلبَدْوِ. كانوا يَخْرُجونَ وَيَهْتِفونَ بِالآخَرينَ: «شاخَ عَنْتَرَةُ يا إخْوانُ، هُوَ لا يَصْرُخُ جَيِّداً هذِهِ السَّنَةَ». وفِعْلاً، ٱنْفَضَّ ٱلبَدْوُ وَلَمْ يَرْجِعوا قَطُّ، فَٱسْتَبْدَلَتِ الدّارُ ٱلفيلمَ بفيلمٍ آخَرَ، في ٱلأُسبوعِ الثّاني مِنْ عَرْضِهِ.

كانَ في آلمَدينَةِ دارانِ صَيْفِيَّتانِ. سينَما شَهْرَزاد، وَسينَما كربيس. أغْلَقَتِ الثّانيةُ أبْوابَها نِهائِيّاً، حينَ شُيِّدَتِ آلعِماراتُ آللَّبنِيَّةُ مِنْ حَوْلِها، إذْ كانَتْ شاشَتُها وَطيئَةً، يَسْتَطيعُ النّاسُ مُشاهَدَةَ عُروضِها مِنْ أيِّ ما سَطْحٍ. وقدْ عَمَدَ سُكّانُ آلبُيوتِ آلمُقابِلَةِ لِلشّاشَةِ إلى تَأْجيرِ آلأسْطِحَةِ لِلصِّبْيَةِ مُقابِلَ قُروشٍ قَليلةٍ عَنْ كُلِّ عَرْضٍ، حتّى كادَتِ الصّالَةُ أنْ تَخْلُوَ إلّا مِنْ عَدَدٍ هَيِّنٍ. وقَدِ آنْتابَنا حُزْنٌ حَقيقِيٌّ عَلى سينَما كربيس، ذاتِ آلأرْضِيَّةِ آلحَصَويَّةِ، وَآلكَراسي آلمُنْفَصِلَةِ، حَيْثُ تَقْدِرُ أنْ تَأْخُذَ كُرْسِيَّكَ إلى أيِّ رُكْنٍ تَشاءُ، وَأنْ تَجْلِسَ بِالطَّريقَةِ آلَّتي تَشاءُ، وتَأْكُلَ حَبَّةً مِنَ آلبَطّيخِ غَيْرَ خائِفٍ مَنْ أحَدٍ.

لا بَدْوَ في آلمَدينَةِ آلآنَ. لَمْ يَعُدْ مِنْ بدْوٍ، لاعِبو الكُشْتُبانِ لا يَسْتَدْرِجونَ إلّا ضَيْفاً طارِئاً. وأمامَ آلجَذْبِ آلمُحْدِقِ يُغيرُ بَعْضُ هؤلاءِ عَلى أسْواقِ الصّاغَةِ قُرْبَ آلحَيِّ آليَهودِيِّ، لكِنَّهُم يَنْكَشِفونَ عاجِلاً، لا مِنْ دَليلٍ ثابِتٍ، أو وِشايَةٍ، بَلْ مِنَ الرّائحَةِ آلَّتي تَعْلَقُ بأجْسادِهم. فالشُّرْطَةُ تَجْمَعُ آلمُشْتَبَهَ بِهِم. وتَشُمُّهُمْ فَقَطْ، وبَعْدَ ذلِكَ تَكُرُّ الاَعْتِرافاتُ.

لا رائحةَ تُشْبِهُ رائحَةَ دكاكينِ آلعَطّارينَ في آلحَيِّ

ٱليَهودِيِّ. مَزيجٌ من ٱلحِنَّةِ، والتَّوابِلِ، وَأزاهيرِ ٱلخاتونِ وَالأُقْحُوانِ ٱلمُجَفَّفَةِ، وَٱلكُحْلِ الرَّطْبِ، والنِّشارَةِ، وَالسُّمّاقِ، وَالصَّنْدَلِ، وَٱلمُرِّ، وٱللُّبانِ، وعِرْقِ السّوسِ، والتَّمْرِ ٱلهِنْديِّ، وَٱلعَنْبَرِ، وَكَفشِ ٱلعَجوزِ، ومَكاحِلَ مُطَيَّبَةٍ مِنْ عِظامِ ٱلهُدْهُدِ، وَدَقيقِ ٱلجفْيت ٱلأحْمَرِ ٱلَّذي يُلوِّنونَ بِهِ بُطونَ ٱلأكباشِ أوانَ السِّفادِ، وَصابونِ ٱلغارِ، وٱلهَليونِ، والصَّعْتَرِ، وَحَجَرِ ٱلفُساءِ، وَدِبْسِ ٱلعِنَبِ، وَقُشورِ الرُّمّانِ، وَٱلْجِلْدِ، وَأَشْياءَ أُخْرى لا يَعْلَمُها إلّا ٱللّهُ وَالنِّساءُ، إضافَةً إلى الضَّوْءِ ٱلغامِضِ لِلْخَوْفِ ـ خَوْفِنا مِنَ ٱلبُيوتِ ٱلمُتَراصَّةِ الرَّطْبَةِ، حَيْثُ نَسْمَعُ ٱلأنينَ ٱلأبَدِيَّ لطِفْلٍ في سَريرِ ٱلإبَرِ، يَجْمَعُ ٱليَهودُ دَمَهُ مِنْ أجْلِ كَعْكَةِ ٱلفِصْحِ.

نَعَمْ. تَعْرِفُ الشُّرْطَةُ مَنْ مَرَّ بٱلحَيِّ مِنْ رائِحَتِهِ. فَلْيَحذَرِ السّارِقونَ، وَلْتَدُمْ تِلْكَ الرّائِحَةُ ٱلَّتي تَحْرُسُ سوقَ الصّاغَةِ حينَ يَنامُ حَرَسُ ٱلمَدينَةِ. غَيْرَ أَنَّنا لَسْنا سارقينَ لِنَخافَ الرّائِحَةَ، بَلْ قيلَ لَنا: ٱحْذَروا سَريرَ الإبَرِ فَتَمَلَّكَنا ٱلخَوْفُ مِنْ ظَلامِ ٱلحَيِّ ذاكَ، وَمِنْ رُطوبَةِ ٱلمَداخِلِ ٱلمُعْتِمَةِ لبيُوتٍ تَخافُ مِنّا.

فَلْنَهْدَأْ قَليلاً: كُلُّ فَتاةٍ تَجْمَعُ شَعْرَها في جَديلَةٍ واحِدَةٍ

تَتَدَلّى حتّى الرِّدْفَيْنِ. تِلْكَ هُنَّ اليَهودِيّاتُ. فَلْنَهْدأْ قَليلاً: جَميلاتٌ هُنَّ ولَعوباتٌ كَبَناتِ حارَةِ قَدّور بك، وَأجْمَلُهُنَّ بِنْتُ عزرا العَطّارِ، حَتّى لَيَكادُ يَكونُ شارِعُ بَيْتِها مَزاراً يَرْفَعُ المُراهِقونَ فيه بَراعِمَ فُحولَتِهِمُ العَتيدَةِ، مِنْ دونِ أن تُفارِقَ زَوايا أفْواهِهِم لُفافاتٌ مُشْتَعِلَةٌ، كأنَّما يُنافِسونَ الكِبارَ. آهِ بِنْتَ عزرا، فَهِمْنا تَرَفُّعَكِ فيما بَعْدُ. فَهِمْنا لِماذا كُنْتِ تَرُدِّينَنا ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ بالهَدايا الَّتي يُكَلِّفُنا المُراهِقونَ بِنَقْلِها. هذا يَبْعَثُ بِرِسالَةٍ، وَذاكَ بمنديلٍ مُعَطَّرٍ، وثالثٌ بِمِكْحَلَةٍ. فَهِمْنا كُلَّ ذلكَ حينَ هَرَبْتِ مَعَ برو ابْنِ عَمْشَه؛ هَرَبْتِ مَعَ ناضِجٍ فَحْلٍ، وَتَرَكْتِ هؤلاءِ المُهَرِّجينَ ذوي الثِّيابِ المُضْحِكَةِ حَيارى، يَنْظُرونَ بَراعِمَ فُحولَتِهِم تَتَفَتَّحُ، مِنْ شارِعٍ إلى شارِعٍ، في طَقْطَقَةٍ صاخِبَةٍ، مِنْ غَيْرِ أنْ تَلْتَفِتَ أُنْثى إلى الأريجِ.

... وَما هَمَّ، سَتَظَلُّ ابْنَةُ عزرا في هَذِهِ اللاّمَدينَةِ على الأقَلِّ، بَيْنَما الأُخْرَياتُ يَمْضينَ أبْعَدَ. فَفي كُلِّ شَهْرٍ تَخْتَفي فَتاةٌ، بَلْ تَخْتَفي عائِلَةٌ بِأكْمَلِها. يَعْبُرونَ الحُدودَ خِلْسَةً، أوْ تَواطُؤاً، إلى تُرْكيّا، وَمِنْ ثَمّ يَنْتَهي المَطافُ بِهِمْ في فِلسْطينَ. وَنَبْقى، نَحْنُ الصِّبْيَةَ حامِلي رَسائِلِ المُراهِقينَ، مَشْدودينَ إلى الشّارِعِ ذاتِهِ

ٱلَّذي يَبْدَأُ بسوقِ الدَّجاجِ، مُروراً بٱلكَنيسِ ٱليَهودِيِّ، وَٱنْتِهاءً بِسوقِ ٱلعَطّارينَ؛ مَشْدودينَ إلى الرّائِحَةِ، وَإلى شُرْطَةِ الرّائِحَةِ، وَإلى ٱلحَيِّ ٱلمُلاصِقِ لِلْحَيِّ ٱليَهودِيِّ شَرْقاً، حَيْثُ تَحُفُّ بِٱلبُيوتِ أسْوارٌ ضَيِّقَةٌ مِنْ مُكَعَّباتِ الرَّوْثِ ٱلمجفَّفِ. وَنَعْجَبُ حَقّاً، مِنْ هَنْدَسَةِ الرَّوْثِ هذِهِ. ففي ٱلحَيِّ ٱلغَرْبِيِّ أسْوارٌ مِنَ ٱلرَّوْثِ أَيْضاً، لكِنَّهُم يَصْنَعونَه دائِرِيّاً، مُسْتَخْدِمينَ إطارَ الِغْربالِ كَقالِبٍ يَصُبّونُ فيه الرَّوْثَ ٱلمائِعَ، ثُمَّ يَتْرُكونَه حتّى يَجِفَّ. وَأسْطُواناتُ الرَّوْثِ، هذِهِ، هِيَ وَقودُ الشِّتاءِ في ٱلمَدافِىءِ، وَوَقودُ التَّنّورِ في ٱلفُصولِ كُلِّها. لكنّ ٱلهَنْدَسَةَ التَّكْعيبيَّةَ ٱلَّتي يُمارِسُها سُكّانُ ٱلحَيِّ ٱلمُلاصِقِ لِلْحَيِّ ٱليَهوديّ تُدْهِشُنا: «الرَّوْثُ أجْمَلُ هُنا. مَحْظوظونَ هؤلاءِ بمُكَعَّباتِهِمْ». غَيْرَ أنَّ أضْخَمَ سورٍ مِنَ الرَّوْثِ، في هذِهِ ٱللّامَدينَةِ، يَمْلِكُهُ يعقوبو مصارو. سورٌ يَسْتَديرُ مِنْ حَوْلِ ٱلبَيْتِ، في عُلُوِّ ثَلاثَةِ أمْتارٍ صَيْفاً، ثُمّ يَخْتَفي في ٱلفُصولِ ٱلأُخرى، إذْ يَنْقُلونَهُ، بِرُمَّتِهِ إلى الدّاخِلِ. ولَمْ نَعْرِفْ حَتّى ٱلآنَ كَيْفَ يَتَّسِعُ مَنْزِلُ يعقوبو، بُغْرفَتِهِ ٱلوَحيدَةِ، للسّورِ كُلِّهِ، وَلَهُ، ولِزَوْجَتِه، وَلِٱبْنِهِ، وِلِدَرّاجَتِهِ ذاتِ ٱلمَقْعَدِ وَالدَّواليبِ الثَّلاثَةِ، ٱلَّتي يَقودُها بَيَدَيْهِ، لا بِرِجْلَيْهِ.

ويعقوبو مَشْلولٌ مُقْعَدٌ. نِصْفُهُ السُّفْليُّ ضامِرٌ بتَمامِهِ أو يَكادُ، وَكَذلِكَ لِسانُهُ ٱلَّذي لا يَنْطِقُ إلّا فَأْفَأَةً. غَيْرَ أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ عَمَلِهِ قَطُّ. يَرْتَدي طَرْبوشَهُ ٱلأحْمَرَ ذا الشَّراريبِ، ويَرْتَدي سُتْرَةً فَوْقَ بِنْطالٍ لَهُ مُؤَخَّرَةٌ مِنَ ٱلمَطّاطِ السَّميكِ لِلزَّحْفِ، ثُمّ تَحْمِلُهُ زَوْجُهُ إلى دَرّاجَتِهِ، فَيَقودُها بيَدَيْهِ بوِساطَةِ مِقْوَدٍ ذي مِقْبَضَيْنِ.

شَحّاذٌ لَيْسَ كالشَّحّاذِ. حَسْبُهُ أنْ يَمُرَّ بأسْواقِ ٱلمَدينَةِ حتّى تَنْهالَ عَلَيْهِ ٱلقِطَعُ ٱلمَعْدِنيَّةُ. ذَقْنُهُ مُتَّكِئَةٌ على صَدْرِهِ، وَعَيْناه تَتَفَرَّسانِ ٱلعابرينَ في كَسَلٍ ساحِقٍ. وإذْ يَتْعَبُ مِنَ ٱلقِيادَةِ يَنْزِلُ عَنْ دَرّاجَتِهِ مُتَدَحْرِجاً، ثُمّ يَزْحَفُ على مُؤَخَّرَتِه ٱلمَطّاطِيَّةِ لِيَتَّكِيءَ بظَهْرِه إلى حائِطٍ ظَليلٍ. بَيْدَ أنَّ ٱبْنَهُ يُرافِقُهُ في مُعْظَمِ ٱلأحْيانِ إلى كَدِّهِ ٱليَوْمِيِّ، دافِعاً دَرّاجَةَ أبيهِ مِنْ أمامِهِ، لاهِثاً في ٱلمُرْتَفَعاتِ ٱلهَيِّنَةِ مِنَ الطُّرُقِ، مُسْتَريحاً في ٱلمُنْحَدَراتِ، إذْ تَجْري الدَّرّاجَةُ وَحْدَها. هذا دَأْبُهُما. ويَزْعُمُ الكَثيرونَ أنَّهُ يَحْتَفِظُ في أرْضيَّةِ بَيْتِهِ بِصَناديقَ مُقْفَلَةٍ مِنَ الذَّهَبِ، غَيْر أنَّ لِلْمَزاعِمِ عَنْ عُضْوِه الضَّخْمِ مُبالَغاتُها الأكْثَرُ رَنيناً من ذَهَبِهِ ٱلخَبيءِ: «يَلُفُّهُ مَرَّتَيْنِ على وَسَطِهِ... مَرَّتَيْنِ». وَيَسْتَرْسِلونَ: «قَتَلَ زَوْجَتَهُ ٱلأولى. دَفَعَهُ في أسْفَلِها فَخَرَجَ مِنَ ٱلأعْلى». وهُمْ لا

يَشْرَحونَ الأمْرَ سَرْداً، بَلْ يُضيفونَ إليهِ رَغْوَةَ أعْماقِهِم، وَطَفَراتِ ٱلحَنينِ إلى ٱغْتِصابِ غامِرٍ. وإذْ نَسْأَلُ: «لِماذا لَمْ تَمُتْ زَوْجَتُهُ الثّانيَةُ؟» يُجيبونَ: «إنَّها تَعْقِدُ لَهُ عُقْدَةً فَوْقَ ٱلقَضيبِ لا تَسْمَحُ بدُخولِ أكْثَرَ مِمّا هُوَ مُرادٌ». هاي يعقوبو. نَمُرُّ ببَيْتِهِ ٱلمُنْعزِلِ في شِمالِ ٱلمَدينَةِ، وَنَهْتِفُ: «هاي يعقوبو مصارو. عَلِّقْ عُضْوَكَ إلى السَّقْفِ يعقوبو»، فَتَخْرُجُ ٱمْرَأتُهُ وَهِيَ تُمْطِرُنا بِوابِلٍ مِنَ الشَّتائِمِ. نَبْتَعِد عَنْها قَليلاً، وَنَرفَعُ خَيْزُراناتِنا في ٱلهَواءِ: «أيُّها أطْوَلُ يا زَوْجَةَ يعقوبو، عُضْوُهُ أمِ ٱلخَيْزُراناتُ؟»، فيَنْتابُها ٱلجُنونُ: «أَدْخِلُوها في أمَّهاتِكُمْ». وخَيْزُراناتُنا خَيْزُراناتُ حَرْبٍ، تُواكبُنا إلى ٱلحُقولِ ٱلقَريبَةِ، حَيْثُ يَرْتَفِعُ نَوْعٌ مِنْ ٱلأرضي شَوْكي، مِقْدارَ مِتْرٍ، عَلى أسواقٍ نَحيلَةٍ. نَضْرِبُ رُؤوسَها فَتَتَطايَرُ. نَضْرِبُ حتّى ٱلإعيْاءِ، وَحَتّى تَسْتَحيلَ ٱلخَيْزُراناتُ خَضْراءَ مِنْ عُصارَةِ النَّباتِ ٱلقَتيلِ. هذا لَهْوُنا، غَيْرَ أنَّ لِزَوْجاتِ الفُقَراءِ، وَبناتِهِمْ، لَهْواً مِنْ نَوْعٍ آخَرَ في ٱلحُقولِ ذاتِها ٱلَّتي تَشْهَدُ حُروبَنا، ومِنْهُنَّ - بِالطَّبْعِ - زَوْجَةُ يعقوبو.

إنّهُنّ يَتْبَعْنَ ٱلبَقَرَ شِبْراً شِبْراً، حامِلاتِ صَفائِحَ فارِغَةً، أوْ أكْياساً من ٱلخَيْشِ، يَجْمَعْنَ فيها الرَّوْثَ. يُسْرِعْنَ حيناً، ويُبْطِئْنَ

حيناً، يَتَصادَمْنَ إذْ يَنْحنينَ، في ٱللَّحْظَةِ ذاتِها، عَلى كُراتٍ سَقَطَتْ تَوّاً مِنْ مُؤَخَّرَةِ بَقَرَةٍ. فإنْ كَنَّسْنَ بِأيْديهِنَّ الحَقْلَ كُلَّه ٱنْتَظَرْنَ، وَهُنَّ يُسْنِدْنَ الصَّفائِحَ إلى مُؤَخَّراتِ ٱلحَيَواناتِ، ولَرُبَّما مَضَتْ ساعَةٌ على حالِهِنَّ تِلْكَ قَبْلَ أنْ تَجودَ بَقَرَةٌ بحَفْنَةٍ مِنَ ٱلعَجينةِ الدّاكِنَةِ، وَٱلأمْرُ لا يَنْتَهي دائِماً بعَوْدَتِهِنَّ ضاحِكاتٍ مِثْلَما ذَهَبْنَ، فَقَدْ يُنْشِبْنَ أصابِعَهُنَّ ٱلمُحَنّاةَ بعُصارَةِ الرَّوْثِ بَعْضُهُنَّ في شُعورِ بَعْضٍ. هذِهِ تَتَّهِمُ تِلْكَ بمُغافَلَتِها، وَهيْكَ تَتَّهِمُ تِيْكَ بِالسَّرِقَةِ، وذِنْكَ تَتَّهِمُ تِنْكَ بِوَضْعِ حَصىً في صَفيحَتِها... إلى آخِرِه. وقَدْ تَرْفُسُ إحداهُنَّ صَفيحَةَ ٱلأُخْرى، أو تُفْرِغُ كيسَ ٱلخَيْشِ على بِكْرَتِهِ... إلى آخِرِهِ، أَوْ يَتَشاتَمْنَ في طَريقِ ٱلعَوْدَةِ، ومَنْ لا يَسْمَعُهُنَّ لَنْ يَشُكَّ في أنَّهُنَّ يَتَجاذَبْنَ ٱلحَديثَ، لا الشَّتائِمَ... إلى آخِرِه.

لَهْوٌ كَلَهْوِ ساكني ٱلعَراءِ الأوَّلِ. جِراءٌ، وفِراخٌ تَنْقُرُ ٱلفِراخَ تَحْتَ ٱلقِشْرَةِ ٱلقاسِيَةِ لِلأبَدِ السّاكِنِ، وما مِنْ أحَدٍ يَحْفِلُ بٱلوَقْتِ إلّا الدِّيَكَةُ. ومَعَ أوَّلِ صِياحٍ بارِدٍ تَنْهَضُ زَوْجَةُ شيخموس، ٱبْنِ طمبورڤان. تَحْمِلُ صَفيحَتَها وَتَمْضي. غَيْرَ أنَّها لا تَتَّجِهُ إلى ٱلحُقولِ الشِّماليَّةِ لِجَمْعِ الرَّوْثِ، بَلْ تُوغِلُ جُنوباً

حَتّى تُخومِ قَرْيَةِ حلكو، حَيْثُ مُسْتَنْقعاتُ ٱلقَصَبِ ٱلمُحيطَةُ بِالنَّهْرِ، وَأسْرابُ ٱلجَواميسِ كَأنَّها ٱنْحَدَرَتْ تَوّاً مِنْ سَفْحِ حُلُمٍ وَحْشِيٍّ لَيْسَ فيه غَيْرُ وَقْعِ ٱلحَوافِرِ، وصَرخاتُ حَيَوانٍ فَقَدَ وَليدَهُ. ومَعَ الصِّياحِ ٱلبارِدِ، أيْضاً، يَتْبَعُها شَبَحٌ، مُتَسَتِّراً بأخاديدِ ٱلأرْضِ الطَّويلَةِ هُناكَ، ثُمّ يَلْتقيانِ وَسَطَ حَقْلٍ ويَخْتَفِيانِ.

مَنْ يَعْتَقِدُ أنَّ لشيخموس زَوْجَةً؟ إنَّه صَبِيٌّ مِثْلُنا، وقَدْ دَرَجَتْ عاداتٌ عَلى عَقْدِ خُطوبَةِ صَبِيٍّ على صَبِيَّةٍ في ذلِكَ ٱلعُمْرِ، لكِنَّ الزَّواجَ لا يَتِمُّ إلّا بَعْدَ ٱلبُلوغِ. غَيْرَ أنَّ شيخموس تَزَوَّجَ، وأَنْجَبَ ٱبْنَةً... يا أللَّهُ. كُلُّنا نَعْرفُ ٱبْنَةَ مَنْ هِيَ، إلّا شيخموس . إنّه يَنامُ في فِراشِ زَوْجَتِهِ، ويَظُنُّ ٱلأَمْرَ كافِياً لإنْجابِ طِفْلٍ... يا أللَّهُ. «أرِنا عُضْوَكَ شيخموس»، نَقولُ له فيَكادُ يَبْكي. «لَوْ وَضَعْتَهُ في أُذُنِ زَوْجَتِكَ ما أحَسَّتْ بِهِ» نُضيفُ، ومَعَ ذلك لا يَعْتَورُهُ شَكٌّ في دَمِ ٱبْنَتِهِ.

لا بَأْسَ. في ٱللَّيْلَةِ ٱلأولى لِزَواجِ شيخموس دَخَلَ عَلَيهِ والِدُهُ ووالِدَتُهُ. قالا له: «أُخْرُجْ حتّى نَسْتَدْعيكَ، فٱلعَروسُ في حاجَةٍ إلى بَعْضِ ٱلإرشاداتِ». خَرَجَ شيخموس وأوْصَدَ وَراءَهُ ٱلبابَ. سَأَلَهُ المُحْتَفِلونَ خارجاً: «ما بِكَ؟». أجابَ: «يُسَوِّيانَ ٱلأمْرَ مَعَ

ٱلعروسِ، وَيُعَلِّمانِها». وفي ٱللَّحَظاتِ ٱلَّتي باتَ يَرُدُّ فيها على ٱسْتِفْساراتِ الآخَرينَ، كانَتْ أُمُّهُ تَحْشُرُ مِنْديلاً في فَمِ ٱلعَروسِ، وَتُمْسِكُ بيَدَيْها، بَيْنَما يُعَرّيها والدُهُ في نِصْفِها ٱلأسْفَلِ، وَيَخْتَرِقُها حتّى أحْشائِها. لَقَدِ ٱنْتَقَمَ ٱلوالدانِ مِنْ والدِ ٱلعَروسِ ٱلـمَدِينِ لَهُما، وَٱلَّذي لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَدْفَعَ إلّا ٱبْنَتَهُ كَجُزْءٍ مِنَ الدَّيْنِ. وحينَ خَرَجا ناداه: «أُدْخُلِ ٱلآنَ»، فَدَخَلَ إلى ظَلامِ ٱلغُرْفَةِ، مُتَلَمِّساً ٱلفِراشَ، ثُمّ نامَ إلى جِوارِها حتّى الصَّباحِ، مُتَقَلِّباً بِجلبابِهِ فَوْقَ بِرْكَةِ الدَّمِ.

الكُلُّ يَعْرِفونَ، إذاً، إلّا شيْخموس. والزَّوْجَةُ تَنْتَقِمُ عَلى طَريَقِتِها. فَٱلَّتي تُنْجِبُ مَرَّةً تَسْتَطيعُ أنْ تُنْجِبَ مَرّاتٍ. وَفي مَدى ثَلاثِ سِنينَ، بَعْدَ ذلِكَ، كانَ طِفْلانِ آخَرانِ يَعْبَثانِ بهُدوءِ ٱلبَيْتِ، وَٱلكُلُّ يَعْرِفونَ طِفْلا مَنْ هُما، إلّا شيخموس. لكِنَّهُما ليَسْا مِنْ صُلْبِ أبيهِ كالطِّفْلِ ٱلأوّلِ، بَلْ مِنْ صُلْبِ الشَّبَحِ ٱلَّذي يَتْبَعُ الزَّوْجَةَ إلى تُخومِ حلكو، وما مِنْ شاهِدٍ غَيْرُ الجَواميسِ.

إذَنْ، تَنْهَضُ زَوْجَةُ شيخموس مَعَ الصِّياحِ ٱلبارِدِ للدِّيَكَةِ، وَتَمْضي حامِلَةً صَفيحَتَها. وَعَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ ٱلمُسْتَنْقَعاتِ، حَيْثُ

يَنْسَدِلُ حِجابٌ كَثيفٌ مِنَ السَّنابِلِ، يُدْرِكُها الشَّبَحُ. وَهُوَ عَجولٌ لاهِثٌ، يَرْفَعُها بَيْنَ يَدَيْهِ كِطِفْلةٍ، ثُمّ يَنْحَني ٱنْحِناءَةَ ٱلمُقْتَدِرِ، فتُكَلِّلُ ٱلمَرْأةُ ٱنْحِناءَتَهُ بِبَراعِمِ ٱلعَرَقِ، وتُطَوِّقُهُ كَما يُطَوِّقُ ٱلكَشّافُ الصّارِيَةَ بساقَيْهِ، مُسْتَشْرِفاً ٱلمَدى ٱلأبْعَدَ في حُلُمِ ٱلبَحْرِ. وإمّا ٱنْتَهَيا من كَشْفٍ عادا إلى ٱلبَحْثِ عَنْ كَشْفٍ. شَبَحٌ وٱمْرَأةٌ، وسَنابِلُ يَقْظى كٱلحَرَسِ فَوْقَ كَنْزِ ٱلجَسَدَيْنِ، غَيْرَ أنَّ السّاعاتِ ٱلأولى لِلصَّباحِ تُشَرِّدُ الشَّبَحَ، فيَعودُ أدْراجَهُ ـ كَما جاءَ ـ مُتَسَتِّراً بأخاديدِ ٱلأرْضِ. أمّا ٱلمَرْأةُ فَتَبْدَأُ حَصادَها بَيْنَ سِرْبٍ مِنَ النِّساءِ سَبَقْنَها إلى ٱلمُسْتَنْقَعِ، حَيْثُ يَرْفَعْنَ، جَميعاً، أثْوابَهُنَّ حتّى ٱلخُصورِ، ويَخُضْنَ ٱلماءَ الأخْضَرَ ٱلَّذي تَطْفو مِنْ فَوْقِهِ كُراتٌ مُلْتَمِعَةٌ مِنْ رَوْثِ ٱلجَواميسِ.

.... يا لَلْمُسْتَنْقَعِ ٱلجَميلِ. كُنّا نَأْتيهِ في السَّنواتِ ٱلأولى لِتَفَتُّحِ خَمائِرِنا. نَسْتَلْقي على عُشْبِ الرّابِيَةِ مُتَلَصِّصينَ على حاصِداتِ الرَّوْثِ. ومُعْظَمُهُنَّ صَبايا، تَلْتَمِعُ أفْخاذُهُنَّ في ٱلماءِ كَقَهْقَهةٍ أطْلَقَتْها النِّعْمَةُ. لكِنَّ الرِّياضِيّينَ، ٱلَّذينَ يَسْتَعْرِضونَ أجْسادَهُم في قُمْصانِهِمُ ٱلمَفْتوحَةِ، شَتَّتوا ٱلحاصِداتِ بِتَرَدُّدِهِم عَلى ٱلمَكانِ.

جاءَ واحِدٌ مِنْهُم مُصادَفَةً، ثُمّ جاءَ ٱثْنانِ، ثُمّ تَكاثَروا: أجْلافٌ. كُلُّ رِياضِيٍّ، هُنا، جِلْفٌ بالضَّرورَةِ. لا يَفْقَهونَ أيَّ جانِبٍ صِحِّيٍّ في تَدْريباتِهِمْ، ولا يَدْخُلونَ نادِياً إلّا شَغَفاً بِٱلعِراكِ. هكَذا هُم، هكَذا هُوَ الشِّمالُ.

كانوا، في بادِىءِ ٱلأمْرِ، لا يَقْتَرِبونَ مِنَ ٱلمُسْتَنقَعِ، بَلْ يَبْقَونَ عَلى مَبْعَدَةِ مائَتَيْ مِتْرٍ، يَسْبَحونَ في النَّهْرِ، ويَسْتَعْرِضُ بَعْضُهم بَعْضاً، ثُمّ تَدِبُّ فيهِمُ ٱلحَمِيَّة فيَتَصارعَونَ، وُدِّياً، وما تَلْبَثُ ٱلمُصارَعَةُ ٱلوُدِّيَّةُ أنْ تَتَحَوَّلَ إلى لَكَماتٍ، ورَكْلٍ، وَطَقْطَقِة عِظامٍ. كانوا يَظُنّونَ أنَّهُمْ يَلْفِتونَ ٱنْتِباهَ حاصِداتِ الرَّوْثِ إليْهِم، لكِنَّهُنَّ لَمْ يَأْبَهْنَ قَطُّ. فَأَمْعنوا ٱقْتِراباً. جالِبينَ مَعَهُمْ كُراتٍ يَقْذِفونَها، قَصْداً، صَوْبَ ٱلمُسْتَنْقَعِ، ثُمّ يَرْكُضونَ لِٱلتقاطِها، وَهذا ما أَجْفَلَهنَّ تَماماً، فَنَأيْنَ إلى أماكِنَ أُخْرى، أو بدَّلْنَ أوْقاتَ حَصادِهِنَّ.

أجْلافٌ. ونَحْنُ مُعْجَبونَ بِهِمْ، مُعْجَبونَ بِالشَّرِّ ٱلمُتَفَتِّحِ بَيْنَ ٱلعَضَلِ. وَفي اللّامَدينَةِ هذِهِ نادِيانِ لتَخْريجِ أباطِرَةِ الشّارِعِ وَقَبَضاياتِه: «نادي إسكندر نيسانه»، و«نادي ٱلحَلَبي»، ٱلّذي يُشْرِفُ عَلَيْه ڤورا سَليلُ النَّوَرِ. وقَدِ ٱسْتَفْحَل العَداءُ بَيْنَ رِياضِيّي

النّادِيَيْنِ، حينَ حاوَلَ كُلُّ طَرَفٍ الآسْتِئْثارَ بِحَنّا آللّوطيِّ. وحنّا في آلعِقْدِ الرّابِعِ، ماسِحُ أَحْذيَةٍ مِنْ نَوْعٍ خاصٍّ، ما تَكادُ تَضَعُ قَدَمَكَ على صُنْدوقِهِ حتّى يُبادرُكَ بإشارَةٍ مُقْتَضَبَةٍ مِنْ تَحْتِ قُبَّعَتِهِ آلأمْريكيَّةِ: «أَهُوَ كَبيرٌ، يا هُوْ؟». وجُمْلَتُه هذِهِ، مَدارُ سُخْرِيَةٍ عَلى أَلْسِنَةِ الصِّبْيَةِ حينَ يَمُرُّونَ بهِ: «حنّا... كَبير يا هُوْ». «حنّا... هذا عُضْوُه كَبيرٌ يا هُوْ»، ويَتَوَقَّفُ حَنّا مُنْتَظِراً أنْ يَفُكَّ أحَدٌ ما أزْرارَ بِنْطالِه، فهو يَتَمَتَّعُ بآسْتِعدادٍ أبَدِيٍّ لِأنْ يُعَرِّيَ مُؤَخَّرَتَه لأيٍّ كانَ، وفي أقْرَبِ زاويةٍ أو حَقْلٍ، وَهُوَ عَلى آسْتِعْدادٍ لأنْ يُكافِىءَ مُقابِلَ ذلِكَ، فَيَمْسَحَ حِذاءَكَ مَجّاناً مَدى شَهْرَيْن.

لَقَدِ آتَّفَقَ بَعْضُ الرِّياضِيّينَ من نادي آلحَلَبي على موعِدٍ مَعَهُ، فآلْتَقَوْهُ قُرْبَ سورِ آلمَلْعَبِ البَلَدِيِّ آلَّذي يُطِلُّ جُنوباً على مَقْبَرَةِ السُّرْيانِ. وَآلمَكانُ مُنْعَزِلٌ هُناكَ. خالٍ مِنَ آلبُيوتِ. وفي آلمَوْعِدِ آلمُحَدَّدِ لِلِّقاءِ داهَمَهُمْ بَعْضُ رِياضِيّي نادي إسكندر نيسانه، وَعَلا آلجِدالُ. هؤلاءِ يُريدونَ الدَّوْرَ أوَّلاً، وَأولئكَ يُريدون الدَّوْرَ أوَّلاً. وكانَ في وُدِّ حَنّا إقناعُهُم أنَّهُ قادرٌ على تَلْبِيَتِهِمْ جميعاً، لكِنَّهُم أنانيّونَ. يا لَحنّا، يا لَلْخاسِرِ آلأوْحَدِ:

ارْتَفَعَتِ ٱلقَبَضاتُ الصَّلْبَةُ وصَرَّتِ ٱلأسْنانُ. سَقَطَ ٱلبَعْضُ تَحْتَ ٱلأرْجُلِ، وٱرْتَفَعَ آخَرونَ في ٱلهَواءِ. وحْدَهُ حَنّا يَرْكُضُ مِن جِهَةٍ إلى جِهَةٍ مُتَوَسِّلاً: «كفى يا هُوْ. أنا لَكُمْ يا هُوْ». وَلَمْ يَتَفَرَّقوا إلّا بَعْدَما نالَهُمُ التَّعَبُ، وَأرْهَقَتْهُمُ الرُّضوضُ. «سَتَرَوْنَ» قالَ أولئِكَ لِهؤلاءِ. «سَتَرَوْنَ» قالَ هؤلاءِ لأولئِكَ. وبَقِيَ ماسِحُ ٱلأحْذِيَةِ ٱلَّذي لا يَرى مِنَ ٱلأَرْضِ إلّا ما يُشْبِهُ قَضيباً أو خِصْيَةً.

ولا يُشْبِهُ حنّا، في سُهولَةِ النَّيلِ، إلّا بَناتُ أبي سامي، حَفّارِ ٱلمَجاريرِ. أعْطِهِنَّ نِصْفَ ليرةٍ، أو رُبْعَ ليرَةٍ، أو تُفّاحَةً، أو سُكَّرَةً، وسيُدْخِلْنَك إلى بَيْتِهِنّ حالَما يُغادِرُ ٱلأبُ إلى مَجاريرِه، وَٱلأُمُّ إلى بَيْعِ مَكانِسِ ٱلقَشِّ بَيْنَ ٱلحاراتِ.

ثَلاثُ بَناتٍ. كُبْراهُنَّ في الثّالِثةَ عَشْرَةَ. وَبالرُّغْمِ مِنْ صِغَرِنا كانَ ٱلأمْرُ مُمْتِعاً حَقّاً. وفي مُكْنَةِ ٱلواحِدِ مِنّا أنْ يَظْفَرَ بِالثَّلاثِ مَعاً. يُعَرّي نِصْفَهُنَّ السُّفْلِيَّ ويَلْتَصِقُ بِهِنّ بلا حِراكٍ. نِصْفَ ساعَةٍ. ساعَةً كامِلَةً. ساعَتَيْنِ. الحَبْلُ على ٱلغارِبِ ما دامَتْ ٱلأُمورُ على هذا النَّحْوِ. لكِنَّهُنَّ ـ إذْ كَبِرْن قَليلاً ـ صِرْنَ يَتَمَنَّعْنَ عَلَيْنا... فَلْتَغْضَبِ ٱلمَجاريرُ عَلَيْهِنَّ إذن ولْتَحْتَرِقْ مَكانِسُ القَشِّ.

«لَنْ نَسْكُتَ على ٱلأمْرِ يا مَراحيضُ»، قُلْنا لَهُنَّ، فَلَمْ يَأْبَهْنَ لِوَعيدِنا. إسْتَدْرَجْنا آبْنَ بيري الأكْثَرَ رَشاقَةً في السَّرِقَةِ، مُتَوَعِّدينَه بكَشْفِ ما نعْرِفُ من غَزَواتِهِ، ومُؤَمِّلِينَهُ بِكيسٍ مِنْ كُراتِ ٱللَّعِبِ الزُّجاجِيَّةِ، مُقابِلَ أنْ يَسْرِقَ دَجاجَتَيْ أبي سامي. وقَدْ سَرَقَهُما فِعْلاً. فَنَتَفْنا ريشَهُما وَراءَ ٱلبُيوتِ، وأخَذْناهُما إلى فُرْنِ مرادو، حَيْثُ أقَمْنا وَليمَةً دَسِمَةً مِنَ اللَّحْمِ المَشْوِيِّ، في صاجٍ مُخَصَّصٍ لِصُنْعِ الكَعْكِ.

أوِ آبْنَ بيري. يَدْخُلُ سِجْنَ ٱلأحْداثِ بِضْعَةَ أيّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ. والدُهُ عَتّالُ قَمْحٍ، وأُمُّهُ مُتَفَرِّغَةٌ لِرَسْمِ ٱلخِطَطِ لآبْنِها، وتَحْميهِ إذا آتَّهَمَهُ أحَدٌ. بَذيئَةٌ، وَقَبْقابُها في يَدِها أبَداً. آوِ آبنَ بيري. يَسْرِقُ أباريقَ ٱلوُضوءِ مِنَ ٱلمَسْجِدِ، وَأحْذِيَةَ المُصَلّينَ، يَسْرِقُ دِلاءَ ٱلآبارِ، وَالدَّجاجَ، وَٱلبَطّيخَ مِنَ ٱلعَرَباتِ. يَسْرِقُ الدَّرّاجاتِ، وَٱلحُقولَ، وَإسْفَلْتَ الطُّرُقِ، وَالتُّرابَ، وَٱلهَواءَ. أشْقَرُ، لا يَعْرِفُ أحَدٌ مِنْ أيْنَ جاءَ بشُقْرَتِه، بَلْ نَزْعُمُ أنَّه سَرَقَ ذَلِكَ اللَّوْنَ مِنْ عابِرٍ ما. لا يُخالِطُنا إلّا لِماماً. مَهْمومٌ لأنَّ ٱللَّهَ لَمْ يُعْطِهِ مائَةَ يَدٍ. مَهْمومٌ إذْ يَرى ٱلكَوْنَ غَيْرَ قابِلٍ للسَّرِقَةِ دُفْعَةً واحِدَةً. لكِنَّهُ مَلْجَأُنا إذْ تَضيقُ سُبُلُ ٱلحُصولِ عَلى تَذْكَرَةِ

للسّينَما، أو يَنْفَدُ تَبْغُنا: «تَعال آبْنَ بيري» فَيَأْتي. نَحْنُ قُساةٌ مَعَهُ، وَطَبْعُه جَبانٌ بِرُغْمِ جَسارَتِهِ في السَّرِقَةِ. «ابن بيري... نَحْنُ مُفْلِسونَ»، ويَتَباكى: «وَآللَّهِ لا أمْلِكُ شَيْئاً». ونَحْتَدِمُ: «لا نُريدُ مِنْكَ نُقوداً يا آبْنَ آلهِرَّةِ. نَعْرِفُ أنَّ أُمَّكَ تَأْخُذُ مِنْكَ حتّى آخِرِ قرشٍ لتُخَبِّئَه في سِرْوالِها»، فَيَفْهَمُ قَصْدَنا، ويَرُدُّ مُتَباكِياً من جَديدٍ: «واللَّهِ لَمْ أعُدْ أسْرِقُ. لَقَدْ تُبْتُ»، فَنَأْخُذُه مِنْ خِناقِه: «مَنْ سَرَقَ إبريقَ بَيْتِ حجّو؟ ها؟ آلبارِحَةَ ضاعَ آلإبْريقُ، وَآلبارِحَةَ آخْتَفى جَرَسُ بَقَرَةِ حسّو آلمحَلَّمي... ها؟». وَيَذْرِفُ آبْنُ بيري دُموعاً بارِدَةً بقُدْرَةِ قادِرٍ، فلا نَتْرُكُهُ: «إسْمَعْ. الباحَةُ آلخَلْفِيَّةُ لمَحَطَّةِ إسّو مَلأى بصَفائِحِ آلبنْزينِ آلفارِغَةِ...»، ولا نُضْطَرُّ لإكْمالِ آلجُمْلَةِ، إذْ يَنْسابُ آبْنُ بيري أمامَنا خَفيفاً مُبْتَسِماً بقُدْرَةِ قادِرٍ، أيضاً. وحينَ نَصِلُ إلى مَقْرُبَةٍ مِنَ الشَّجَراتِ آلمُحيطةِ بمَحَطَّةِ إسّو، نوهِمُ مَنْ يَرانا أنَّنا نَتَصَيَّدُ آلعَصافيرَ بنُقَّيْفاتِنا، بَيْنَما يَصْعَدُ السّارِقُ آلأشْقَرُ إحْدى الشَّجَراتِ، ومِنْها إلى السّورِ، ثُمّ يُناوِلُنا الصَّفائِحَ واحِدَةً إثْر أُخْرى. وتَكْفينا خَمْسٌ مِنْها، نبَيعُها لأصْحابِ مَحَطّاتٍ أُخْرى بنِصْفِ ليرةٍ لِلْواحِدَةِ، بَلْ بخَمْسَةٍ وسَبْعينَ قِرشاً أحياناً، وَآلْمَبْلَغُ

كافٍ لدُخولِ أرْبَعَةِ صِبْيَةٍ إلى السّينَما، ومَعَهُم عُلْبَةٌ من تَبْغِ «مرجان».

وَلِأنَّنا هكَذا. لأنَّنا جُزْءٌ مِنْ لُهاثِ الشِّمالِ ٱلأبَدِيِّ، وأبْناءُ آباءٍ ٱنْحَسَرَتْ جِباهُهُمْ تَحْتَ مَطارِقِ ٱلحُكوماتِ فَلَمْ يَعودوا يَأْبَهونَ أنْ يَرَوْنا هكَذا؛ وَلِأنَّنا، مِثْلَ آبائِنا أيْضاً، مَحْزومونَ حُزْمَةً واحِدَةً بحَبْلٍ مِنَ ٱلغَضَبِ على لا أحَدٍ، بَلْ عَلَيْنا وعلى ٱللّاأحدِ، بَلْ عَلى ٱلغُيومِ وَٱلحُقولِ وَالسَّنابِلِ ٱلَّتي تَنْمو أمامَ أعْيُنِنا ثُمّ تَخْتَفي... لأنَّنا هكَذا، يَتَرَفَّعُ عَلَيْنا ٱلمُوَظَّفونَ ٱلَّذينَ تَنْتَدِبُهُمُ ٱلحُكوماتُ عَلى أُمورِ الشِّمالِ، ويَتَرَفَّعُ عَلَيْنا سُكّانُ ٱلمُدُنِ ٱلوافِدونَ عَلى هذِهِ ٱللّامَدينَةِ، ٱبْتِغاءَ التِّجارَةِ ٱلعابِرَةِ أو الدّائِمَةِ؛ فَٱلمَكانُ خَصْبٌ إلّا عَلَيْنا. يَبْعثونَ بأوْلادِهِمْ إلى ٱلمَدارِسِ فَيَتَجَنَّبونَنا، ويَلْهونَ في زُمَرٍ مُنْفَرِدَةٍ. أوْلادٌ نَظيفونَ، يَحْمِلونَ في جُيوبِهِمْ مَناديلَ بَيْضاءَ. أوْلادٌ مِنْ ذَهَبٍ، يُحِبُّهُم ٱلمُديرُ وٱلمُعَلِّمونَ، ويُحِبّونَ أُمَّهاتِهِمْ وَأخَواتِهِمُ النَّضِراتِ. يَبْعثونَ إلى آبائِهِم برَسائِلِ التَّقْديرِ عَنْ نَجابَةِ أبْنائِهِمْ، فَتَكونُ الرَّسائِلُ مَدْخَلاً إلى ٱلبُيوتِ النَّظيفَةِ، وَٱلٱبتساماتِ ٱلعائِليَّةِ الرَّطْبَةِ الشَّبِقَةِ. لكِنَّ مهدي درباس طائِرٌ خارِجَ سِرْبِهِ. ابْنُ مُساعِدٍ أوَّلَ

مَسؤولٍ عَنِ السِّجْنِ ٱلـمَدَنيِّ، تَجْري في عُروقِهِ دِماءٌ كُرْدِيَّةٌ لا تُفْصِحُ عَنْها ٱلعائِلَةُ ٱلَّتي تَتَكَلَّمُ ٱلعَرَبيَّةَ بِلُكْنَةِ ٱلمُدُنِ الكَبيرَةِ.

مَهْدي كَالسَّيْلِ. مَهْدي أُلْعوبَتُنا، كأنَّما نَنْتَقِمُ عَبْرَهُ مِنَ ٱلأوْلادِ النَّظيفينَ جَميعاً. وبالرَّغْمِ من فَظاظَةِ صَداقَتِنا لا يُفارِقُنا قَطُّ. نُحِبُّهُ لأنَّهُ مِثْلُنا، ونَحْقِدُ عَلَيْهِ لأنَّهُ ٱبْنُ ٱمْرَأةٍ أنيقَةٍ تَنْظُرُ إلينا مِنْ بابِها شَزْراً. وتُناديهِ كُلَّما رَأَتْهُ مَعَنا: «هؤُلاءِ بَجَمْ. أُدْخُلْ إلى ٱلبَيْت». ونَلْتَفِتُ إلى أُمِّه صارِخينَ: «لمْ نَطْلُبْ مِنْهُ مُصاحَبَتَنا يا سَيِّدَة»، ثُمّ نُحَدِّجُ مَهْدي: «إذْهَبْ يا ٱبْنَ ٱلـماما»، ونَعْرِفُ كَمْ يُؤْلِـمُهُ ذلِكَ. غَيْرَ أنَّه يُحاوِلُ، مِراراً، أنْ يَكْسِبَ وُدَّنا، مُتَشَبِّهاً بِنا ـ ٱبْنُ ٱلـمَدينَةِ ٱلغَضُّ ـ فَيَقْفِزُ مِنْ فَوْقِ سورٍ عالٍ، ويَلْعَبُ كُرَةَ ٱلقَدَمِ بحَجَرٍ، لا بِكُرَةِ مَطّاطٍ أو جِلْدٍ، مِثْلَنا، ويَرْجِعُ آخِرَ النَّهارِ مَشْرومَ الحِذاءِ فَتُعَنِّفُهُ أُمُّه.

لكنَّ مَهْدي رَضَخَ لقَطيعَتِنا آخِرَ ٱلأمْرِ، ولـمْ تَكُنِ ٱلقَطيعَةُ نابِعَةً مِنّا، بَلْ مِنَ التَّهْديداتِ ٱلجادَّةِ ٱلَّتي مَلأَتْ والِدَتُهُ بِها بُيوتَنا.

فٱلأنيقَةُ تِلْكَ، زَوْجَةُ آمِرِ السِّجْنِ ٱلـمَدَنيِّ، حينَ كَلَّتْ مِنْ تَقْريعِها لنا، وَمِنْ تَهْديدِها، قَصَدَتْ بُيوتَنا واحِداً واحِداً. قالَتْ

لأُمَّهاتِنا: «سَيَتَدَبَّرُ أبو مَهْدي أمْرَ أزْواجِكُنَّ»، وأُمَّهاتُنا يُجْفِلْنَ مِنْ ذِكْرِ ٱلعَسْكَرِ فَقالوا لنا: «أتُريدونَ أنْ نَذْهَبَ إلى السِّجْنِ؟» فَأجْفَلْنا: «لا»، لِيَذْهَبْ مَهْدي وأُمُّهُ إلى الشَّيْطانِ. وهكذا ٱجْتَمَعَ مَجْلِسُنا ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ تَحْتَ هاجِسِ أنْ نَرى آباءَنا ٱلمُتْعَبينَ تُعَنِّفُهُم الشُّرْطَةُ فَيَضْرِبونَ الشُّرْطَةَ حتّى تَتَطايَرَ قُبَّعاتُهُم. وَنَعْرِفُ ماذا يَعْني سُقوطُ قُبَّعَةِ الشُّرْطِيِّ: السَّجْنُ سَنَةً كامِلَةً... «لا» قُلْنا في مَجْلِسِنا، لا لِمَهْدي بَعْدَ ٱليَوْمِ. وَتَرَفَّقَتِ السَّماءُ بِمَهْدي ٱلخاسِرِ، إذِ ٱنْتَقَلَ والِدُهُ إلى سِجْنِ مَدينَةٍ أُخْرى، فَٱنْتَقَلَتِ ٱلعائِلَةُ كُلُّها.

كان حُزْنُنا على مَهْدي يَعْدِلُ حُزْنَنا على فِراقِ جعفرو ٱلأعْرَجِ، صاحِبِ سيجاراتِ يَنيجِه بِعَشْرَةِ قُروشٍ. ماتَ مِنْ دونِ مُقدِّماتٍ. ٱرْتَفَعَ صَوْتُ قاسمو في مُكَبِّرِ ٱلمَسْجِدِ: «فَلْيَأْتِ ٱلمُؤْمِنونَ لِلصَّلاةِ عَلى جعفرو»، وَتَوافَدَ ٱلمُصَلّونَ. لَقَدْ غادَرَهُم كَما غادَرَنا، وَسَيَفْتَقِدونَ ذلِكَ ٱلَّذي يُصَلّي جالِساً وَسَطَ ٱلواقِفينَ، وَقَدِ ٱمْتَدَّتْ ساقُهُ ٱلمُتَصَلِّبَةُ أمامَهُ كَعَمودٍ خَشَبيٍّ.

ماتَ جعفرو. ماتَ مِنْ دونِ تاريخٍ وَراءَهُ أَوْ أمامَهُ. لَنْ يَعْرِفَكَ أحَدٌ جعفرو، وَلَيْسَ لَدَيْكَ مالٌ يُغْري بِٱلمَعْرِفَةِ.

لا نَسْلَ، لا نَسَبَ. عاديٌّ كالصِّنْفِ ٱلعادِيّ، وما مِنْ حادِثَةٍ في حياتِكَ تَجْعَلُ شَخْصاً ما يَهْتِفُ: «فَعَلَ جَعْفرو كَذا، أو كَذا»، لا. حتّى مَوْتُكَ لَيْسَ بِحادِثَةٍ. كَلَّفْتَهُمْ عَشْرَ دَقائِقَ لِلصَّلاةِ عَلَيْكَ، ثُمّ ٱنْفَضّوا. وَضَعَكَ أحَدُ أعْمامِ عزّو في عَرَبَةٍ يَقودُها بَغْلٌ كَسولٌ، وَلَمْ يَتْبَعِ ٱلعَرَبَةَ إلّا حَفّارٌ تَبَرَّعَ بِجُهْدِهِ لِلآخِرَةِ.

وَلِماذا لَمْ تُسَجِّلْ لِنَفْسِكَ حادِثَةً تُؤَجِّجُ ٱلمَديحَ، أوِ الشَّتْمَ، جعفرو؟ لِماذا لَمْ تَتَواطَأْ عَلى شَأْنِكَ ٱلعادِيِّ؟ كانَ في مُكْنَتِكَ أنْ تُحْرِقَ بَيْدَراً، أوْ تَغْتَصِبَ طِفْلَةً تَشْتَري مِنْكَ السَّكاكِرَ. كانَ في مُكْنَتِكَ أنْ تَتَّخِذَ ٱلأتانَ زَوْجَةً، أنْتَ العَزَبُ، وأنْ تَشْتَرِيَ ثَوْراً فَحْلاً لِلْإِخْصابِ. لَقَدْ مُتَّ الآنَ، وَبَقِيَ بابُ بَسْطَتِكَ مَفْتوحاً، يَحارُ ٱلجيرانُ أيُغْلِقونَهُ أمْ يَتْرُكونَهُ وَشَأْنَهُ.

ماتَ جعفرو. ماتَ أيُّها ٱلكِلابُ. ماتَ، ماتَ ماتَ ماتَ ماااات.

... وغَداً يَموتُ ٱلآخَرونَ أيْضاً، تِباعاً أو مُجْتَمِعينَ، وَسَيَكونُ أَوَّلُهُم شاور ٱلكِلْدانيّ، ٱلجُثَّةَ ٱلواقِفَةَ أمامَ أبوابِ السّينَما، مُلْتَصِقَةَ الظَّهْرِ بٱلبَطْنِ.

شاور، بَطَلُ يانصيب ٱلعَشْرَةِ قُروشٍ، يُقامِرُ على عُلْبَةِ لوكي،

أوْ كِنْتْ، مِنْ غَيْرِ أنْ يَرْبَحها مِنْهُ أحَدٌ، إذْ لَيْسَ مِنْ رَقَمٍ رابِحٍ تَحْتَ ٱلبُقْعَةِ السَّوْداءِ. يَمْحوها. وَمَنْ يَرْبَحُ رَقَماً غَيْرَ مَوْجودٍ؟ لا يَرْبَحُ أحَدٌ، ولا يَرْبَحُ شاور مِنْ أحَدٍ.

الكُلُّ يَعْرِفونَ وَرَقاتِ يانَصيبِهِ ٱلمَغْشوشَةِ. وَمَعَ ذلكَ يَقِفُ الشَّبَحُ صَباحَ مَساءَ عَلى أبْوابِ السّينَما مُتَرَنِّحاً. تَتَلأْلأُ فُوَّهَةُ بَطْحَةِ ٱلعَرَقِ في جَيْبِ بِنْطالِهِ ٱلخَلْفِيِّ. «يلّلا يا شَباب. اللّوكي بعَشْرَةِ قُروش. يلّلا»، وَيَسْرُدُ عَبْرَ فَكِّهِ ٱلمُرْتَخِيَةِ أنَّه كانَ ضابِطاً في جَيْشِ نوري السَّعيدِ... يَلّلا، ثُمَّ يُؤَدّي التَّحِيَّةَ لِدَوْرِيَّةِ الشُّرْطَةِ ٱلَّتي تَبْحَثُ عَنِ ٱلمُقامِرينَ، وَهُوَ مُتَّكِيءٌ عَلى عَرَبَةٍ لِبَيْعِ ٱلمِياهِ ٱلغازِيَّةِ... يَلّلا، وَتَضْحَكُ الشُّرْطَةُ الأنيقَةُ.

سَيَموتُ شاور. نَعَمْ، سَيَموتُ مُهْمَلاً كَهذا ٱلجَنينِ ٱلمُلْقى في حُفْرَةٍ قُرْبَ مَدْرَسَتِنا. جَنينٌ مَكْسورُ ٱلجُمْجُمَةِ، يَتَدَلّى مِنْ بَطْنِهِ حَبْلُهُ السُّرِّيُّ كأَفْعى. عارٍ تَماماً، لَمْ يُكَلِّفْ مَنْ رَمَوْهُ أنْفُسَهم مَشَقَّةَ لَفِّهِ بكيسٍ وَرَقِيٍّ. عارٍ، مَفْتوحُ ٱلفَمِ. عارٍ أزْرَقُ كَأَنَّما ماتَ بَرْداً بَعْدَ رَمْيِهِ. ما هَمَّ، سَيَموتونَ جَميعاً. سَتَموتُ ٱلمَدْرَسَةُ، وَسَتَأْتي أشْباحُنا لِتَسْرَحَ بَيْنَ خَرائِبِها غَيْرَ خائِفَةٍ مِنْ

أحَدٍ. لكِنَّنا سَنَحْتَفِلُ بِأشْباحِنا ٱلحَيَّةِ قَبْلَ ٱلمَوْتِ. سَنَحْتَفِلُ وَسَطَ الظَّلامِ وَأرواحِهِ كَٱلقِدّيسِ ٱلفِضِّيِّ سانتو.

فَجْأَةً هَبَطَ عَلَيْنا سانتو. هَبَطَ في دارِ سينَما حَدّاد، بَطَلُ أفْلامٍ مَكْسيكِيَّةٍ رَديئَةٍ، مُصارِعٌ يَرْتَدي قِناعاً وَيُطارِدُ مَصّاصي الدِّماءِ، وٱلمَوْتى ٱلمُتَسَلِّلينَ إلى ٱلحَياةِ. فَلْنَكُنْ سانتو.

كُنّا نَسْرِقُ المُلاءاتِ. نَسْرِقُ أكْياسَ الطَّحينِ ٱلفارِغَةَ مِنْ فُرْنِ مرادو، ونَصْنَعُ ٱلأَقْنِعَةَ. بَدَأَ الأمْرُ لَهْواً، وٱنْتَهى بِأنْ صارَ لِكُلِّ حَيٍّ مِنَ ٱلأحْياءِ قِناعُهُ.

أنا ٱلَّذي بَدَأْتُ. فَفي بَيْتِ أُختي آلَةُ خِياطَةٍ مِنْ نَوْعِ سِنْجِرْ، تُدارُ بِوساطَةِ ٱلقَدَمِ، وَكُنْتُ ماهِراً في خِياطَةِ ٱلقُبَّعاتِ التُّرْكِيَّةِ، وسَراويلِ السِّباحَةِ، مِنَ ٱلقِماشِ، ومِنَ ٱلخَيْشِ، أوْ مِنْ أيِّ شَيْءٍ يُمْكِنُ أنْ يُرْتَدى. وفي بَيْتِ أُخْتي صَنَعْتُ أوَّلَ قِناعٍ. ثُمَّ ٱسْتَعَرْتُ عَباءَةَ أُمّي خِلْسَةً، وَتَرَصَّدْتُ ٱلعابِرينَ، لَيْلاً، في ٱلعَراءِ ٱلَّذي يَلي ٱلبُيوتَ جُنوباً.

هاجَمْتُ ٱلفَرائِسَ تِباعاً. وَلْوَلَتِ ٱمْرَأَةٌ، وَوَلّى رَجُلٌ كَهْلٌ ٱلأدْبارَ. صَرَخَ طِفْلٌ مِنْ هُناك، وَعَوى كَلْبٌ مِنْ هُنا. كُنْتُ

تَوْأَمَ الظَّلامِ وَراءَ ٱلقِناعِ، تَوْأَمَ ٱلخَوْفِ ذاتِهِ. قُلْتُ لِنَفْسي: «سَأَجْعَلُهُم يُجَنّونَ». وَصَدَّقْتُ ٱلأمْرَ. صِرْتُ أرْكُضُ بَيْنَ ٱلحُقولِ ٱلبَعيدَةِ ٱلَّتي لَمْ تَكُنْ لِتَطَأَها أقْدامُنا لَيْلاً. دُرْتُ وَسَطَ ٱلبُيوتِ ٱلمَعْزولَةِ صارِخاً مِنْ شَبابيكِها فَيُجْفِلُ السّاكِنونَ، ولا يَلْحَقونَ بي. «أنا ٱلخَوْفُ» قُلْتُ لِنَفْسي، وَصَدَّقْتُ. هاجَمْتُ ٱلكِلابَ أيْضاً، وَكُنّا لا نَجْرُؤُ على ٱلاَقْتِرابِ مِنْها. وَرَفَعْتُ عَقيرتي كَٱبْنِ آوى: «هووووو». وَساعَةً بَعْدَ ساعَةٍ، مِنْ ذلِكَ ٱلمَساءِ، بَدَأَ النّاسُ يَتَجَمْهَرونَ. يَصْرُخونَ في فَزَعٍ ظاهِرٍ: «مَنْ هُناكَ؟»، وأرُدُّ: «هووووو». وأخيراً أخْبَرَهُمْ أخي ٱلأَصْغَرُ حَقيقَةَ اللُّعْبَةِ. هَجَمَ الصِّبْيَةُ عَلَيَّ في فَرَحٍ لا يُعادِلُهُ فَرَحٌ، أمّا ٱلكِبارُ فَشَتَموني بِما فيهِ ٱلكِفايَةُ، وَٱنْصَرَفوا.

في ٱليَوْمِ التّالي كانَ كُلُّ صَبِيٍّ يَحْمِلُ قِناعاً مُخَيَّطاً بِٱليَدِ في جَيْبِهِ.

في ٱليَوْمِ الثّالِثِ كانَ لِكُلِّ حَيٍّ نَوْعٌ خاصٌّ بِهِ مِنَ ٱلأَقْنِعَةِ. مِنْهُمْ مَنْ أضافَ إليْها آذاناً كَآذانِ ٱلقِطَطِ، ومِنْهُمْ مَنْ أَلْصَقَ بِها الرّيشَ، ومِنْهُمْ مَنْ طَوَّرَها فَجَعَلَها مِنَ ٱلجِلْدِ ٱلمُخَيَّطِ بالسُّيورِ.

أقْنِعَةٌ... أقْنِعَةٌ... أقْنِعَةٌ لا تُضيفُ شَيْئاً إلى قِناعِ ٱلأرْضِ

آلكَبيرِ: الشِّمالِ. أقْنِعَةٌ لا تَعْدِلُ قِناعَ ميرو آلحَقيقيَّ؛ قِناعَ وُقوفِهِ هُناكَ، عَلى التُّخومِ آلخَفِيَّةِ لِلّامَدينَةِ، وَسَطَ أكْباشِهِ. يَتَحَيَّنُ سُكوناً غامِراً ليُبَدِّدَ السُّكونَ. ومِنْ أيْنَ لَنا بالسُّكونِ ميرو؟ لَوْ لَمْ نَجِدْ مَدينَةَ آلمَلاهي آلَّتي هَدَمْناها لَهَدَمَ آلعَتّالونَ آلمَدينَةَ. عاطِلونَ عَنِ آلعَمَلِ، هؤلاءِ، ميرو. يَشْرَبونَ الشّايَ بالدَّيْنِ في مَقاهي سوقِ التُّجّارِ، ويَعِدونَ أصْحابَها بسَدادِ الدَّيْنِ حينَ تُقْبِلُ أوَّلُ شاحِنَةٍ، وما مِنْ شاحِنَةٍ تَجيءُ ميرو. الحُكومَةُ أكَلَتِ الشّاحِناتِ. الحُكومَةُ أكَلَتِ القَمْحَ. الحُكومَةُ أكَلَتِ المَطَرَ والرِّياحَ وآلبُروقَ. الحُكومَةُ أكَلَتِ النُّجومَ. أوْ رَصَّعَتْ بِها أكْتافَ ضُبّاطِها. الحُكومَةُ أكَلَتِ الحُكومَةَ ميرو... والشِّمالُ يَأْكُلُ أقْدامَنا.

أمّا أنا وَفَوْزي فَنَأْكُلُ آلبَطّيخَ. حُقولٌ كآلبَحْرِ مِنَ آلبَطّيخِ، وأنا وَفَوْزي، ودَرّاجتانِ تَفَرْقَعَتْ عَجَلاتُهُما.

كُنّا ذاهِبَيْنِ لزِيارَةِ أقربائِهِ في قَرْيَةِ هرم شيخو، عَلى دَرّاجَتَيْنِ آسْتَأْجَرْناهُما. وَوَسَطَ آلبَراري آلَّتي تَقَلَّدَتْ سُيوفَ الظَّهيرَةِ حَرَدَتِ الدَّرّاجتَانِ. آرْتَخَتا رُوَيْداً رُوَيْداً كَأَنَّ عَجَلاتِهِما مِنْ شَمْعٍ، فآضْطُرِرْنا أنْ نَجُرَّهُما جَرّاً بأقْدامِنا آلغائِصَةِ في تُرابِ

ٱلطُّرُقِ، ثُمَّ تَفَتَّقَتْ فِكْرَةٌ في رَأْسِ فَوْزي، فَخَبَّأْناهُما في أُخْدودٍ جانِبِيٍّ مِنَ ٱلأخاديدِ ٱلَّتي حَفَرَتْها السُّيولُ، عَلى أنْ نَسْتَعيدَهُما في ٱلعَوْدَةِ.

ومَا ٱلَّذي يُغْري، في هذِهِ الظَّهيرَةِ، غَيْرُ البَطّيخِ الأحْمَرِ بِصُفوفِهِ المُتَوازِنَةِ؟ كُنّا عَطِشَيْنِ، فٱسْتَدْبَرْنا الطَّريقَ وَفَتَحْنا أذْرِعَتَنا لِلنَّباتِ ٱلحَيِّ. أكَلْنا ٱلبَطّيخَةَ ٱلأولى السّاخِنَةَ في ذلِكَ الوَهْجِ. أكَلْنا الثّانِيَةَ فٱرْتَوَتْ أحْشاؤُنا، وظَلَّتْ عُيونُنا عَطْشى. كَسَرْنا الثّالِثَةَ وبَلَّلْنا بعُصارَتِها رَأْسَيْنا. كَسَرْنا الرّابِعَةَ وتَراشَقْنا بِها. كَسَرْنا ٱلخامِسَةَ، والسّادِسَةَ، والسّابِعَةَ... وٱلعِشْرينَ، ونَحْنُ نَتَراشَقُ باللُّبِّ ٱلأحْمَرِ حتّى تَحَوَّلَ ٱلمَكانُ إلى بِرْكَةٍ مِنَ الطّينِ. تَدَحْرَجْنا عَلى التُّرابِ فَلَمْ نَعُدْ نُفَرِّقُ بَيْنَ أعْضائِنا وَبَيْنَ التُّرابِ. صِرْنا كُتْلَتَيْنِ لا مَلامِحَ لَهُما، يَطِنُّ فَوْقَ شَعْرِهِما الدَّبِقِ ذُبابٌ أزْرَقُ وأسْوَدُ خَرَجَ مِنَ الشُّقوقِ ٱلجافَّةِ حينَ ٱشْتَمَّ الرّائِحَةَ السُّكَّرِيَّةَ.

كانَتْ ثِيابُنا مُلْتَصِقَةً بأجْسادِنا، ولَها خَشْخَشَةُ ٱلوَرَقِ بِفِعْلِ ٱلعُصارَةِ ٱلَّتي يَبِسَتْ. وكَذلِكَ كانَتْ شِفاهُنا، وأهْدابُنا. يا لَحنينِنا إلى بِرْكَةِ ماءٍ نَسْتَلْقي فيها. يا لَحنينِنا إلى دَلْوِ ماءٍ

نَدْلُقُه مِنْ فَوْقُ. أمّا هَرَمَ شيخو فَكانَتْ تَنْبُضُ في ٱلـمَدى ٱلبَعيدِ كَخَرَزَةٍ رَمادِيَّةٍ.

حينَ ٱقْتَرَبْنا مِنَ ٱلقَرْيَةِ مَدىً يُمَكِّنُنا مِن رُؤْيَةِ عَمودَيْ بِئْرِها، والدَّلْوِ الأَسْوَدِ الضَّخْمِ، رَكَضْنا مُتَسابِقَيْنِ، وإذْ جَاوَزْتُ فَوْزي دَفَعَني فَتَدَحْرَجْتُ إلى الأُخْدودِ ٱلَّذي يُجاوِرُ الطَّريقَ. كانَ عَميقاً ضِعْفَي ما تَراءى لَنا مِنْ الأعْلى. لَمْ أُكَلِّفْ نَفْسي ٱلخُروجَ مِنْهُ. صِرْتُ أرْكُضُ فيهِ، وفَوْزي يَرْكُضُ مِنَ ٱلأعْلى. غَيْرَ أنَّ ثُغْرَةً كَبيرَةً ٱسْتَوْقَفَتْني؛ ثُغْرَةً كَبابٍ في جِدارِ ٱلأُخْدودِ، إلى ٱليَمينِ. نادَيْتُ فَوْزي فَلَمْ يَتَوَقَّفْ؛ ظَنَّها حيلَةً لِأَسْتَبْطِئَهُ.

دَخَلْتُ الثُّغْرَة مُتَهَيِّباً أوَّلَ ٱلأَمْرِ، غَيْرَ أنَّها كانَتْ مُضاءَةً مِنَ الدّاخِلِ، كَأنَّها تُفْضي إلى جِهَةٍ يَتَسَرَّبُ إلَيْها ضَوْءُ الشَّمْسِ. وبَعْدَ خُطُواتٍ ٱسْتَوْقَفَني مُدَرَّجٌ تُرابِيٌّ يُحيطُ بباحَةٍ صَغيرةٍ مَلأى بِبَعْرِ ٱلغَنَمِ، وبِٱلكَثيرِ مِنْ قِشْرِ ٱلبَطّيخِ. نادَيْتُ، ثانِيَةً، فَوْزي، فَما سَمِعْتُ إلّا صَوْتي، كانَ واضِحاً أنَّ في الطَّرَفِ المُقابِلِ مِنَ ٱلباحَةِ باباً ما. جَاوَزْتُها فَوَجَدْتُ ٱلبابَ ٱلَّذي يَسْتُرُهُ حاجِزٌ مِنْ جِدارِ ٱلكَهْفِ، بِحَيْثُ لا يُرى إلّا حينَ تَصيرُ في ٱلجانِبِ الآخَرِ مِنَ ٱلباحَةِ. يا اللّهُ. كُلَّما ٱقْتَرَبْتُ مِنَ ٱلبابِ كُلَّما ٱتَّسَعَ

آلمَشْهَدُ: سُهوبٌ مِنْ وَرَقِ الحُمَّيْضِ آلَّذي لا يَنْمو إلّا بِجانِبِ آلأنْهارِ. سُهوبٌ مَديدَةٌ يَحُدُّها أُفُقٌ بَنَفْسَجِيٌّ. نادَيْتُ: «فوزي»، فَتَقَطَّعَتْ حُروفُ الآسْمِ، إذْ مَرَّ، في آللَّحْظَةِ ذاتِها، كَبْشٌ هائِلٌ مِنْ أمامِ آلبابِ. آلتَفَتَ إليَّ في لِينٍ وآخْتَفى. سِرْتُ خُطْوَتَيْنِ فأَلْفَيْتُ نَفْسي خارِجاً، وَسَطَ مَكانٍ لا يُشْبِهُ الشِّمالَ؛ وَسَطَ مَكانٍ لا ظَهيرَةَ فيه، بَل هُبوبٌ رَخِيٌّ للغَمامِ. وَعَلى مَبْعَدَةٍ لا تُقاسُ، كَمَسافاتِ آلحُلُمِ، آلْتَمَّتْ بُيوتٌ غَريبَةٌ من قَصَبٍ وَغُصونٍ.

نَسيتُ آلكَبْشَ آلَّذي مَرَّ مِنْ أمامِ آلبابِ، إذْ كانَتْ أسْرابٌ مِنْها، في حَجْمِ آلحَميرِ وآلبِغالِ، تَرْعى هُنا وهُناكَ، ذاتُ قُرونٍ خَضْراءَ كَآلفَيْروزِ آلأخْضَرِ. وَلَمْ أسْتَرْسِلْ في آلذُّهولِ طَويلاً، إذْ خَرَجَ مِنَ آلبُيوتِ رِجالٌ يَتَدَثَّرونَ بالصّوفِ. رِجالٌ لا حَواجِبَ لَهُمْ. خُضْرُ العُيونِ كَقُرونِ آلأكْباشِ تَماماً. كانوا مُتَشابِهينَ. أصْلٌ تَرَكَ صورَتَه لِلْمَرايا وآخْتَفى.

تَقَدَّمَ واحِدٌ فَقَطْ. تَقَدَّمَ في هُدوءٍ كَأَنَّما يُراعي ذُهولي. جَلَسَ عَلى آلأرْضِ، وأشارَ عَلَيَّ بآلجُلوسِ فآمْتَثَلْتُ. كانَ يَنْظُرُ في عَيْنَيَّ وأَنْظُرُ في عَيْنَيْهِ. بادَرَني سائِلاً: «أجِئْتَ وَحْدَكَ؟»،

أجَبْتُ مُضْطَرِباً: «فَوْزي... خَبَّأْنا الدَّرّاجَتَيْنِ... إلى هرم شيخو». بَدا واضِحاً أنَّه لَمْ يَفْهَمْ شَيْئاً. كُنْتُ أتَحَدَّثُ بِيَدي كَٱلأَبْلَهِ، لا بِلِساني. جاوَزَ سُؤالَهُ، وتَمْتَمَ ثانِيَةً: «تَنْتَظِرونَنا؟ ها؟». لَمْ أفْهَمْ بِدَوْري، لكِنَّني أجَبْتُ عَنْ سُؤالٍ تَرَدَّدَ في أعْماقي، لا في أعْماقِهِ هُوَ: «فَوْزي رَماني بالبَطّيخِ... ٱنْظُرْ»، وأَشَرْتُ إلى ثِيابي وَوَجْهي. زَمَّ جَفْنَيْهِ، وكَرَّرَ سُؤالَهُ: «أتَنْتَظِرونَنا؟ أنْتُمْ تُؤَجِّلونَ ذلكَ بكَفاءَةٍ». ثُمّ ٱلْتَفَتَ إلى الرِّجالِ، وَراءَه، فَتَقَدَّمَ واحِدٌ مِنْهُم. قالَ لَهُ ٱلجالِسُ أمامي: «أَخْبِرِ ٱلأكْباشَ أنْ تُؤَجِّلَ أسْئِلَتها. الأُفُقُ حامِضٌ اليومَ»، فَأَوْمَأَ ٱلواقِفُ برَأْسِهِ، وَمَضى. أمّا ٱلجالِسُ أمامي فَقَدْ تابَعَ: «كانَتْ هُناكَ ثُغْرَةٌ في ٱلجانِبِ الشَّرْقِيِّ مِنْ هذا السَّهْبِ»، وأشارَ بِيَدِهِ شَرْقاً. «هُناكَ، حَيْثُ تَبْتَرِدُ الصّاعِقَةُ في بِرْكَةِ الرَّئيسِ الرّاعي». قُلْتُ: «لا أعي شَيْئاً مِمّا تَقولُ أيُّها السَّيِّدُ»، قالَ: «سَتَعي. حُكوماتُكُم تَعي ذلِكَ. أكْباشُكُمُ الصَّغيرَةُ تَعي ذلِكَ، ودُيوكُكُمْ أيْضاً»، وٱسْتَدْرَكَ فَسَأَلَ مُحْتَدّاً: «لِماذا تَصيحُ دِيَكَتُكُم طَوالَ الوَقْتِ... بٱللَّهِ لِماذا تَصيحُ؟ أتَنامونَ حتّى توقِظَكُمْ؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. نَنامُ». فأضافَ: «لا بَأْسَ. يَظَلُّ لَدَيْكُم مُتَّسَعٌ مِنَ ٱلوَقْتِ،

أبَداً، لتُوَفِّروا عَلَيْنا المَجيءَ إلَيْكُمْ». قُلْتُ: «لا أَفْهَمُكَ سَيِّدي»، قالَ: «لا بَأْسَ. أتَعْرِفُ بليرو؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنونٌ يَتَوَهَّمُ أنَّهُ موكَلٌ بِحِراسَةِ ٱلجُسورِ». قالَ مِنْ جَديدٍ: «أتَعْرِفُ عَبّاسي قزو؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنونٌ يَتَوَهَّمُ أنَّ الطُّرُقَ مَلأى بأكياسِ ٱلقَمْحِ. فَيَرْفَعُها بِخُطّافِهِ». قالَ: «أتَعْرِفُ سيڤي؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. تَتَوَهَّمُ أنَّها حارِسَةُ ٱلجَداوِلِ». قالَ: «أتَعْرِفُ داود كوت؟»، أجَبْتُ: «نَعَمْ. مَجْنونٌ يَسوقُ قَطيعاً وَهْمِيّاً مِنَ ٱلأغْنامِ». قالَ: «أتَعْرِفُ الصّوفيَّ؟»، صَرَخْتُ: «عَمّي. إنَّه عَمّي. سَقَطَ في ٱلبِئْرِ وماتَ». إلْتَفَتَ إلى ٱلوراءِ ناظِراً إلى الرِّجالِ ٱلواقِفينَ، واحِداً واحِداً، كَأَنَّما يَسْتَشيرُهُمْ في أمْرٍ غامِضٍ. تَقَدَّمَ واحِدٌ فَقَطْ. إنْحَنى هامِساً: «نَعَمْ ميرو».

قفزت واقفاً: «ميـ ـيـ ـيـ ـيـ ـيـ رو». وأُغْمِيَ عَلَيَّ.

حينَ أَفَقْتُ كُنْتُ مُلْقىً في باحَةِ ٱلكَهْفِ التُّرابِيِّ. وَقَفْتُ مُسْتَعيداً ما جَرى، ثُمَّ بَحَثْتُ عَنِ ٱلبابِ ٱلَّذي يُشْرِفُ عَلى السُّهوبِ فَلَمْ أرَهُ. صَرَخْتُ: «ميرو. أيْنَ ٱلبابُ؟»، لَمْ يُجِبْ أحَدٌ. تَراجَعْتُ إلى وَراءَ فٱنْزَلَقْتُ عَلى قِشْرَةِ بَطّيخٍ. رَكَضْتُ

مَذْعوراً صَوْبَ الثُّغْرَةِ في جِدارِ ٱلأُخْدودِ فَٱجْتَزْتُها في قَفْزَتَيْنِ، وفي قَفْزَتَيْنِ كُنْتُ عَلى الطَّريقِ.

كانَ فَوْزي عارِياً أمامَ بِئْرِ هرم شيخو. لَقَدِ ٱنْتَهى، تَوّاً، مِنْ غَسْلِ مَلابِسِهِ وَنَشْرِها عَلى شُجَيْراتِ الشَّوْكِ، وَها هُوَ يَدْلُقُ دِلاءً مِنَ ٱلماءِ البارِدِ عَلى جَسَدِه. هَتَفَ بي مِنْ تَحْتِ ٱلخُيوطِ ٱلفِضِّيَّةِ ٱلمُنْسابَةِ عَلى وَجْهِهِ: «أيْنَ كُنْتَ؟ أَجَعَلَكَ ٱلبَطّيخُ تَبولُ ساعَةً كامِلَةً؟». أَطْرَقْتُ، ثُمَّ نَظَرْتُ إلَيْهِ في ٱنْكِسارٍ: «كُلُّهُمْ مَعَ ميرو يا فَوْزي، وَٱلأكْباشُ تَتَكَلَّمُ». تَفَحَّصَني في ٱسْتِخْفافٍ، مُغَمْغِماً: «تَعالَ»، وَرشَّني بقَليلٍ مِنَ ٱلماءِ.

حينَ عُدْنا مِنْ زِيارَةِ أقارِبِ فَوْزي، وإذْ أصْبَحْنا في مُوازاةِ الثُّغْرَةِ ٱبْتَعَدْتُ وَلَمْ ألْتَفِتْ، بَلْ قُلْتُ لِفَوْزي: «أُنْظُرْ إلى يسارِكَ. أتَرى شَيْئاً؟»، أجابَ: «ٱلأُخْدود». وَقَفْتُ سائِلاً مِنْ جَديدٍ: «أتَرى ثُغْرَةً؟»، ٱقْتَرَبَ فَوزي مِنَ ٱلأُخْدودِ وَٱنْحَنى: «أيُّ ثُغْرَةٍ؟ لا شَيْءَ هُنا». إقْتَرَبْتُ، بِدَوْري مِنَ ٱلأُخْدودِ فَلَمْ أجِدْ شَيْئاً. صَرَخْتُ: «ميييييرو»، فَقَهْقَهَ ٱلعَراءُ.

النَّفير الثّالث

بَيْنَ ٱلقامِشْلي وبَيْنَ عامودا ثَلاثونَ كيلو مِتْراً، وعَويلٌ مُدَمِّرٌ لِصَفّاراتِ ٱلإطْفاءِ. تَمْضي سَيّارَةٌ وتَرْجِعُ سَيّارَةٌ. قَدَرُ عامودا، وَهِيَ بَلْدَةٌ كَبيرةٌ، أنْ لا يَكونَ فيها سَيّارَةُ إطْفاءٍ واحِدَةٌ. وَها هِيَ لامدينَتُنا تَمُدُّها، كُلَّ ساعَةٍ، بِغولٍ أحْمَرَ ذي صَفيرٍ، يَنْفُثُ ٱلماءَ مِنْ خَراطيمِهِ. لكِنْ... هَيْهاتَ. النَّجْدَةُ مُتَأَخِّرَةٌ كَكُلِّ شَأْنٍ حُكومِيٍّ، ولَيْسَ عَلى سُكّانِ عامودا إلّا أنْ يُطْفِئوا ٱلحَريقَ بالتُّرابِ، وبالأيْدي، وبالأَكْبادِ.

لَقَدِ ٱنْشَطَرَ التّاريخُ بَعْدَ ذلِكَ ٱلحَريقِ كَفَلْقَتَيْ مِشْمِشَةٍ. فإنْ سَرَدَ أحَدٌ أمْراً سَنَدَ ٱلكَلامَ بجُمْلَةِ «ما قَبْلَ ٱلحَريقِ» أوْ «ما بَعْدَ حَريقِ السّينَما». نَعَمْ، خَبَرٌ مُبْتَدَأُهُ ٱلأطْفالُ. جَمَعوا خَمْسَمائَةِ طِفْلٍ مِنْ مَدارِسِ الطّينِ، بالعِصِيِّ، وقالوا لَهُمْ: «فَلْيَجْلُبْ كُلٌّ مِنْكُمْ رُبْعَ ليرَةٍ غَداً». وسُكّانُ عامودا لا يَمْلِكونَ إلّا ٱلقَليلَ ٱلقَليلَ مِنَ النُّقودِ، لِذلِكَ يُقايِضونَ الدَّجاجَ بالسُّكَّرِ، وَٱلبَيْضَ

بالتَّبْغِ، وآلحِنْطَةَ بِالخِيارِ، وَالشَّعيرَ بِالشّاي، وَآلخِرافَ بالطَّحينِ، وَالسِّنَّ بالسِّنِّ، وَالعالَمُ أَظْلَمُ.

عَلى أيَّةِ حالٍ، عادَ آلأَطْفالُ إلى مَدارِسِهِمْ في آليَوْمِ الثّاني. مُعْتَصِرينَ في قَبَضاتِهِمُ الصَّغيرَةِ قِطَعاً مَعْدِنِيَّةً خِشْيَةَ أَنْ تَضيعَ إذا وَضَعوها في جُيوبِهِمُ آلمَثْقوبَةِ مِنْ كَثْرَةِ ما يَحْشُرونَ فيها مِنَ آلحِجارَةِ لِلْعِراكِ. وَهكَذا ساقَهُمُ آلمُعَلِّمونَ آلمُتَأَفِّفونَ، الَّذينَ يَقْضونَ سَنَةَ خِدْمَتِهِمُ آلأولى في التَّدْريسِ في هَذهِ آلبَلْدَةِ ـ المُخْتَبَرِ، على أنْ يَعودوا، بَعْدَها، إلى آلمُدُنِ، لِتَعْليمِ آلأَطْفالِ آلأنيقينَ.

ساقوهُمْ في طُرُقاتِ آلبَلْدَةِ كالدَّجاجِ، وَكانَ آلأَهْلونَ فَرِحينَ، يُشيرُ بَعْضُهُمْ إلى بَعْضٍ في آعْتِزازٍ ساحِرٍ: «هذا وَلَدي». وإذْ وَصَلَ آلمَوْكِبُ إلى دارِ السّينَما، حَشَروهُمْ حَشْراً في آلمَبْنى آللَّبِنِيِّ آلمُسْتَطيلِ، ذي البابِ الواحِدِ؛ آلمَبْنى آلأَصَمِّ الَّذي لا نَوافِذَ فيهِ، حَيْثُ تَتَدَلّى أَسْلاكٌ كَهْرَبائِيَّةٌ مِنْ كُلِّ آلجِهاتِ، في فَوْضى لا تَعْدِلُها فَوْضى، وحَيْثُ آلمَقاعِدُ آلخَشَبِيَّةُ، وَصَناديقُ آلخُضارِ آلفارِغَةُ، تُسْتَعْمَلُ لِجُلوسِ آلمُشاهِدينَ. حَشَروهُمْ وُقوفاً وجُلوساً، خَمْسُمائَةِ طِفْلٍ، مِنْ

أجْلِ مُشاهَدَةِ فيلْمٍ يَتَحَدَّثُ عَنْ طَرْدِ ٱلعَرَبِ لِلاَٱسْتِعْمارِ ٱلفَرَنْسِيِّ. وَلَمْ تَمْضِ نِصْفُ ساعَةٍ حتّى دَوّى ٱنْفِجارٌ مُريعٌ، إذْ لَمْ يَحْتَمِلِ ٱلمُوَلِّدُ ٱلكَهْرَبائِيُّ ٱلبالي عَرْضَيْنِ مُتَواصِلَيْنِ. تَطايَرَ شَظايا فتَطايَرَ بَرْميلا ٱلمازوتِ ٱلمَوْضوعانِ عَلى السَّقيفَةِ، قُرْبَ ٱلمُوَلِّدِ. إشْتَعَلَتِ الدّارُ دُفْعَةً واحِدَةً، والبابُ لا يَتَّسِعُ لمُرورِ شَخْصَيْنِ. حَشَرَ ٱلأطْفالُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً، فَفَوَّتوا عَلى أنْفُسِهِمْ فُرَصَ ٱلهَرَبِ. صاروا يَتَوَهَّجونَ كَٱلبَرْقوقِ ٱلأحْمَرِ، وتَتَفَجَّرُ جَماجِمُهُمْ. مَنِ ٱحْتَرَقَ ٱحْتَرَقَ، وَمَنْ لَمْ يَحْتَرِقْ خَنَقَهُ الدُّخانُ، وَمَنْ لَمْ يَخْنُقْهُ الدُّخانُ صَعَقَتْهُ أسْلاكُ ٱلكَهْرَباءِ. وَصَفَ النّاجونَ لنَا الأمْرَ فَلَمْ نُصَدِّقْ: «كانوا إذا مَسَّتْهُمُ ٱلأسْلاكُ تَتَضاءَلُ أجْسادُهُمْ حتّى تُصْبِحَ في حَجْمِ بَطّيخَةٍ صَغيرَةٍ». وَالنّاجونَ ٱحْتَرَقَتْ سيقانُهُمْ، أَوْ أيْديهِمْ، أوْ وُجوهُهُمْ، أوِ ٱلأطْرافُ كُلُّها مَعاً. وَقَدْ غُصَّ مُسْتَشْفى ٱلقامِشْلي بِمائَتَيْنِ مِنْهم، يَئِنّونَ طَوالَ ٱلوَقْتِ، ويَتَقَيّأونَ الدُّخانَ. وَقالَ النّاجونَ، أيْضاً، إنَّ ٱلبَسالاتِ أنْقَذَتِ ٱلكَثيرينَ. هَجَمَ الرِّجالُ يَسْتَحِثُّ بَعْضُهُمْ حَماسَةَ بَعْضٍ: «أنا أبو فلان»، ويَرُدُّ الآخَرُ بعُواءِ المُتَهَوِّرِ: «وأنا أبو فلان»، ثُمّ يَنْهالونَ على حائِطِ السينَما بِٱلقَبَضاتِ، وبِٱلأرْجُلِ،

وبٱلقُضْبانِ ٱلحَديدِيَّةِ، حَتّى يَتَهاوى بَعْضُه، فَيَدْخُلونَ وَقَدَ تَقَنَّعوا بحَطّاتِهِمْ، ثُمّ يَخْرُجونَ مُتَأَبِّطينَ أطْفالاً ذاهِلي ٱلأعْيُنِ. ويُضيفُ النّاجونَ مُتَحَدِّثينَ: «في هذهِ ٱلأثْناءِ جاءَتْ مَفْرَزَةُ الشُّرْطَةِ، وبَدَلَ أنْ تُسْهِمَ في ٱلإنْقاذِ صارَتْ تَرُدُّ الرِّجالَ عَنِ الدُّخولِ إلى الدّارِ ٱلمُحْتَرِقَةِ». ويَسْتَرْسِلُ النّاجونَ: «فَكَّ رِجالُ الشُّرْطَةِ أحْزِمَتُهُم ٱلجِلْدِيَّةَ ٱلقاسِيَةَ، وهَوَوْا بِها عَلى الرُّؤوسِ، صارِخينَ: ٱبْتَعِدوا أيُّها ٱلحَميرُ». وَظَلَّ ٱلأمْرُ بَيْنَ كَرٍّ وفَرٍّ: يَهْجُمُ النّاسُ وَهُمْ يَسْمَعونَ عَويلَ أكْبادِهِمْ، وتَهْجُمُ الشُّرْطَةُ فَتُشَتِّتُهُمْ، حَتّى جاءَ ٱبْنُ حَميد آغا، شاهِراً مُسَدَّسَهُ، مُطْلِقاً طَلْقَةَ تَحْذيرٍ: «إمّا نَحْنُ، وإمّا أنْتُمْ»، قالَ لِلشُّرْطَةِ، وَصَفَعَ أوَّلَ مَنْ رَآهُ مِنْهُمْ فَأَدْبَرَ مُتَرَنِّحاً. دَخَلَ ٱبْنُ حَميدٍ مِنْ الثُّغْرَةِ ٱلَّتي ٱسْتَحْدَثَها الرِّجالُ، وَصارَ يُلْقي بٱلأطْفالِ مِنْها فَيَتَلَقَّفُهُمْ مَنْ في ٱلخارِجِ. آهِ ٱبنَ حَميد. هَوَتْ عَلَيْهِ دِعامَةٌ مِنْ دِعاماتِ السَّقْفِ ٱلحَديدِيَّةِ.

لَمْ يَبْقَ بَيْتٌ في عامودا لَيْسَ فيهِ مَأْتَمٌ، أو شَراكَةٌ في مَأْتَمٍ، وتَجَدَّدَتِ ٱلمَقْبَرَةُ ٱلقَديمَةُ بشَواهِدِ ٱلوافِدينَ.

كانَ لنا أوْلادُ أعْمامٍ وخالاتٍ بَيْنَ النّاجينَ، نَزورُهُمْ في

آلمُسْتَشْفى لِنُقاسِمَهُمْ سَكاكِرَهُمْ وفاكِهَتَهُمْ؛ لِنُقاسِمَهُمْ هَدايا لا تَجيئُنا إلّا بَعْدَ فاجِعَةٍ أوْ مَرَضٍ. تبّاً لِطُفولَتِنا ولِصِبانا. تَبّاً لحسن مصروع، آلّذي يَذْرَعُ رَدَهاتِ آلمُسْتَشْفى في صَخَبٍ، فَخوراً بهَداياهُ وبِهِباتِهِ. لَقَدِ آرْتأى أنْ يَظْهَرَ كَبَطَلٍ وَلَوْ لِمَرَّةٍ في حَياتِهِ. حَسَن مصروع آلّذي يَمْلِكُ ثُلُثَ أراضي اللّامَدينَةِ هذِهِ، ويَظَلُّ مُهَرْوِلاً حَوْلَ تُخومِها بطَربوشِهِ وخَيْزُرانَتِهِ، يُراقِبُ آلّذينَ يَبْنونَ بُيوتَهُمْ قُرْبَ تِلْكَ التُّخومِ، خِشْيَةَ أنْ يَسْرِقوا بوصَةً مِنْها، أو يُطْلِقوا خِرافَهَمْ لِتَرْعى أعْشابَها. حَسَن مصروع آلأكْثَرُ بُخْلاً في آلأرْضِ، آلأكْثَرُ صُراخاً وَخِسَّةً، آلأكْثَرُ تَلَفُّتاً كَآلمُخْبرينَ، هُوَ بذاتِهِ، يَدْخُلُ المُسْتَشْفى بهَدايا لا تُحْصى، ضاحِكاً، تَهْتَزُّ شَراريبُ طَرْبوشِهِ. يا أللّهُ.

ولِماذا نَلْتَفِتُ إلى كَرَمِ حَسَن مصروع الفُجائيِّ؟ «إلهامٌ مَحْضٌ» يَقولُ آلكِبارُ. «إلْهامٌ إلهِيٌّ يُلَمْلِمُ النَّجِسونَ بِهِ شَتاتَ أرْواحِهِم». وأيُّ إلْهامٍ هذا؟ نَسْأَلُ أنْفُسَنا. هذِهِ جارَتُنا. قَهْرَمانَةُ آلعاهِراتِ، لا تَبْخَلُ عَلى أحَدٍ. إسْمُها أمينة، ولَقَبُها آلحاجَّةُ. حَجَّت إلى أيْنَ؟ إنَّها حاجَّةٌ وَكَفى. إمْرَأَةٌ ضامِرَةٌ، داكِنَةُ البَشَرَةِ، في السِّتّينَ مِنْ عُمْرِها. حاوَلَ أهْلونا إجْلاءَها عَنِ

ٱلحَيِّ فَما ٱسْتَطاعوا، لِسَعَةِ نُفوذِها بَيْنَ الشُّرْطَةِ، فٱقْتُصِرَ ٱحْتِجاجُهُمْ عَلى مُقاطَعَتِها تَماماً، وعَلى مُقاطَعَةِ بَيْتِ ٱلحاجّ حَسَن، ٱلَّذي تَقومُ بَناتُهُ، وَزَوْجُهُ، بخِدْمَةِ ٱلقَهْرَمانَةِ لَيْلَ نَهارَ، مُقابِلَ هِباتٍ هائِلَةٍ مِنَ ٱلأطْعِمَةِ وَالألْبِسَةِ.

كانَ نَشازاً أنْ تُرى سَيّارَةٌ في ذلِكَ ٱلحَيِّ ٱلغُبارِيِّ، ٱلَّذي ٱحْتَكَرتِ الدَّجاجاتُ سُطوحَ بُيوتِهِ وطُرُقاتِهِ. غَيْرَ أنَّ ٱلقَهْرَمانَةَ مَلأَتْهُ ضَجيجاً؛ تَأْخُذُها سَيّارَةٌ صَباحاً، وتُعيدُها سَيّارَةٌ بَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ.

القَهْرَمانَةُ مَلِكَةٌ حَقيقِيّةٌ، تُناديها ٱلعاهِراتُ «ماما»، ويَسْتَجْدينَ رِضاها. ويَسْتَجْدي رِضاها ٱلأكابِرُ، أيْضاً. فَفي وُسْعِها، وَحْدَها، أنْ تَأْمُرَ إحْداهُنَّ بٱلمَبيتِ خارِجَ ٱلمَبْغى مَعَ رَجُلٍ تَخْتارُهُ. وَفي وُسْعِها أنْ تَطْرُقَ بابَ آمِرِ الثُّكْنَةِ ٱلعَسْكَرِيَّةِ لِتَشْكوَ إلَيْهِ خُروجَ أحَدِ ٱلعَساكِرِ عَنِ ٱللَّياقَةِ، وأنْ تَكْفُلَ عاهِرَةً ما، إذا أرادَتْ تَرْكَ ٱلمَبْغى مِنْ أجْلِ الزَّواجِ.

وَمَنْصِبُ ٱلقَهْرَمانَةِ تَرِثُهُ الطّاعِناتُ في السِّنِّ، فإنْ ماتَتْ قَهْرَمانَةٌ خَلَفَتْها ٱلأكْبَرُ سِنّاً بَيْنَ ٱلعاهِراتِ. ومَهْما كانَتِ ٱلجَديدةُ وَضيعَةً قَدَّمَتِ ٱلأُخْرَياتُ لَها ٱلوَلاءَ والطّاعَةَ. هذا

عُرْفٌ لا يَحيدُ ٱلمَبْغى عَنْهُ، كَما لا تَحيدُ ٱلعاهِراتُ عَنْ شَرَفِ مُؤَخّراتِهِنَّ، فَهُنَّ لا يَقْبَلْنَ مُضاجَعَةً مِنَ ٱلخَلْفِ، وَيَتَباهَيْنَ: «لَوْ أُعْطينا زِنَةَ وَزْنِنا ذَهَباً لَما فَعَلْنا». هذا آخِرُ ما تَبَقّى لَهُنَّ لِيَتَشَبَّهْنَ بِٱلآدَميِّ ٱلمَفْقودِ.

وٱلقَهْرَمانَةُ أمينَةُ ـ جارَتُنا ـ تَمْلِكُ ثَلاثينَ قِطَّةً، وَكَلْباً واحِداً، تُطْعِمُهُنَّ بَناتُ ٱلحاجِّ حَسَن في غِيابِها. قِطَطٌ مُدَلَّلَةٌ، وكَلْبٌ أشَدُّ دَلالاً. يَأْكُلْنَ مِنَ ٱللَّحْم ٱلأنْقى، وما يَعْجِزْنَ عَنِ ٱلْتِهامِهِ تَسْرِقْهُ مُرْضِعاتُهُنَّ ـ بَناتُ ٱلحاجِّ.

القِطَطُ لا تُغادِرُ ٱلمَنْزِلَ، ولَهُنَّ رَهافَةُ حَدْسٍ يَسْتَطِعْنَ بِها تَخْمينَ مَوْعِدِ وُصولِ ٱلقَهْرَمانَةِ، فَيُنَطْنِطْنَ ويَمُؤْنَ في صَخَبٍ. أمّا ٱلكَلْبُ فَيَشْرُدُ حينَ تَسْنَحُ ٱلفُرْصَةُ، وهيَ لَيْسَتْ فُرْصَتَهُ، بَلْ فُرْصَتُنا. نَرُشُّهُ برَمادِ الرَّوْثِ، أوْ نَسْتَدْرِجُهُ فَنَبولُ عَلَيْهِ. وبَعْدَ مُنْتَصَفِ ٱللَّيْلِ نَسْمَعُ عَويلَ ٱلقَهْرَمانَةِ: «ماذا فَعَلوا بِكَ يا بوبو، بونجي؟ ماذا فَعَلْتُمْ بِهِ يا أَبْناءَ الشَّوارِعِ؟»، ثُمَّ يَخْفُتُ صَوْتُها مُدَلِّلَةً: «حَبيبي بونجي. كَمْ مَرَّةٍ نَهَيْتُكَ عَنِ ٱلخُروجِ! هؤلاءِ أوْباشٌ، يَأْكُلونَ ٱلبَشَرَ يا حَبيبي. عَيْناي فِداكَ...».

مَرَّ وَقْتٌ طَويلٌ قَبْلَ أنْ تُقاطِعَها بَناتُ ٱلحاجِّ حَسَن أيْضاً،

تَحْتَ وَطْأَةِ أنْ يَصْفَعَ إمامُ ٱلمَسْجِدِ ٱلحاجَّ، صارِخاً بِهِ: «بَطْنُكَ مَلأى بِالنّارِ. لا تَدْخُلْ مَسْجِدَنا».

بَقِيَتِ ٱلقَهْرَمانَةُ وَحيدَةً مَعَ أُبَّهَةِ مُحَرِّكاتِ السَّيّاراتِ ٱلَّتي تُقْلِقُ النّائِمينَ لَيْلاً، حتّى أنَّ الدِّيَكَةَ كانَتْ تَصيحُ ظَنّاً مِنْها أنَّهُ الصَّباحُ. ثُمَّ ٱخْتَفَتِ ٱلمُحَرِّكاتُ وَضَجيجُها، وباتَتِ ٱلقَهْرَمانَةُ تُلازِمُ ٱلبَيْتَ مُحْدَوْدِبَةً كَعودٍ يابِسٍ. وكانَتْ تَزورُها بَيْنَ ٱلحينِ وٱلحينِ عاهِرَةٌ تَمْلأُ ٱلحَيَّ بِعِطْرِها الرَّخيصِ، ثُمَّ تَمْضي فَتَخْرُجُ ٱلقَهْرَمانَةُ لِتَجْلِسَ، في وَهَنٍ، عَلى كُرْسِيٍّ صَغيرٍ أمامَ بابِها، غَيْرَ قادِرَةٍ على رَدِّ القِطَطِ ٱلَّتي بَدَأَتْ تَشْرُدُ مِنْ حَوْلِها، ثُمَّ صارَتْ تَحومُ حَوْلَ ٱلمَزابِلِ، ثُمَّ ٱبْتَعَدَتْ إلى ٱلأزِقَّةِ وٱلأحْياءِ، وَلَمْ تَعُدْ.

الكَلْبُ، وَحْدَه، ظَلَّ أميناً لأمينَةَ. يُقْعي قُرْبَ كُرْسِيِّها وَيَنامُ. غَيْرَ أنَّ أعْيُنَنا كانَتْ على ٱلكَلْبِ الصَّغيرِ، ذاكَ، ذي الشَّعْرِ النّاعِمِ، فَٱسْتَدْرَجْناهُ وَحَمَلْناهُ في كيسٍ إلى حَيْثُ مِدْحَلَةُ ٱلبَلَدِيَّةِ ٱلَّتي تُسَوّي الطُّرُقَ فَتَسْتَوي كَوَرَقَةِ الدَّفْتَرِ. رَمَيْناهُ في غَفْلَةٍ مِنَ السّائِقِ تَحْتَ عَجَلَتِها ٱلحَديدِيَّةِ الضَّخْمَةِ، فَٱخْتَلَطَتْ طَقْطَقَةُ ٱلعِظامِ بِقَعْقَعَةِ ٱلحَجَرِ ٱلمُتَهَشِّمِ.

«فِداكَ عَيْنايَ»، نَقولُ الكَلِمَةَ وَنَحْنُ نَعْبُرُ بِقُرْبِ ٱلقَهْرَمانَةِ

ٱلغائِصَةِ كَجُثَّةٍ قَديمَةٍ في كُرْسِيِّها، فَتَرْفَعُ عَيْنَيْها إلَيْنا، ولا تَرُدُّ.

تَبّاً لَنا، فَلْنُلْقِ بٱلقَهْرَمانَةِ أيْضاً تَحْتَ عَجَلاتِ ٱلمِدْحَلَةِ. فَلْنُلْقِ بِها، وبالثُّكْنَةِ، وبٱلبَلَدِيَّةِ، وبٱلمُسْتَشْفى ٱلَّذي تَؤُمُّه ٱلعاهِراتُ، أُسْبوعِيّاً، لِبَسْطِ فُروجِهِنَّ تَحْتَ ٱلمُجْهِرِ. فَلْنُلْقِ بالشِّمالِ. لكِنَّ الشِّمالَ كالزِّئْبَقِ، يَتَشَظّى كُراتٍ ثُمّ يَلْتَحِمُ، فَيُلْقي بَعْضُنا بِبَعْضٍ في بَسالاتٍ لا طائِلَ تَحْتَها.

هكَذا، كَٱسْتِعْراضٍ لِلْبَسالَةِ ٱليَوْمِيَّةِ، وكَمُناوَرَةٍ مِنْ مُناوَراتِ ٱلكائِنِ الشِّماليِّ لِلٱحْتِيالِ عَلى أعْماقِهِ، ٱنْدَفَعَ الكولِيّونَ بخُطّافاتِهِمْ، وبٱلهِراواتِ، وبِسَكاكينِ ٱلجَيْبِ، عَلى أحْمَدَ ٱبْنِ ٱلقَصّابِ.

كانَ سَيِّىءَ ٱلحَظِّ ٱبْنُ ٱلقَصّابِ هَذا. فَمُنْذُ أُسْبوعٍ فَقَطْ دَخَلَ رَجُلُ مُخابَراتٍ إلى ٱلمَحَلِّ؛ رَجُلٌ فَظٌّ كَعادَةِ هذا الصِّنْفِ، وحَصَلَتْ مُشادَّةٌ بَيْنَ ٱلاثْنَيْنِ، شَهَرَ فيها ٱلأخيرُ مُسَدَّسَهُ وَضَرَبَ أحْمَدَ عَلى رَأْسِهِ فَتَسَرْبَلَ بالدَّمِ. ثُمَّ جاءَتِ الشُّرْطَةِ وَأَخَذَتِ ٱبْنَ ٱلقَصّابِ فأمْضى أُسْبوعاً في السِّجْنِ مِنْ غَيْرِ ما سَبَبٍ. وَها هُوَ، في ٱليَوْمِ ٱلأوَّلِ مِنْ إطْلاقِ سَراحِهِ، يَتَشاجَرُ مَعَ ٱبْنِ أحَدِ ٱلكولِيّينَ، وفي هَذِهِ ٱلمَرَّةِ ضَرَبَ أحْمَدُ

الشّابَّ بسِكّينٍ، فَسَلَخَ بَعْضاً مِنْ فَرْوَتِه، خَلْفَ ٱلأُذُنِ. وَما إنْ تَناهى ٱلخَبَرُ إلى الرِّجالِ ٱلقُساةِ حَتّى طَوَّقوا مَحَلَّ ٱلقَصّابِ، وٱنْدَفَعوا مُحاوِلينَ جَرَّ ٱلفتى خارِجاً، لكِنَّهُ رَفَعَ ساطوراً ضَخْماً، ولَوَّحَ بِهِ في ٱلوُجوهِ فٱضْطُرّوا إلى ٱلاٱبْتِعادِ قَليلاً. وكانَتْ تِلْكَ فُرْصَةُ ٱلفَتى، فَأَسْدَلَ ٱلبابَ الصَّفيحِيَّ عَلى نَفْسِه، رَيْثَما يَتَدَخَّلُ أحَدٌ ما لِفَضِّ ٱلمُشْكِلِ.

كانَ تَقْديرُ الفَتى، ٱلَّذي تَنْتابُهُ بَيْنَ ٱلحينِ وٱلحينِ نَوْباتٌ مِنَ الصَّرَعِ، خاطِئاً، فَما مِنْ بابٍ موصَدٍ يَرُدُّ كوليّاً غاضِباً.

وَقَفَتِ النِّساءُ مِنْ خَلْفِ الرِّجالِ هاتِفاتٍ: «أيَتَجَرَّأُ أَحَدٌ عَلَيْنا؟»، فَيَرُدُّ الرِّجالُ بدَمْدَمَةٍ: «خَسِئوا»، ثُمَّ يَصْدِمونَ بأجْسادِهِمُ ٱلبابَ كَما يَصْدِمُ ٱلجَرادُ نَوافِذَ ٱلبُيوتِ صَيْفاً، في طَيَرانِهِ ٱلبَليدِ. بَلْ جاءَ بَعْضُهُم بعَمودٍ طَويلٍ. أَبْعَدوا ٱلآخَرينَ وأهْوَوْا عَلى الصَّفيحِ قَرْعاً حَتّى ٱهْتَزَّ ٱلمَحَلُّ مِنْ أساسِاتِه، وَكانوا كُلَّما أوْشَكوا أنْ يَدْفَعوا السِّتارَةَ الصّفيحِيَّةَ إلى الدّاخِلِ قَليلاً، خَرَجَتْ مِنْ تَحْتِ ٱلبابِ شَفْرَةٌ مُضيئَةٌ، في حَرَكَةٍ دائرِيَّةٍ تَكادُ تَحْصُدُ ٱلأقْدامَ.

يَأْسٌ وَراءَ ٱلبابِ، وَغَضَبٌ أمامَهُ. يَأْسٌ مُضَمَّخٌ برائِحَةِ ٱللَّحْمِ

النَّيْءِ، وَغَضَبٌ مُكابِرٌ. وَلَمْ يَكُنِ الصِّراعُ صِراعاً بَيْنَ فَتىً ورِجالٍ. الفَتى يَشْحَذُ مَهاراتِهِ في جَعْلِ السّاطورِ طَيِّعاً، رَخيماً كَصَفيرِ ريحٍ تَعْبُرُ الشُّقوقَ ٱلَّتي تَتَدافَعُ مِنْها الأيْدي. والرِّجالُ عاكِفونَ على تَقْديرِ ٱلوَقْتِ ٱلَّذي يَسْتَسْلِمُ فيهِ بابٌ كَهذا. غَيْرَ أنَّ كُلّاً مِنْهُما، حينَ يُنْجِزُ ما عَلَيْه، سَيَقِفُ أمامَ ٱلآخَرِ وَجْهاً لِوَجْهٍ، وَلَيْسَ في وُسْعِهِ، بَعْدَ ذا إلّا أنْ يَجْعَلَ ٱليَأْسَ يَأْساً، وٱلغَضَبَ غَضَباً.

في تِلْكَ الأَثْناءِ ٱلَّتي ٱخْتَلَطَ ٱلغُبارُ فيها بِٱلقَرْعِ، حَضَرَ عَمُّ ٱلجَريحِ، وَهُوَ وَجيهٌ مِنْ وُجَهاءِ ٱلكوليِّينَ، ٱجْتَمَعَتْ لَهُ حِكْمَةُ السَّيِّدِ. دَفَعَ الرِّجالَ بِيَدَيْهِ عَنِ ٱلبابِ، صارِخاً: «تَرْتَكِبونَ مَجْزَرَةً مِنْ أجْلِ جُرْحٍ بَسيطٍ؟ تَبّاً لَكُمْ»، فَٱرْتَخَتِ ٱلأيْدي عَلى مَقابِضِ ٱلخُطّافاتِ، وٱلسّكاكينِ، وٱلأسْلِحَةِ ٱلخَشَبِيَّةِ. وإذْ شَعَرَ الفَتى بِبَعْضِ ٱلاطْمِئنانِ، رَفَعَ ٱلبابَ الصَّفيحِيَّ ٱلَّذي يَلْتَفُّ عَلى بَكَرَةٍ في ٱلأعْلى، وَوَقَفَ يَرْقُبُ ٱلآخَرينَ كَٱلمُحارِبِ، وفي يَدِهِ ساطورُه، وَحَوْلَ فَمِهِ زَبَدٌ وَعَرَقٌ.

كانَ عارِفاً أنَّه نَجا بِحِكْمَةِ أحَدِهِمْ، لا بِبَأْسِهِ، وَمَعَ ذلكَ لَمْ تَطْرَفْ لَهُ عَيْنٌ، في حينِ جالَتْ نَظَراتٌ ذاتُ أنْيابٍ

ومَخالِبَ عَلى مَعالِمِ وَجْهِهِ، مِنَ ٱلجِهَةِ ٱلمُقابِلَةِ لِلْمَحَلِّ؛ الجِهَةِ ٱلَّتي تَحَلَّقَ فيها الرِّجالُ يَعَضُّونَ أعْماقَهُمْ، وحِكْمَةَ ٱلحُكَماءِ.

وَنَحْنُ نَعَضُّ أعْماقَنا أيْضاً، نَحْنُ ٱلفِتْيَةَ ٱلَّذينَ نَقْضي أيّامَ ٱلعُطْلَةِ الصَّيْفِيّةِ في مُسْتَنْقَعٍ، أو عَلى ضِفَّةِ نَهْرٍ جافٍّ. نَسْرِقُ ٱلبَطّيخَ ٱلأحْمَرَ مِنَ ٱلعَرَباتِ، وَأسْلاكَ النُّحاسِ، وَالصَّفائِحَ ٱلفارِغَةَ، وأكْياسَ ٱلخَيْشِ، وأحْياناً كَثيرةً جُيوبَ آبائِنا. مُهْمَلونَ، والفَرْقُ كَبيرٌ بَيْنَنا وَبَيْنَ الدَّجاجِ ٱلَّذي يُدَلِّلونَهُ. فَلْيَسْقُطِ الدَّجاجُ.

وَلكِنَّ هَذِهِ السَّنَةَ مِنْ سَنَواتِ صِبايَ هِيَ أوّلُ مَدْخَلٍ لي إلى كَسْبِ نُقودٍ لا أُضْطَرُّ إلى سَرِقَتِها. فَقَدْ أخَذَني أبي إلى مَكْتَبِ تاجِرِ حُبوبٍ. سَلَّمَني كأمانَةٍ يَرُدُّها إلى أصْحابِها، وَمَضى.

كانَ التّاجِرُ، هذا، كاتِباً عَدْلاً سابِقاً. يَمْلِكُ مَحَطَّةَ بَنْزينٍ، وحُقولَ بَطّيخٍ وقَمْحٍ، وسَيّاراتٍ، وَأشْياءَ أُخْرى كَثيرةً. رَجُلٌ قَصيرُ ٱلقامَةِ، عَصَبِيُّ ٱلمِزاجِ. يَصْرُخُ فَيَخْرُجُ الصُّراخُ مِنْ حَنْجَرَتِهِ، وجُيوبِه أيْضاً. وَقَدْ بادَرَني فَوْرَ خُروجِ أبي قائِلاً: «هاتِ كوبَ ماءٍ». رَكَضْتُ إلى ٱلمَقْهى ٱلَّذي لا يَبْعُدُ أرْبَعَةَ

أمْتارٍ، وأَتَيْتُهُ بكوبِ ماءٍ. شَرِبَ مِنْه وَهُوَ يَرْمُقُني. بَعْدَ قَليلٍ جاءَ سائِقُه، أعْطاني ليرةً وَقالَ: «هاتِ سندويش كَباب»، رَكَضْتُ إلى ٱلمَطْعَمِ وأتَيْتُهُ بالطَّعامِ. ثُمَّ جاءَ عامِلُ مَحَطَّةِ ٱلبَنْزينِ، بادَرَني: «أتَشْتَغِلُ هُنا؟»، قُلْتُ: «نَعَمْ». قالَ: «هاتِ ٱلبَطّيخَ ٱلَّذي في ٱللّاندروفر». رَكَضْتُ وَجِئْتُ بِٱلبَطّيخِ إلى ٱلمَكْتَبِ، على ثَلاثِ دُفُعاتٍ. ثُمّ ناداني الطّابِعُ على ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ، قائِلاً: «هاتِ عُلْبَةَ تَبْغٍ»، رَكَضْتُ وَجِئْتُهُ بِعُلْبَةِ التَّبْغِ. دَخَلَ آبْنُ ٱلمُعَلِّمِ الصَّغيرُ، تَفَحَّصَني وَقالَ: «ٱنْحَنِ، أُريدُ أنْ تَنْحَنِيَ لِأَرْكَبَ ظَهْرَكَ»، فَنَهَرَهُ والِدُهُ: «هذا لَيْسَ حِماراً»، فَسَكَتَ الصَّغيرُ، لكنّه حاذاني وَرَكَلَني عَلى ساقي فَتَرَقْرَقَ ٱلأَلَمُ في ٱلعَظْمِ. ثُمَّ دَخَلَ ضَيْفانِ. غَمْغَمَ ٱلمُعَلِّمُ: «هاتِ قَهْوَةً». رَكَضْتُ إلى ٱلمَقْهى فَجاءَتِ ٱلقَهْوَةُ. غَمْغَمَ ٱلمُعَلِّمُ ثانِيَةً: «سَأَخْرُجُ ٱلآنَ، وحينَ أعودُ فَلْيَكُنِ ٱلمَكْتَبُ نَظيفاً». خَرَجَ ٱلمُعَلِّمُ وَدَخَلَتِ المِكْنَسَةُ. كانَتْ أَطْوَلَ مِنّي، فَبَذَلْتُ جُهْداً كَبيراً في ٱسْتِعْمالِها، وَكانَ الطّابِعُ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ يُرْشِدُني: «هكَذا... هكَذا...»، وَتَبِعْتُ التَّعْليماتِ حتّى فَرَغْتُ مِنَ ٱلمَكْتَبِ، وَلَمْ أكَدْ أَلْتَقِطُ أنْفاسي حَتّى دَخَلَ سائِقُ ٱلمُعَلِّمِ مِنْ

جَديدٍ قائِلاً: «آحْمِلْ هذِهِ آلأَغْراضَ إلى بَيْتِ آلمُعَلِّم»، حَمَلْتُها عَلى ظَهْري مُتَرَنِّحاً، وآجْتَزْتُ بِها كيلومِتْرَيْنِ.

هذِهِ أَوَّلُ مَرّةٍ أَدْخُلُ بَيْتاً كَهذا، فيهِ أراجيحُ لِلأَطْفالِ، وبَرّادٌ، وغَسّالَةٌ، وغُرَفٌ لا تُحصى. وفيهِ خادِمَةٌ هَرْوَلَتْ صَوْبي، وَأَنْزَلَتِ آلحِمْلَ. نَظَرَتْ إلَيَّ في تَعاطُفٍ واضِحٍ: «أَأَنْتَ جَديدٌ؟»، أوْمَأْتُ بِرَأْسي إيجاباً. عِنْدَئِذٍ آقْتَرَبَتِ آبْنَتا آلمُعَلِّمِ، وَآبْنُهُ الصَّبِيُّ. تَفَحَّصوني بِدِقَّةٍ، وتَبادلوا نَظَراتِ الرِّضا.

قالَتْ إحْدى آلفَتاتَيْنِ: «أَتَذْهَبُ إلى آلمَدْرَسَةِ؟»، أَجَبْتُ: «نَعَمْ». قالَتْ: «تَعْرِفُ آلقِراءَةَ إذاً»، أوْمَأْتُ: «نَعَمْ». قالَتْ: «هاتِ مَجَلَّةَ سمير مِنَ آلمَكْتَبَةِ»، وَنَقَدَتْني نِصْفَ ليرَةٍ. رَكَضْتُ عائِداً إلى سوقِ آلمَدينةِ، فَآشْتَرَيْتُ مَجَلَّةً وَعُدْتُ إلى بَيْتِ آلمُعَلِّمِ، وَمِنْ هُناكَ عُدْتُ، ثانِيَةً، إلى آلمَكْتَبِ. قالَ آلمُعَلِّمُ: «أيْنَ كُنْتَ؟»، قُلْتُ: «آشْتَرَيْتُ مَجَلَّةً لِبَناتِكَ»، رَمَقَني في آزْدِراءٍ: «هاتِ قَهْوَةً»، رَكَضْتُ إلى آلمَقْهى.

راكِضاً أُنْجِزُ آلأُمورَ. سَريعٌ أنا، سريعٌ كَسَيّارةِ آلمُعَلِّم. سَريعٌ حتّى الإعْياءِ، وَالزّائرونُ كُثُرٌ، والطَّلَباتُ أَكْثَرُ، كُلُّهُمْ

يَدْخُلونَ وفي أفواهِهِم كَلِمَةُ «هاتِ». قُلْتُ لِنَفْسي: «لا. سَأَخْتَلِقُ أيَّ أمْرٍ يُسَبِّبُ طَرْدي. لا. لَنْ أصْبِرَ هُنا».

بَعْدَ أُسْبوعٍ مِنْ بَدْءِ ٱلعَمَلِ نَفَّذْتُ تَهْديدي تجاهَ ٱلمَكْتَبِ ٱلمَقيتِ. دَخَلَ ٱبْنُ المُعَلِّمِ الصَّغيرُ وَرَكَلَني كَعادَتِه، فَرَكَلْتُهُ، بِدَوْري، فَٱرْتَفَعَ عَنِ ٱلأرضِ نِصْفَ مِتْرٍ وَهَوى. قامَ وشَكاني إلى أبيهِ ٱلَّذي ٱكْتَفى بِتَهْدِئَتِهِ. لَمْ يَطْرُدْني. آآه. سَأُخَفِّفُ عَنْ نَفْسِيَ ٱلكَثيرَ إذاً. لَنْ أَشْترِيَ شَيْئاً، بَعْدَ ٱليَوْمِ، لِسائقِهِ؛ وفِعْلاً حينَ جاءَني السّائقُ طالِباً شِراءَ عُلْبَةِ تَبْغٍ، قُلْتُ: «إذْهَبْ أنْتَ». ذَهَبَ السّائِقُ وشَكاني إلى ٱلمُعَلِّمِ. ناداني ٱلمُعَلَّمُ صارِخاً: «إذْهَبْ إلى بَيْتِكَ. لا نُريدُ آغا».

وفي ٱليَوْمِ الثّاني جَرَّني أبي جَرّاً إلى ٱلمَكتَبِ. وَشْوَشَ المُعَلِّمَ، وَكانَ واضِحاً أنَّ ٱلأخيرَ يَحْتَرِمُ أبي عَلى مَجْدٍ مَضى، فَوافَقَ على ٱسْتِبْقائي.

وَعادَتِ الطَّلَباتُ مِنْ جَديدٍ، لكِنَّ عَزائِي كانَ في التَّعَلُّمِ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ. فَالطّابِعُ الشّابُّ دَمِثٌ، مَنَحَني أسْرارَ الضَّرْبِ عَلى ٱلآلَةِ مُغْمَضَ ٱلعَيْنَيْنِ. وَكانَ يَسْأَلُني بَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ عَنْ فَتَياتِ حَيِّنا.

لَمْ أعْرِفْ في ٱلبِدايَةِ سَبَبَ أسْئِلَتِهِ تِلْكَ، لكِنَّهُ أوْضَحَ ٱلأمْرَ بِنَفْسِهِ. فَهُوَ مُتَزَوِّجٌ، حَديثاً، مِنِ ٱبْنَةِ ٱلحاجِّ حَمْزَةَ، ويُريدُ بَعْضَ ما أَعْرِفُهُ عَنْ سيرَةِ ٱلفَتاةِ ٱلَّتي يَفْصِلُ بَيْتَ أبيها عَنْ بَيْتِنا شارِعانِ. وأَجَبْتُهُ أنَّني لا أعْرِفُ ٱلكَثيرَ عَنْها، غَيْرِ أنَّني لَمَحْتُها، مِراراً، تَحْمِلُ صَفيحَةً فارِغَةً لِجَمْعِ الرَّوْثِ. كُنْتُ مُتَأَكِّداً أنْ لَيْسَ في ذَلِكَ ما يُريبُ، فَٱلأمْرُ طَبيعِيٌّ، مُتَوارَثٌ بَيْنَ هؤلاءِ ٱلفُقَراءِ. لكِنَّ الطّابِعَ بوغِتَ بِٱلخَبَرِ.

قالَ لي: «تَزَوَّجْتُها عَلى أنَّها لَمْ تَخْرُجْ مِنْ بَيْتِ أبيها قَطُّ»، وَأضافَ: «أبوها كَذّابٌ. أخَذَ مِنّي مَهْراً لا تَسْتَأْهِلُهُ فَتاةٌ تَجْمَعُ الرَّوْثَ».

لَمْ يَعْنِني أمْرُ زَوْجَتِهِ، ولا أمْرُ والِدِها. أُريدُ، فَقَطْ، أنْ تَنْقَضِيَ أشْهُرُ الصَّيْفِ هذِهِ. فَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ في حَياتي أتَمَنّى ٱلعَوْدَةَ إلى ٱلمَدْرَسَةِ، لأنْجُوَ مِنْ مَكْتَبِ المُعَلِّمِ ٱلقَصيرِ، ٱلَّذي أقِفُ أمامَهُ في نِهايَةِ كُلِّ أُسْبوعٍ لِيُعْطِيَني خَمْسَ ليراتٍ، وأحْياناً يَرُدُّني قائِلاً: «سَأُعْطيكَ فيما بَعْدُ». وَقَدِ ٱمْتَدَّتْ كَلِمَةُ «فيما بَعْدُ» حتّى نِهايَةِ الصَّيْفِ، وإذْ طالَبْتُهُ بِأَجْري صَرَخَ: «لَمْلَمْتُكَ حَتّى لا تَشْرُدَ في الشَّوارِعِ صَيْفاً، فَلْيَشْكُرْني أهْلُكَ على هذِهِ

النِّعْمَةِ»، فَعُدْتُ إلى ٱلبَيْتِ مُخْتَنِقاً. سَرَدْتُ ٱلأَمْرَ عَلى أبي فَغَمْغَمَ: «سَأُريهِ»، لكِنَّهُ كانَ أَقَلَّ سُلْطَةً مِنْ أنْ يَسْحَلَ ٱلمُعَلِّمَ في سوقِ التُّجّارِ، بإشارَةٍ من إصْبَعِهِ، مِثْلَما كانَ يَفْعَلُ، في ٱلماضي، برِجالٍ أكْبَرَ شَأْناً.

مَضى زَمَنُ أبي. مَضى أنْ يَجْتَمِعَ مِنْ حَوْلِهِ مائَةُ عَتّالٍ بخُطّافاتِهِمْ، صارِخينَ: «مَنْ نُؤَدِّبُ يا سَيِّدَنا ٱلمَلاّ؟»، وَها هُوَ يَجْلِسُ، كُلَّ يَوْمٍ على طاولةٍ في ٱلمَقْهى، مُرْتَشفاً شاياً داكِناً، كأنَّما يَنْتَظِرُ النَّفيرَ ٱلَّذي يوقِظُ القُرى فَتَهْتِفُ: «لَبَّيْكَ»، ويوقِظُ السُّهولَ فَتَنْحَني لِقامَتِهِ السَّنابِلُ.

مَضى زَمَنُكَ أبي، وباتَ كاتِبُ عَدْلٍ سابِقٌ يَأْكُلُ عَرَقَ طِفْلِكَ أنْتَ!! تبّاً، لكِنَّ زَمَنَ ٱلمُعَلِّمِ مَضى أيْضاً. فَٱلأَرْضُ تَبْتَلِعُ بُذورَها سَنَةً بَعْدَ سَنَةٍ، وَيَبْسُطُ ٱلجَفافُ ظِلَّه الصِّئْبانِيَّ عَلى السُّهولِ. ومِنْ أجْلِ أنْ تَكْتَمِلَ حَلْقَةُ حِقْدي، هَوى ٱبْنُ ٱلمُعَلِّمِ ٱلأكْبَرُ مِنْ سورِ ٱلمَدْرَسَةِ على رَأْسِهِ. دارَ بِهِ ٱلمُعَلِّمُ مِنْ طَبيبٍ إلى طَبيبٍ، ومِنْ مَدينَةٍ إلى مَدينَةٍ، ثُمَّ عادَ راضِياً، عَلى مَضَضٍ، بٱبْنٍ يَهُزُّهُ صُداعٌ دائِمٌ، وتَشَنُّجاتٌ تُخَلْخِلُ ٱلعُروقَ. وَلَمْ يَقِفِ ٱلأَمْرُ عِنْدَ هَذا ٱلحَدِّ، فَقَدْ تَشَرَّدَ مُوَظَّفو ٱلمُعَلِّمِ

وَعُمّالُهُ، كَأَنَّما أصابَتْهُم لَعْنَةٌ. فالطّابِعُ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ ٱبْتُلِيَ بنُكافٍ تَحْتَ شَحْمَةِ أُذُنِهِ، والنُّكافُ يَقْطَعُ النَّسْلَ. ثُمَّ كَبُرَتِ الدُّمَّلَةُ ٱلحَمْراءُ حَتّى ٱلْتَوى فَمُهُ. وكانَ آخِرُ عَهْدِنا بِهِ يُعَلِّمُ الضَّرْبَ عَلى ٱلآلَةِ ٱلكاتِبَةِ في ٱلمَرْكَزِ الثَّقافِيِّ لِمَدينَةِ ٱلقامِشْلي، مُعْتَمِراً حَطَّةً بَيْضاءَ عَلى رَأْسِهِ يَتَقَنَّعُ بِها مِنْ فَداحَةِ التَّشْويهِ ٱلَّذي أصابَ وَجْهَهُ. أمّا سائِقُهُ فَباتَ يَتَنَقَّلُ مِنْ سِجْنٍ إلى سِجْنٍ، وَكُلَّما خَرَجَ ٱرْتَدى ثِياباً كَثِيابِ رِجالِ النِّفْطِ ٱلعَرَبِ السّائِحينَ، حامِلاً حَقيبَةً سَوْداءَ ضَخْمَةً، يَشُدُّ بها غَبِيّاً مِنَ الأغْبياءِ إلى عَمَلِيَّةِ نَصْبٍ لا تَلْبَثُ أنْ تَكْشِفَها الشُّرْطَةُ.

لَمْ يُغَيِّرِ الرَّجُلُ دَوْرَهُ قَطُّ، وَلَمْ يُغَيِّرْ في أساليبِهِ، أمّا مُتَعَهِّدُ حُقولِ ٱلبَطّيخِ، ذو ٱليَدِ ٱلمَفْلوجَةِ، فَقَدِ ٱرْتَضى بِمَحَطَّةِ ٱلبنزينِ نَصيباً مِمّا لَهُ في ذِمَّةِ المُعَلِّم. لكِنَّ ٱلمَحَطَّةَ النّائِيَةَ عَلى التُّخومِ لَمْ تَكُنْ تَمُرُّ بِها سَيّارَةٌ في ٱلأُسبوعِ، فَأُقْفِلَتْ. وحينَ ضاقَ بِهِ ٱلأَمْرُ دَفَعَ زَوْجَةَ ٱبْنِهِ إلى ٱمْتِهانِ ٱلبَغاءِ، فذاعَ صيتُها، وتَمَرَّغَ صيتُه، وقِسْ على ذلِكَ خادِمَتَهُ ٱلَّتي طَلَّقَها زَوْجُها، وعُمّالَ نَقْلِ قَمْحِهِ، ٱلَّذينَ باتوا يَبيعونَ ٱلكازَ على طَنابِرَ تَقودُها ٱلبِغالُ بَيْنَ ٱلحاراتِ، فَلا يُصيبونَ مِنَ الرِّزْقِ إلّا نَزْراً يَسيراً.

هَيْتَ لكَ يا مُعَلِّمُ. هَيْتَ لَكَ، خُذ ما يَمْلِكُ الشِّمالُ مِنْ

هَباءٍ. كاتِبٌ عَدْلٌ كُنْتَ، ونَحْنُ كَتَبَةٌ عُدولٌ عَلى طَريقَتِنا، نُزَوِّقُ النَّصَّ ونَمْهَرُهُ بحافِرِ ٱلحِمارِ، ونُحَرِّضُ ٱلفَجيعَةَ عَلى ٱلفَجيعَةِ. فَهذا دينو الشّابُّ يَجْلِسُ ٱلقُرْفُصاءَ أمامَ بابِ بَيْتِهِ، مَطْعوناً في صَميمِ قَلْبِهِ؛ وها نَحْنُ مُقْتَرِبونَ مِنْه: «هاتِ رِسالَةً دينو. هاتِ رِسالَةً، وسَنَتَدَبَّرُ أمْرَ إيصالِها»، فَيَكْتُبُ دينو: «حَبيبَتي سَأموتُ. أبوكِ بَغْلٌ وَٱبْنُ بَغْلٍ»، وَنَأْخُذُ الرِّسالَةَ إلى حَبيبَتِهِ، وَهِيَ مُعَلِّمَةٌ ٱبْتِدائيَّةٌ، وٱبْنَةُ شاعِرٍ كُرْدِيٍّ مَشْهورٍ، فَتَرُدُّ: «حَبيبي إذا أرَدْتَ أنْ تَخْتَطِفَني فَٱفْعَلْ، لكِنَّني أخافُ عَلَيْكَ». ويَغيبُ دينو مِنَ ٱلحَنَقِ عَلى أحْوالِهِ. لَقَدْ بَذَلَ ٱلمُسْتَحيلَ لِيُقْنِعَ أباها بِتَزْويجِها مِنْه، فَرَفَضَ. عَلَّلَ دينو ٱلمَسْأَلَةَ بِسوءِ أحْوالِهِ ٱلمادِّيَّةِ، فَسَهِرَ سَنَتَيْنِ حتّى نالَ شَهادَةَ دارِ ٱلمُعَلِّمينَ، وَصارَ مُعَلِّماً في مَدْرَسَةٍ ٱبْتِدائِيَّةٍ. غَيْرَ أنَّ ٱلأبَ ظَلَّ عَلى مَوْقِفِهِ.

«ضاعَ دينو»، كُنّا نَقولُها في إشْفاقٍ. لَقَدْ بَدَأَ يُحَدِّثُ نَفْسَهُ ماشِياً. يَقِفُ في ٱلمُنْعَطَفاتِ وَيَحْتَدِمُ، كَأَنَّما يُجادِلُ أشْخاصاً حَقيقِيّينَ. أمّا حالُهُ، في ٱلمَدْرَسَةِ، فَكانَتْ أدْهى، يَجْلِسُ وَراءَ طاوِلَتِهِ وَيَشْرُدُ بِفِكْرِهِ بَعيداً، بَيْنَما يُحَوِّلُ التَّلامِذَةُ ٱلغُرْفَةَ إلى زَريبَةٍ. يَكْتُبونَ مِنْ فَوْقِ رَأْسِهِ، ويَنْفُخونَ في دَقيقِ الطَّباشيرِ

فَتَتَبَقَّعُ بِذْلَتُهُ السَّوْداءُ ٱلـمُخَطَّطَةُ، وَيَبْيَضُّ شارِباهُ الدَّقيقانِ. وَأخيراً رَفَعَ ٱلمُديرُ تَوْصِيَةً بِفَصْلِ «ٱلـمُخْتَلِّ عَقْلِيّاً»، فَفَصَلَتْهُ وِزارَةُ التَّربيَةِ. وها هُوَ يَجْلِسُ ٱلقُرْفُصاءَ أمامَ بابِ بَيْتِهِ، بَيْنَما نُحَرِّضُهُ ـ نَحْنُ الصِّبْيَةَ ـ عَلى آخِرِ قُفْلٍ سَرَقَ مِفْتاحَهُ ٱلجُنونُ.

لَمْ نَيْأَسْ، وَلَمْ يَيْأَسْ دينو. نَأْخُذُ رَسائِلَهُ وَنَأْتيهِ بِرَسائِلِها، وَكِلاهُما قانِعانِ بِٱلَّذي تَبَقّى لَهُما.

تَزَوَّجَتِ ٱلفَتاةُ مِنْ شَخْصٍ آخَرَ، وَظَلَلْنا نَنْقُلُ رَسائِلَ دينو. إنْتَقَلَتِ ٱلفَتاةُ مِنَ ٱلمَدينَةِ إلى مَدينَةٍ أُخْرى، وَظَلَلْنا نَنْقُلُ رَسائِلَ دينو. لكِنَّنا كُنّا نَعودُ إلَيْهِ، هذِهِ ٱلـمَرَّةَ، بِرَسائِلَ أشَدَّ حَماسَةً، ذاتِ حُروفٍ وَخَطٍّ رَكيكَيْنِ: «حَبيبي، إنَّني في ٱنْتِظارِكَ بَيْنَ أشْجارِ ٱلهِلاليَّةِ». «حَبيبي، سَأَقْتُلُ أبي ٱليَوْمَ. تَجَهَّزْ لِنَهْرُبَ إلى تُركيا». «حَبيبي، أعْطِ حامِلَ الرِّسالَةِ ليرَتَيْنِ لِشِراءِ غَرَضٍ لي». «حَبيبي، أنْتَ أجْمَلُ شابٍّ في العالَمِ»، وَيُنَفِّذُ دينو ما تَطْلُبُهُ الرَّسائلُ.

ودينو لَيْسَ وَحْدَه في ٱلهَمِّ، فَهَذا ٱبْنُ عَمِّنا، أيْضاً، تَكادُ تَأْخُذُهُ غَمامَةُ قَلْبِهِ السّارِحَةُ. يَشُقُّ قَميصَهُ غَضَباً، ويَعَضُّ على ٱلأبْوابِ: «بِحَقِّ الشَّيْطانِ، مِنْ أيْنَ وَجَدوا هذِهِ الصِّلَةَ؟».

كانَ ٱبْنُ عَمِّنا يُحِبُّ ٱبْنَةَ عَمِّهِ، وٱلعُرْفُ يُقِرُّ له أَنَّهُ أَوْلى مِنْ أيٍّ آخَرَ بالزَّواجِ مِنْها. لكِنَّ أُمَّ ٱلفَتاةِ صَرَخَتْ، في لَحْظَةٍ مِنْ لَحَظاتِ التَّجَلّي: «ٱلفَتاةُ حَرامٌ عَلَيْهِ. إنّها أُخْتُهُ في الرِّضاعَةِ». وَتَدْعَمُ أقْوالَها بِٱلكَثيرِ مِنَ ٱلوَقائِعِ: «ذَهَبَتْ أُمُّهُ لِجَمْعِ ٱلقَشِّ مِنَ ٱلبَيادِرِ، وَتَرَكَتْهُ عِنْدي، حينَ كانَ وَليداً، فأرْضَعْتُهُ». وَتُضيفُ، سائِلَةً زَوْجَةَ عَمِّنا ٱلأُخْرى: «أتَذْكُرينَ يَوْمَ خِتانِ ٱبْنِ حَمّو ٱلأكْبَرِ؟ يَوْمَ ذَبَحْتِ دَجاجَتَكِ ٱلمِبْياضَةَ فَوَجَدْتِ في بَطْنِها بَيْضَةً بثَلاثَةِ صَفاراتٍ؟ يَوْمَ تَدَحْرَجَتْ عَرَبَةُ حاموش في وادي ٱلخَنازيرِ؟ يَوْمَ... يَوْمَ». إلخ. وَتَتَذَكَّرُ أُمُّ الشّابِّ الواقِعَةَ فَتُوافِقُها، ويَضيعُ ٱلأمْرُ عَلى ٱبْنِ عَمِّنا، فَيَقْتَلِعُ شُجَيْراتِ ٱللّيفِ مِنْ ساحَةِ ٱلبَيْتِ في نَوْبَةٍ مَريرةٍ، صارِخاً: «ما هَمَّ؟ فَلْتَكُنْ أُخْتي في الرِّضاعَةِ... أُحِبُّها يا أَللَّهُ». وَمَنْ يَجْرُؤُ عَلى قَوْلِ كَلامٍ كَهذا؟ أُخْتُكَ في الرِّضاعَةِ هِيَ أُخْتُكَ. مَنْ أرْضَعَتْهُ ٱمْرَأَةٌ قَريبَةٌ، أوْ غَريبَةٌ، حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ بناتِها. «أَنُغَيِّرُ الدّينَ؟» يَصْرُخونَ بِهِ. «إهْدَأْ وَٱصْبِرْ، فأمامَكَ بَناتُ أعْمامٍ كُثُرٍ غَيْرِ عَمِّكَ هذا... إهْدَأْ»، وَلا يَهْدَأُ ٱلعاشِقُ.

كانا يَلْتَقِيانِ، كُلَّ صَباحٍ، في ٱلبَيادِرِ، يَجْمَعُ ٱلعاشِقُ

لِلْعاشِقَةِ وَلِأُخْتِهِ حُزَمُ ٱلقَشِّ. وَكانَ ٱلأَهْلونَ يَغُضّونَ الطَّرْفَ: «إنّه ٱبْنُ عَمِّها. سَيَتَزَوَّجُها عَلى أيَّةِ حالٍ».

لَقَدِ ٱسْتَغَلَّ العاشِقانِ ذلِكَ الرِّضا ٱلخَفِيَّ، وذاكَ ٱلإِغْضاءَ، فَأَمْعَنا في رَشْقِ عُمْرِهِما بالقُبَلِ وباللُّهاثِ الحُلْوِ. وكانَتْ أُخْتُ ٱلعاشِقِ تُسَوِّرُهُما بحُزَمِ ٱلقَشِّ فَيَغيبانِ عَنْ عُيونِ الحاصِداتِ. سَماءٌ مِنَ ٱلقَشِّ وأرْضٌ مِنَ ٱلقَشِّ، وَحَرَكَةٌ لَيِّنَةٌ كَأَنَّما تَطْوي ٱلعُذوبَةُ جِذْعَها وتَحْصُدُ النَّبْضَ السَّكْرانَ. «الكَلْبَةُ... الكَلْبَةُ» يُتَمْتِمُ ٱبْنُ عَمِّنا. «مِنْ أيْنَ ٱجْتَمَعَ لِسَليلَةِ الشَّيْطانِ هذا المَكْرُ؟... يا زَوْجَةَ عَمّي فَلْيأْكُلْكِ السِّلُّ»، وَنُرَدِّدُ نَحْنُ: «آمين»، ثُمَّ نُحَرِّضُهُ، فَيُصْغي كَطِفْلٍ: «فُضَّها يا أحْمَقُ، وسَيَرْضَخونَ. أَشَدُّ ٱلآباءِ وَالأُمَّهاتِ رَفْضاً يَرْضَخونَ صاغِرينَ أمامَ بَكارَةٍ مَهْدورَةٍ يا أَحْمَقُ. فُضَّها فُضَّها». ويَدورُ ٱبْنُ عَمِّنا بِعَيْنَيْهِ عَلى ٱلهواءِ: «إنّها ٱبْنَةُ عَمّي، أَضِنُّ بِها عَلى أمْرٍ كَهذا». وَنُعيدُ ٱلكَرَّةَ: «ٱخْطَفْها، وٱعْقِدْ قِرانَكَ عَلَيْها عِنْدَ شَيْخٍ لا يَعْرِفُ ٱلمَسْأَلَةَ، يا أحْمَقُ»، وَيَرُدُّ مُسْتَسْلِماً: «وأيُّ دَهاءٍ يَنْفَعُ؟ هِيَ أُخْتي مَهْما أعْمانِي قَلْبي»، وَتَطِنُّ كَلِمَةُ «أُخْتي» كَدَبّورٍ حَوْلَ رَأْسِهِ. فَيَقْرَعُ ٱلهَواءَ بِيَدَيْنِ

هاذِيَتَيْنِ: «إلهي، لِماذا لَمْ تَأْخُذْ روحَ هذِهِ ٱلحَيْزَبونِ قَبْلَ أنْ تُخْبِرَهُمْ؟».

يَهْدَأُ ٱلعاشِقُ حيناً، ويَثورُ حيناً آخَرَ، وَنَحْنُ نَسْتَغِلُّ ٱلحينَيْنِ في أنْ نَبُثَّهُ حِكْمَتَنا ٱلفَجَّةَ: «تَزَوَّجْ أُخْتَها يا أَحْمَقُ، وَسَيَكونُ ٱلأمْرُ مُبَرِّراً لِتَزورَكَ كُلَّ يَوْمٍ». ويَنْظُرُ ٱبْنُ عَمِّنا إلَيْنا مُسْتَغْرِباً «مِنْ أيْنَ لَكُمْ، أنْتُمْ أيْضاً، هذا الدَّهاءُ يا أوْلادَ ٱلشَّيْطانِ؟ أُخْتُها أُخْتي. ٱبْتَعِدوا عَنّي قَبْلَ أنْ أَرْتَكِبَ حَماقَةً»، وَيَنْهَضُ باحِثاً عَنْ أيِّ شَيْءٍ يَضْرِبُنا بِهِ، فَنُهَرْوِلُ مُبْتَعِدينَ، ثُمَّ نَرْفَعُ خَناصِرَنا في حَرَكَةٍ بَذيئَةٍ: «خُذْ يا عَكْروت... لا تَسْتَأْهِلُ النَّصيحَةَ».

حَرامٌ أنْ تَنْصَحَ عاشِقاً. كُلُّهُمْ يَرْكَبونَ رُؤوسَهُمْ وَلا يُصْغونَ، تَماماً كَٱبْنِ السَّمْكَرِيِّ هذا. وَٱبْنُ السَّمْكَرِيِّ أكْبَرُ مِنّا بِسَنَتَيْنِ، وفيهِ ٱلكَثيرُ مِمّا نَحْسُدُه عَلَيْهِ. غُرَّتُه أوَّلاً؛ غُرَّتُهُ ٱلمُنْسَدِلَةُ عَلى جَبينِه، ٱلَّتي يَرُدُّها حيناً بَعْدَ حينٍ بِيَدِهِ. يا أللَّهُ. أهْلُنا يَمْنعونَنا مِنْ إطالَةِ غُرَرِنا حتّى لا نَبْدوَ مُخَنَّثينَ. وَنَحْسُدُه عَلى تَدْخينِهِ أمامَ والِدِهِ، ثانِياً، بَلْ يُشْعِلُ لَهُ والِدُهُ لفافاتِهِ. يا أللَّهُ. مَنْ يَجْرُؤُ مِنّا عَلى التَّدْخينِ أمامَ والِدِهِ؟، فَآباؤُنا يَشُمّونَ أصابِعَنا وَأفْواهَنا، كُلَّ مَساءٍ، كُلَّ مَساءٍ، بَحْثاً عَنِ الرّائِحَةِ؛ وفي

كُلِّ مَساءٍ نُضْطَرُّ إلى مَضْغِ ما في الأَرْضِ مِنْ أعْشابٍ، وَأوْراقِ شَجَرٍ، قَبْلَ دُخولِنا إلى بُيوتِنا. وَنَحْسُدُهُ عَلى مِهْنَتِهِ ثالِثاً، وَعَلى مَهارَتِهِ ٱلَّتي لَنْ نُجارِيَها قَطُّ: يُشْعِلُ مَوْقِدَ ٱلكازِ، وَيَضَعُ فَوْقَهُ مِطْرَقَةً صَغيرَةً مُسَنَّنَةً حتّى يَحْمى حَديدُها، وإذْ يَتَوَهَّجُ الرَّأْسُ ٱلحَديدِيُّ يَرْفَعُها بِيَدٍ، مُمْسِكاً بِقَضيبٍ دَقيقٍ مِنَ ٱلقَصْديرِ في يَدِهِ ٱلأُخْرى، وَيُقَرِّبُهُما مِنَ ٱلآلَةِ المُرادِ تَصْليحُها فَيَلْحَمُ الثُّقوبَ والشُّقوقَ، وَبَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ يُمَرِّرُ رَأْسَ ٱلمِطْرَقَةِ فَوْقَ قِطْعَةٍ مِنْ حَجَرِ النَّشادِرِ فَيَعْلو دُخانٌ أزْرَقُ ذو رائِحَةٍ كَريهَةٍ. آهِ، حَجَرُ النَّشادِرِ يُنَظِّفُ ٱلمِطْرَقَةَ مِنَ ٱلقَصْديرِ العالِقِ بِها. وَٱلأَمْرُ كُلُّهُ مُمْتِعٌ، وَٱلأَكْثَرُ مُتْعَةً مُراقَبَتُنا لَهُ، وَهُوَ يَمُدُّ بِرَأْسِهِ مِنْ بابِ بَسْطَتِهِ ٱلخَشَبِيَّةِ لِيَرى ٱبْنَةَ جارِهِ ٱلمُهَرِّبِ حسّو.

نَقولُ لَهُ: ما لَكَ وَٱبْنَةَ حَسّو يا أحْمَقُ؟ أبوها ماهِرٌ في التَّصْويبِ بِبُنْدُقِيَّتِهِ، وَلا يُخْطِئُ هَدَفاً عَلى مَبْعَدَةِ مِلْيونِ مِتْرٍ يا أحْمَقُ»، ويُغْضي ٱبْنُ السَّمْكَرِيِّ مُتَفَكِّراً. بَيْنَما نُكْمِلُ نَحْنُ: «أخوها يا أَحْمَقُ. أخوها أمْهَرُ مَنْ يَدْلُقُ ٱلأَحْشاءَ بِسِكّينِهِ في ثانِيَةٍ واحِدَةٍ يا أَحْمَقُ». ويَزْدادُ ٱبْنُ السَّمْكَرِيِّ إغْضاءً. لكِنَّ ٱلإشاراتِ بِٱلأَيْدي، وٱلغَمْزاتِ بِٱلأَعْيُنِ، تَمْلأُ ٱلمَسافَةَ بَيْنَ بَسْطَتِهِ

وَبَيْتِ حَسّو، حين تُطِلُّ ٱلفَتاةُ ٱلمُتَوَرِّدَةُ أبَداً. وَكُنّا، كُلَّما ٱسْتَرْسَلا، قَطَعْنا بَيْنَهُما ذلِكَ السِّلْكَ الرّوحانيَّ ٱلمُتَوَهِّجَ بِصَخَبِنا: «عَوافي... عَوافي. يَلّلا يا حِمارَ ٱلحُبِّ، يا منديلي»، خالِطينَ كَلِماتِ ٱلأغاني، ٱلَّتي لا نُتْقِنُها، بالنَّهيقِ والنُّباحِ، فَيُضْطَرّانِ إلى التَّراجُعِ، كُلٌّ إلى مَمْلَكَةِ شجوووونه.

غَيْرَ أنَّ زَميلَنا أوسمان ٱلأعْرَجَ لَمْ يَكُنْ يُشارِكُنا التَّفَكُّهَ بِٱلعاشِقَيْنِ. يُراقِبُ ٱلأَمْرَ كُلَّهُ في ٱنْطِواءٍ، وَيَتَنَهَّدُ عالِياً. «ما دَهاكَ أوسمان؟ هَيّا ٱنْهَقْ»، نَصْرُخ بِهِ، ويَظَلُّ صامِتاً. «أُرْقُصْ عَلى رِجْلِكَ ٱلعَرْجاءِ أوسمان»، وَيَظَلُّ صامِتاً. «صَفِّرْ أوسمان»، وَيَظَلُّ صامِتاً.

«إنّه يُحِبُّها» يَقولُ لَنا ٱبْنُ السَّمْكَرِيِّ، فَتُباغِتُنا كَلِماتُهُ. وَيُضيفُ شارِحاً: «يَدْخُلُ إلى بَيْتِ حَسّو بِحُجَّةِ مُساعَدَةِ ٱبْنِهِ في دُروسِ ٱلحِسابِ، وَيَتَوَدَّدُ إلى ٱبْنَتِه. ٱسْأَلوني، أنا أعْرِف». يا أللَّهُ، كَيْفَ كَبُرَ أوسمان فَجْأَةً؟ أوسمان مِنْ عُمْرِنا، وها نَحْنُ نَبْحَثُ أمامَ بَوّاباتِ قُلوبِنا عَنْ أثَرٍ لِفَتاةٍ، فَلا نَجِدُ شَيْئاً. لَمْ تَقْتَرِبْ أُنْثى بَعْدُ؛ أمّا أوسمان!!! يا أللَّهُ، سَبَقَنا ٱلأَحْمَقُ، سَبَقَتْنا ٱلحَرْبُ الصّامِتَةُ ٱللّامُتَكافِئَةُ بَيْنَ ٱلغَريمَيْنِ: ٱلأعْرَجِ، وَٱبْنِ السَّمْكَرِيِّ.

بِرَغْمِ إعْجابنا بِٱبْنِ السَّمْكَرِيِّ نَأْخُذُ جانِبَ ٱلأعْرَجِ، لكِنْ ما ٱلحيلَةُ؟ الفَتاةُ لا تُحِبُّ ٱلأعْرَجَ. نَقِفُ، وَقِحينَ، أمامَ بابِ مَدْرَسَةِ ٱلبَناتِ، وَنَدْفَعُ بِرِسالَةٍ إلَيْها فَتَرُدُّها إلَيْنا في حَياءٍ. نَتْبَعُها هامِسينَ: «الرِّسالَةُ مِنْ أوسمان»، فَتَلْتَفِتُ هامِسَةً بِدَوْرِها: «فَلْيَأْكُلْ رِسالَتَهُ».

عِنْدَئِذٍ نَتَوَعَّدُها: «سَنَلْحِمُ مُؤَخَّرَةَ ٱبْنِ السَّمْكَرِيِّ بِقَصْديرِهِ».

نَتْرُكُ ٱلفَتاةَ لِحالِها بَعْدَ التَّهْديدِ، مُلْتَفِتينَ حَوْلَنا، كَأَنَّما باغَتَتْنا سُحُبٌ في غَيْرِ أوانِها: «يا لَلسِّرْبِ ٱلجَميلِ»، فَتَياتٌ مِنْ أعْمارِنا، وَفَتَياتٌ أكْبَرُ قَليلاً، أوْ أصْغَرُ. مُذَنَّبٌ ساحِرٌ مِنَ الشُّعورِ السَّوْداءِ وٱلمَراويلِ. مُذَنَّبٌ ٱخْتَرَقَ مَجالاتِ أرْواحِنا فَجْأَةً، وَمَرايا تَطايَرَتْ فَرَأَيْنا صُوَرَنا. يا لَلْهَوْلِ. رَكَضْنا نَشْتَري أمْشاطاً، وَدِهاناتٍ للشَّعْرِ ولِلأَحْذِيَةِ: «فَلْنَكُنْ لائِقينَ بأعْمارِنا بَعْدَ ٱليَوْمِ».

هكَذا بَدَأَتِ الدَّوْرَةُ ٱلمُخْمَلِيَّةُ لِإجّاصاتِ دَمِنا، وَصِرْنا نَقِفُ أمامَ أبْوابِ مَدارِسِ ٱلبَناتِ بِبَناطيلِنا ٱلَّتي نَضَعُ فَوْقَها ٱلفُرُشَ، لَيْلاً، لِتُحافِظَ عَلى طَيّاتِ أناقَتِها، وَبِشُعورِنا ٱلَّتي لا تَقِلُّ ٱلْتِماعاً عَنْ أحْذِيَتِنا. وَرَأَيْنا، لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، كَمْ سَبَقَنا ٱلآخَرونَ: فِتْيانٌ عَلى الدَّرّاجاتِ. فِتْيانٌ بِقُبَّعاتٍ تُرْكِيَّةٍ لِلَفْتِ ٱلأنْظارِ. فِتْيانٌ بِبَناطيلَ

واسِعَةٍ مِنَ ٱلأسْفَلِ، وبِأَحْزِمَةٍ مُرَقَّطَةٍ. فِتْيانٌ في قُمْصانٍ نارِيَّةٍ. فِتْيانٌ بِشُعورٍ مُمَشَّطَةٍ إلى وَراءَ، وَبِسوالِفَ طويلَةٍ. يا أَللّهُ، مِنْ أيْنَ نَأْتي بسَوالِفَ؟ لِحانا لَمْ تَنْبُتْ بَعْدُ، فَلْنَصْنَعِ السَّوالِفَ. وَقَدْ صَنَعْناها بدِهانِ ٱلأحْذِيَةِ الأسْوَدِ. فَكانَتْ تَسيلُ عَلى ذُقونِنا حينَ نَعْرَقُ. وكانَ ٱلفِتْيانُ، هؤلاءِ يَكْتَفونَ مِنْ طَرائِدِهِمْ بِٱبْتِسامَةٍ، أوْ تَلْويحَةٍ سِرِّيَّةٍ. وَقَرَّرْنا أنْ نَكْتَفِيَ، نَحْنُ أيْضاً، بِذلِكَ؛ لكِنْ لَمْ يُلَوِّحْ لَنا أحَدٌ.

«إذاً، عَلَيْنا أنْ نَعْرِضَ مَقْدِراتِنا ٱلخاصَّةَ»، يَقولُها واحِدُنا لِلآخَرِ، ثُمّ يَسْتَدْرِكُ: «ما هِيَ مَقْدِراتُنا ٱلخاصَّةُ؟». لَيْسَتْ لَدَيْنا ـ حَقّاً ـ أيَّةُ مَقْدِرَةٍ مُهَذَّبَةٍ لِلَفْتِ أنْظارِ ٱلفَتَياتِ. سَكاكينُنا ٱلَّتي تَحْتَ ٱلقُمْصانِ؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. مَهارَتُنا في ٱسْتِدْراجِ الدَّجاجِ بِحُبوبِ ٱلعَدَسِ لِسَرِقَتِها؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. أقْنِعَتُنا ٱلمُخيفَةُ ٱلمَصْنوعَةُ مِنَ الكَتّانِ وٱلخَيْشِ؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. سُرْعَتُنا في خَلْعِ ٱلقِطَعِ النُّحاسِيَّةِ مِنَ السَّيّاراتِ لِبَيْعِها؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. حِيَلُنا في ٱلاخْتِباءِ داخِلَ مَراحيضِ السّينَما، في ٱلأوْقاتِ ٱلفاصِلَةِ بَيْنَ عُروضِها؟ لا. لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. شَفَراتُنا ٱلَّتي نَسْرِقُها مِنْ آبائِنا لِنَقْطَعَ بِها حِبالَ عَرَباتِ ٱلبَطّيخِ؟ لا،

لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ. جَساراتُنا بَيْنَ المَقابِرِ لَيْلاً، وإقْلاقُنا لِلْمَوْتى؟ لا، لَيْسَتْ لِلْعَرْضِ.

وَتَعْتَرينا نَوْبَةٌ تَتَفَتَّحُ فيها فَظاظاتُ أرْواحِنا، فَٱلخاسِرُ خاسِرٌ: عَلَيْنا وَعَلَيْهِنَّ إذاً.

نَصْعَدُ فَوْقَ أسْوارِ ٱلمَدارِسِ، في أوْقاتِ ٱسْتِراحَةِ ٱلفَتَياتِ، مالِئينَ جُيوبَنا بحَصىً صَغيرٍ فَنَرْشُقُهُنَّ بِهِ. وإذْ نُفْرِطُ في لَهْوِنا السَّمِجِ يَذْهَبْنَ إلى ناظِراتِهِنَّ، فَتَخْرُجُ النّاظِراتُ إلَيْنا. بَعْضُهُنَّ عَصَبِيّاتٌ، يَصْرُخْنَ: «أوْلادُ شوارِعِ. بِئْسَ التَّرْبيَةُ»، وبَعْضُهُنَّ يُعَنِّفْنَنا في لِينٍ: «أَلَيْسَ لَكُمْ أخَواتٌ؟ ماذا لَوْ رَأَيْتُمَ شُبّاناً يَقْذِفونَ أخَواتِكُم بِٱلحَصى؟ أتَرْضَوْنَ؟»، فَلا نَجِدُ جَواباً، بَلْ نَنْسَلُّ نازِلينَ في خَجَلٍ، وإمّا ٱخْتَفَتِ النّاظِراتُ في مَكاتِبِهِنَّ المُغْلَقَةِ عُدْنا صاعِدينَ. أمّا خارِجَ ٱلأسْوارِ فالطَّيْشُ عَلى غارِبِهِ. فَفي كُلِّ يَوْمٍ نَخْتارُ ضَحِيَّةً واحِدَةً مِنْ بَيْنِ السِّرْبِ، فَنَتْبَعُها حَتّى بَيْتِها: «تَحَنَّني يا حلْوَة». «يسْلم ٱلخَصْرُ». «ٱلبِنْت مِنْ أُمِّها». «حَنانَكَ يا دَلَع». «دلال... أمان»... إلخ. لَقَدْ صِرْنَ، إذا بَدَوْنا في الشّارِعِ، يَنْزِعْنَ، بَعْضُهُنَّ إلى بَعْضٍ، جَماعَةً جَماعَةً. كُلُّ سَبْعِ بَناتٍ يوصِلْنَ واحِدَةً يَكونُ بَيْتُها ٱلأبْعَدَ

بَيْنَهُنَّ، ومِنْ ثَمَّ توصِلُ ٱلبَقِيَّةُ واحِدَةً أُخْرى، وهكَذا. حتّى لا يَتْرُكْنَ لَنا مَجالاً لِلاَسْتِفْرادِ.

لَمْ تَستَهْوِنا فَتاةٌ. ٱلأمرُ مَحْضُ عَبَثٍ بَعْدُ. لكِنَّ أعْماقَنا تَسْتَجْدي نَظْرَةَ إعْجابٍ واحِدَةً فَلا تَجِدُها. يا أللَّهُ: حَرَكاتُنا ٱلبَهْلَوانِيَّةُ هَباءٌ، وَهَباءٌ ثِيابُنا ٱلمَكْوِيَّةُ، وأحْذِيَتُنا ٱلمُلْتَمِعَةُ كَعُيونِنا. يا أللَّهُ: ضِحْكَةٌ أو ٱلْتِفاتَةٌ. لا أكْثَرَ. تَبّاً لَهُنَّ. تَبّاً لهذِهِ التِّلْميذَةِ ٱلخَرْساءِ ٱلَّتي لا يَرْفَعُ سُلُو عَيْنَيْهِ عَنْها. ما ٱلَّذي ٱسْتَهْواهُ فيها؟ جَميلَةٌ مُتَوَرِّدَةٌ، كَأَنَّها خَرَجَتْ مِنْ تُوَيْجٍ أبْيَضَ، لكِنَّها خَرْساءُ!

باتَ سُلُو يَتَخَلَّفُ عَنِ ٱلآخَرينَ، فَالنّاظِرَةُ هِيَ آخِرُ مَنْ يُغادِرُ ٱلمَدْرَسَةَ، وٱلخَرْساءُ ٱبْنَتُها. تَمْضِيانِ مَعاً. جَميلَتَيْنِ، مِلْءُ مِشْيَتِهِما أُبَّهَةُ ٱلمَلِكاتِ. ويَمْضي سُلُو خَلْفَهُما.

وَبَيْتُ النّاظِرَةِ قَريبٌ مِنَ ٱلمَدْرَسَةِ. بَيْتٌ قِرْميدِيٌّ قَديمٌ، يَعْبَقُ برائِحَةِ سُلْطانٍ ما: بَوّابَةٌ خَشَبِيَّةٌ. وَمَمَرٌّ مِنَ الرُّخامِ يَقْطَعُ ٱلحَديقَةَ نِصْفَيْنِ فَيَنْحَني كُلُّ نِصْفٍ بِزَهَراتِهِ لِلدّاخِلينَ. أمّا داخِلُ ٱلبَيْتِ فَلَمْ نَرَهُ، لكِنّ نَغَماتِ ٱلپِيانو تَشي بٱلكَثيرِ.

نَحْنُ لَمْ نَرَ پِيانو إلّا في ٱلأفْلامِ السّينَمائِيَّةِ، وٱلخَرْساءُ

تَمْلِكُ پْيانو. آآه سُلُو. تَقولُ صَديقاتُها إنَّ ٱلخَرْساءَ راقِصَةٌ بارِعَةٌ، وَعازِفَةٌ، وَأَشَدُّ التِّلْميذاتِ ذَكاءً. لا تُجيدُ النُّطْقَ، وتُخاطِبُ ٱلأُخْرَياتِ كِتابَةً. آهِ سُلُو. وَسُلُو لا يُبارِحُ ٱلحَيَّ ذاكَ؛ الحَيَّ الَّذي ٱجْتَمَعَتْ فيهِ بُيوتُ النُّخْبَةِ مِنْ مُوَظَّفي الدَّوْلَةِ. وَكَلَّلَهُ ٱللَّهُ بحَدائِقَ تَهْذي مِنْ فَرْطِ ٱلهَنْدَسَةِ.

غَريبٌ سُلُو، قابِعٌ كِسِلَّوْرٍ بَرِّيٍّ قُرْبَ ٱلأسْوارِ ٱلمُطَرَّزَةِ بِٱللَّبْلابِ، كَأَنَّما أخْطَأَ الطَّريقَ. غَريبٌ كَنَباتِ ٱلأرْضِ ٱلبَعْلِ، تَراهُ ٱلخَرْساءُ، مِراراً، قُبالَ بَوّابَةِ بَيْتِها، حينَ تَخْرُجُ إلى ٱلحَديقَةِ، فَتُشيرُ بِيَدِها في ٱسْتِهْجانٍ: «ماذا تُريدُ؟». حَرَكَةُ يَدٍ تَقولُ لَهُ: «ماذا تُريدُ؟». آهِ سُلُو. ماذا تُريدُ حَقّاً؟، تُغْضي وَقَدِ ٱغْرَوْرَقَتْ عَيْناكَ. حَنينَ أَخْرَسَ إلى أخْرَسَ، وَوَحْدَكَ تُعيدُ تَرْتيبَ ٱلإشاراتِ. ماذا لو أشارَتْ إلَيْكَ: «تَعالَ؟». ماذا لَوْ حَضَنَتْكَ وَقادَتْكَ. عَلى ٱلمَمَرِّ الرُّخامِيِّ، إلى ٱلبَيْتِ، قائِلَةً لِأُمِّها: «هذا بَطَلي؟». سَتَجْلِسُ مَزْهُوّاً بِنَفْسِكَ، وَهِيَ تَعْزِفُ عَلى ٱلبيانو. سَتُدَلِّلُكَ، وَسَيُدَلِّلُكَ أهْلُها. إنْشَقَّ حُلْمُهُم وَخَرَجْتَ أنْتَ، فَريداً بِبَسالَتِكَ وتَعاليكَ، فَريداً بِهُدوئكَ وَرَزانَةِ حَرَكاتِكَ، فَريداً كَأَكْثَرِ ما يَكونُ آدَمِيٌّ. وَسَتُشيرُ إلَيْكَ

صَديقاتُ ٱلخَرْساءِ في إعْجابٍ. وَسَتَكْتُبُ ٱلخَرْساءُ لصَديقاتِها: «هذا لي» كُلَّما سَأَلْنَها. آاه سُلُو. أَفِقْ أيُّها ٱلأَحْمَقُ. هذا بَيْتُ بازر باشي، سَليلِ بَرْقِ ٱلآسِتانَةِ، فَمَنْ تَكونُ أنْتَ؟

ٱليَوْمَ عيدٌ وَطَنِيٌّ، عيدٌ مِنَ ٱلأعْيادِ ٱلمِلْيونِ لِحادِثَةٍ لَمْ يَرْفَعْ فيها أحَدٌ إصْبَعَ ٱحْتِجاجٍ، وَمَعَ ذلِكَ هُوَ عيدٌ. والتَّرْتيباتُ ٱلاَحْتِفاليَّةُ قائِمَةٌ مُنْذُ عَشْرَةِ أيّامٍ. وَلَسَوْفَ تُتَوَّجُ ٱلآنَ.

سينَما حَدّاد قَدَّمتْ صالَتَها مَجّاناً لِلْحَفْلِ. جاءَ خَطيبٌ وَمَضى خَطيبٌ. جاءَتْ وَصْلَةٌ مَسْرَحِيَّةٌ، وَمَضَتْ وَصْلَةٌ مَسْرَحِيَّةٌ. لَمْ نَكُنْ نَرى شَيْئاً، فالزِّحامُ على أَشُدِّهِ، وَمِثْلُنا لا يَجِدُ مُتَّسَعاً لَهُ بَيْنَ ٱلمَناكِبِ ٱلعَريضَةِ، وَبَيْنَ أحْزِمَةِ الشُّرْطَةِ، لكِنَّنا نَسْمَعُ ما يَجْري عَبْرَ مُكَبِّراتِ الصَّوْتِ ذاتِ ٱلخَشْخَشَةِ والصَّفيرِ وَالرَّنينِ ٱلمُتَّصِلِ كَقَرْعِ الصُّنوجِ.

نَتَدافَعُ وَنَتَراجَعُ. نَصْعَدُ ٱلأكْتافَ وَنَسْقُطُ أرْضاً. أمّا سُلُو فَيَدُهُ عَلى قَلْبِهِ.

هَتَفَ ٱلمُكَبِّرُ: «والآنَ نُقَدِّمُ لَكُمْ جُمانَة بازر باشي». يا إلهَ ٱلأَرْضِ. قَفَزَ سُلُو مِنْ فَوْقِ الرُّؤوسِ، وَتَعَلَّقَ بقُضْبانِ بَوّابَةِ السّينَما ٱلخارِجيَّةِ. جَذَبَتْهُ أيْدٍ كَثيرَةٌ حَتّى تَمَزَّقَ قَميصُهُ مِنَ ٱلكَتِفِ، وَلَمْ

يَنْزِلْ. وَها هُوَ يَراها: جُمانَةُ الخَرْساءُ في ثَوْبٍ أبْيَضَ فَضْفاضٍ، تَنْتَقِلُ كَٱلإِوَزَّةِ مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، مُنْحَنِيَةً، مائِلَةً، مَشْدودَةً، قافِزَةً، مومِئَةً، مُبْتَسِمَةً، غاضِبَةً، رَقيقَةً، قاسِيَةً، بَطيئَةً، مُهَرْوِلَةً. وَصَرَخَ سُلُو: «إنَّها لي. إنَّها لي»، وٱلْتَصَقَ أكْثَرَ بٱلقُضْبانِ، تَكادُ عَيْناهُ تَحْتَضِنانِ ٱلحُضورَ، وٱلعِمارَةَ، وٱلخَرْساءَ، وٱلأعْلامَ ٱلوَرَقِيَّةَ، وٱلعيدَ ٱلمِلْيونَ للتَّواريخِ الوَطَنِيَّةِ. «جُماااانة، أنا هُنا».

أيُّ نَفيرٍ هذا؟ أيُّ دُروعٍ هذِهِ ٱلَّتي تَخْتَرِقُها الضَّرَباتُ ٱلعَمْياءُ لِقَلْبِ سُلُو؟. بُمْ... بُمْ... الجِيادُ تَعَضُّ ٱلجِيادَ، وٱلحَدائِقُ تَشُقُّ ٱلحَدائِقَ بِمَحاريثَ مِنَ الرُّخامِ، فَتَتَبَدّى ٱلهُوَّةُ ٱلمُعْتِمَةُ نابِضَةً بِسَراطينِها. «هاتِ سُلَّماً سُلُو. هات ٱلمَنْجَنيقَ، وَالزِّئْبَقَ ٱلمَصْهورَ»، تُتَمْتِمُ أعْماقُهُ؛ وَيَحْتَدِمُ فَيَعْوي: «ٱبْتَعِدوا... إنَّها لي».

لا، لَنْ يَبْتَعِدَ أحَدٌ. سَيَبْقى ٱلمُشاهِدونَ حتّى آخِرِ مِصْباحٍ كَهْرَبائِيٍّ يُطْفَأُ في الصّالَةِ. أمّا مَنْجَنيقاتُ أعْماقِ سُلُو فَما مِنْ رُماةٍ يَدُكُّونَ بِها السّورَ ٱلآدَمِيَّ، بَلْ تَتَدَحْرَجُ مِنْ سُفوحِ نَبْضِهِ، وَتَتَحَطَّمُ في هاوِيَةِ ٱلقَلْبِ.

لَقَدِ ٱنْفَضَّ ٱلجَمْعُ ٱلآنَ، حَتّى باعَةُ بُذورِ ٱلبَطّيخِ وٱليَقْطينِ دَفَعوا عَرَباتِهِمْ أمامَهُمْ، وَمَضَوْا. لَمْ يَبْقَ إلّاك سُلُو، وأنْتَ

تَدْري، سَتَخْرُجُ ٱلخَرْساءُ، بَعْدَ قَليلٍ، تُمْطِرُها أُمُّها مِنْ خَلْفِها بِالثَّناءِ وَٱبْتِساماتِ الرِّضا. سَتَقِفانِ قَليلاً دونَما ٱلْتِفاتٍ إلَيْكَ؛ دونَما ٱلْتِفاتٍ إلى عَيْنَيْكَ ٱلمُحْتَضِنَتَيْنِ أعْشاشَ روحِكَ. وَسَيَأْتي ٱلأبُ في سَيّارَتِهِ السَّوْداءِ، يومِىءُ لَهُما فَتَصْعَدانِ. سَتَلْحَقُ بالسَّيّارَةِ عَشْرَ خُطُواتٍ ثُمَّ تَقِفُ. لكِنَّ عَيْنَيْكَ سَتُكْمِلانِ التَّحْقيقَ كَعُصْفورَيْ نِمْنِمَةٍ، وَسَتَرْتَطِمانِ طَويلاً بالزُّجاجِ في مُحاوَلَةٍ أخيرَةٍ لاَسْتِدْراجِ أحَدٍ إلى ٱلاَلْتِفاتِ... هَيْهاتِ سُلُو. سَيُغْشِيكَ بَرْقُ ٱلآسِتانَةِ، فَٱرْجِعْ أيُّها ٱلأحْمَقُ.

وَرَجَعَ سُلُو، تارِكاً خَلْفَهُ حَيَّ مُوَظَّفي الدَّوْلَةِ، تارِكاً سُيوفَهُ ٱللَّبْلابِيَّةَ، وَبَراعِمَهُ، وَغَماماتِ دَمِهِ. رَجَعَ عَنيفاً مُوحَشاً، يُقابِلُ التَّحِيَّةَ بشَتيمَةٍ، وَيُغادِرُ ٱلبَيْتَ لِأَتْفَهِ سَبَبٍ، فَلا يَعودُ إلّا بَعْدَ أيّامٍ.

في صَيْفِ تِلْكَ السَّنَةِ ٱلَّتي شَهِدَتْ ميلادَ قَلْبِهِ، ٱسْتَأْجَرَ والِدُهُ قِطْعَةَ أرْضٍ مِنَ ٱلبَلَدِيَّةِ، وَصارَ، هو، حارِساً عَلى أكْياسِ القَمْحِ فيها. وحِراسَةُ ٱلأَكْياسِ مِهْنَةٌ مَوْسِمِيَّةٌ، دَرَجَ ٱلكَثيرونَ عَلى ٱمْتِهانِها. فَهِيَ تَدُرُّ ثَرْوَةً أحْياناً، وَتَخْذُلُ في أحايينَ أُخْرى. وٱلمَسْأَلَةُ تَتِمُّ عَلى الوَجْهِ التّالي: يَتَقَدَّمُ شَخْصٌ ما بِطَلَبِ ٱسْتِئْجارِ أرْضٍ مِنْ أراضي ٱلبَلَدِيَّةِ، ٱلَّتي تَقَعُ في ضَواحي

ٱلـمَدينَة، مُقابِلَ رَسْمٍ نَقْدِيٍّ بِحَسَبِ ٱلمِساحَةِ ٱلمُسْتَأْجَرَةِ، وإذْ يَحينُ ٱلحَصادُ، يَبْعَثُ ٱلمُزارِعونَ بمَحاصيلِهم إلى ٱلـمَدينَةِ، في شاحِناتٍ كَبيرَةٍ. وَلِأَنَّ البَيْعَ لا يَتِمُّ في ٱلحالِ، فَهُمْ يَسْتَوْدِعونَها في هذهِ ٱلأراضي مُقابِلَ رَسْمٍ عَنْ كُلِّ كيسٍ، بُغْيَةَ ضَمانِ حِراسَتِها. وَكَذلِكَ يَفْعَلُ التُّجّارُ بَيْنَ الصَّفْقَةِ وَالصَّفقةِ، أيْ أنَّ حُرّاسَ ٱلمُسْتَوْدَعاتِ ٱلمَكْشوفَةِ يَتَقاضَوْنَ أُجوراً طَوالَ ٱلـمَوْسِمِ، كُلَّما أَفْرَغَتْ شاحِنَةٌ حُمولَتَها، وَكُلَّما ٱسْتَعادَتْ شاحِنَةٌ حُمولَتَها، وَمَضَتْ.

كانَتِ ٱلأرْضُ ٱلَّتي ٱسْتَأْجَرَها والِدُ سُلُو، قُرْبَ سورِ ٱلمَدْرَسَةِ الثّانَوِيَّةِ، وَمِنْ جِهَةِ ٱلعَراءِ الـمُطِلِّ عَلى مَقابِرِ السُّرْيانِ، مَلأى بِالشَّوْكِ وَبِجُذوعِ السّوسِ ٱليابِسَةِ الصَّلْبَةِ. وَقَدِ ٱقْتَضى الأمْرُ مِنْهُ، وَمِنْ أخيهِ الأصْغَرِ، ثَلاثَةَ أيّامِ كَدْحاً. يَحْمِلانِ فَأْسَيْهِما وَٱلمِنْكاشَ، وَيَنْكَبّانِ عَلى ٱلأرْضِ قَرْعاً، ونَقْباً، وتَذْرِيَةً، وَنَكْشاً، وَعَزْقاً، حَتّى ٱسْتَوَتِ ٱلأخاديدُ وَٱلأثْلامُ كَصَفْحَةِ دَفْتَرٍ. هكَذا سَتَسْتَقْبِلُ أرْضُهُما أوَّلَ شاحِنَةٍ، وحينَ جاءَتِ الشّاحِنَةُ ٱلأولى بحُمولَتِها، كانَ على سُلُو أنْ يَبْنِيَ بَرّاكِيَّةً، فَنَصَبَ عَمودَيْنِ قُرْبَ سورِ الـمَدْرَسَةِ، وَجَعَلَ السَّقْفَ مِنْ كَرْتونٍ

آلصَّناديقِ، ثُمَّ مَدَّ عَلى آلأرْضِ كيسَيْنِ مِنَ آلخَيْشِ، وَجاءَ بِجَرَّةٍ لِلْماءِ: «جاهِزون».

لَمْ تَكُنْ لَهْواً حِراسَةُ أكْياسِ آلقَمْحِ، آلَّتي تَراكَمَتْ يَوْماً بَعْدَ يَوْمٍ، ثلاثَ طَبَقاتٍ عُلُوّاً. حَتّى آسْتَحالَتِ آلأرْضُ قَلْعَةً ذاتَ أبْراجٍ، وَأَسْوارٍ، وَمَمَرّاتٍ. «المَوْسِمُ خَيْرٌ» قالَ سُلُو لِأَخيهِ، وَأَضافَ: «حَذارِ نِساءَ النَّوَرِ». فَالمُسْتَوْدَعاتُ، تِلْكَ، يَمْتَزِجُ تُرابُها بآلكَثيرِ مِنَ آلحِنْطَةِ آلمُتَسَرِّبَةِ مِنَ آلأكْياسِ آلمَثْقوبَةِ بِفِعْلِ خُطّافاتِ آلعَتّالينَ، والحُرّاسُ يَجْمَعونَها عَنِ آلأرضِ، ثُمَّ يُغَرْبِلونَها فَيَفْصِلونَ التُّرابَ عَنِ آلحُبوبِ، وَلَرُبَّما آجْتَمَعَ لِواحِدِهِمْ خَمْسونَ كيساً آخِرَ الصَّيفِ، وَثَمَنُها لا يُسْتَهانُ بِهِ. «... وَحَذارِ آلحُرّاسَ آلآخَرينَ، آلَّذين يُجاوِرونَنا. فَبَعْضُهُمْ يَسْرِقُ مِنْ بَعْضٍ. لِتَكُنْ عَيْنُكَ عَلى آلجِهَةِ الشِّماليَّةِ، حَيْثُ تُتاخِمُنا مُسْتَوْدَعاتٌ أُخْرى».

أمْرٌ واحِدٌ يُنَغِّصُ عَلى سُلُو حَماسَتَهُ في آلعِراكِ مِنْ أجْلِ آلعَيْشِ، ألا وَهُوَ النَّوْمُ، لَيْلاً، فَوْقَ أكْوامِ آلأكْياسِ، تَحْتَ السَّماءِ آلعارِيَةِ، حَيْثُ تَجْتَذِبُ رائِحَةُ آلخَيْشِ جَحافِلَ آلبَعوضِ الضّاري. يُفيقُ كُلَّ ساعَةٍ. يُفيقُ وَلَوْ تَغَطّى، فَآلخَراطيمُ الصَّغيرةُ

تَثْقُبُ ٱلأغْطِيَةَ. وَسُلُو، عَلى أيٍّ، يَتَناوَبُ ٱلحِراسَةَ مَعَ أخيهِ ٱلأصْغَرِ، وذلِكَ ما يُخَفِّفُ عَنْهُ قليلاً، إلى أنْ شارَكَهُما شَخْصٌ ثالِثٌ، لِشَهْرٍ واحِدٍ، ثُمَّ تَرَكَهُما. وكانَ الشَّريكُ، هذا، نَصّاباً بِحَقٍّ، جاءَهُما عَلى أنَّ لَهُ خِبْرَةَ سِنينَ في هذِهِ ٱلمِهْنَةِ، لكِنَّ خِبْرَتَهُ ٱلحَقيقِيَّةَ كانَتْ في تَفْريغِ حَفَناتٍ مِنْ كُلِّ كيسٍ، حينَ تَكونُ نَوْبَةُ ٱلحِراسَةِ لَهُ، فَيَجْمَعُ في ٱللَّيْلةِ ٱلواحِدَةِ سَعَةَ صَفيحَتَيْنِ مِنْ صَفائِحِ الكازِ، ثُمَّ يَأْتي ٱبْنُهُ بِعَرَبَةِ جَرٍّ فَيَنْقُلُها.

لَمْ يَكْتَشِفْ سُلُو الأَمْرَ. بَلْ أخْبَرَهُ أحَدُ الحُرّاسِ المُجاوِرينَ: «أراقَبْتُمْ شَريكَكُمْ؟»، وَرَدَّ سُلُو: «ما بِهِ»، فَأَرْدَفَ الأوَّلُ: «راقِبوهُ».

تَصَنَّعَ سُلُو أنَّه مَضى إلى ٱلبَيْتِ، بَعْدَ ٱلعِشاءِ، ثُمَّ قَفَلَ راجِعاً، وَكَمَنَ بَيْنَ مَمَرّاتِ الأكْياسِ: «ضَبَطْتُكَ» صَرَخَ سُلُو، وأُسْقِطَ في يَدِ الشَّريكِ فَتَلَعْثَمَ. حاوَلَ أنْ يَعْتَذِرَ فَتَلَعْثَمَ. تَمْتَمَ: «لي أطْفالٌ...» وَتَلَعْثَمَ. جاءَ أبو سُلُو، صَباحاً، وَصَفَعَ الشَّريكَ فَتَطايَرَتْ حَطَّتُهُ.

عَادَ سُلُو وأخوه وَحيدَيْنِ، يَتَقاسَمانِ نَوْباتِ النَّهارِ وٱللَّيْلِ.

كانَ سَيِّئاً حَظُّهُما عَلى أيَّةِ حالٍ، فَقَدِ ٱجْتَمَعَتْ، في

أرْضِهِما، أهْراماتٌ مِنْ أكْياسِ ٱلقَمْحِ، لكنَّها لَمْ تُنْقَلْ. الرِّبْحُ أنْ تُنْقَلَ أكْياسٌ وَيَأْتي غَيْرُها. الرِّبْحُ أنْ تَدومَ حَرَكَةُ ٱلآسْتيداعِ وٱلآسْتِرْجاعِ. فَسِعْرُ حِراسَةِ ٱلكيسِ، عَلى ٱلأرْضِ، هُوَ هُوَ: عَشْرَةُ قُروشٍ، سَواءٌ أبَقِيَ ساعَةً أمْ يَوْماً، أمْ طَوالَ الصَّيْفِ. هذِهِ قاعِدَةٌ وَميثاقٌ.

في آخِرِ الصَّيْفِ بَدَأَ التُّجّارُ يَسْتَرْجِعونَ وَدائِعَهُمْ. فاتَ ٱلأَوانُ عَلى أيِّ ٱسْتيداعٍ جَديدٍ. لكِنَّ الأَكْثَرَ إثارَةً للغَيْظِ أنْ يَتَبَقّى في أرْضِ سُلُو شُحْنَةٌ صَغيرَةٌ لَمْ يَسْتَرِدَّها صاحِبُها. «القاعِدَةُ قاعِدَةٌ. وٱلميثاقُ ميثاقٌ». عَلَيْهِ أنْ يَحْرُسَ هذه الشُّحْنَةَ إلى ما يَشاءُ ٱللَّهُ.

فَتَحَتِ ٱلمَدارِسُ أبْوابَها وَبَقِيَتِ الشُّحْنَةُ. عَيْنٌ عَلى ٱلأكْياسِ، وَعَيْنٌ عَلى طَريقِ ٱلمَدْرَسَةِ. آآآه سُلُو.

جاءَتْ أوَّلُ عاصِفَةٍ خَريفِيَّةٍ مُحَمَّلَةً بالغُبارِ الأحْمَرِ، وبِقَطَراتٍ مِنَ الطّينِ. آآآه سُلُو.

غَطّى سُلُو الشُّحْنَةَ بشادِرٍ كَبيرٍ خِشْيَةَ أنْ تَبْتَلَّ ٱلأكْياسُ، وهِيَ إنِ ٱبْتَلَّتْ أنْتَشَ القَمْحُ في داخِلِها مِنَ الرُّطوبَةِ، وَفَسُدَ... آهِ سُلُو.

لَمْ يَعُدْ يَهُمُّهُ ٱلأمْرُ. إنْتَصَفَ ٱلخَريفُ: «فَلْيَذْهبْ صاحِبُها إلى فَرْجِ أُمِّهِ».

خَرَجَتْ مِنَ ٱلأكْياسِ الرَّطْبَةِ سُوَيْقاتٌ خَضْراءُ. إمْتَدَّتِ السُّوَيْقاتُ مَعَ الشُّهورِ. آهِ سُلُو.

تَشَقَّقَتِ ٱلأكْياسُ في الرَّبيعِ، ثُمَّ ٱخْتَمَرَتِ السَّنابِلُ قَليلاً قَليلاً، وَلَمْ يَأْتِ صاحِبُها. وحينَ جاءَ الصَّيْفُ الثّاني، كانَتْ كُتْلَةٌ مِنَ الذَّهَبِ تَتَوَهَّجُ بَيْنَ ٱلعَراءِ ٱلمُوَشّى بِرِئاتِ الشَّوْكِ، وَلُهاثِ ٱلجُذوعِ الصَّلْبَةِ لِنَباتِ السوسِ.

كانَ سَيِّئاً حَظُّ سُلُو في الصَّيْفِ ٱلَّذي مَضى، وها هو صِهْرُهُ يَعْرِضُ عَلَيْهِ حَظّاً جَديداً هذا الصَّيْفَ: «إشْتَغِلْ مَعي مُعاوِناً في شاحِنَتي»، وقَبِلَ ٱلفَتى. «سَأُعَلِّمُكَ تَصْليحَ ٱلمُحَرِّكاتِ»، وَقَبِلَ ٱلفَتى. «سَأُعَلِّمُكَ قِيادَةَ هذا ٱلغولِ»، وَقَبِلَ ٱلفَتى. «سَأَجْعَلُكَ رَجُلاً»، وَقَبِلَ الفَتى. «سَأَمْتَحِنُ صَبْرَكَ غَداً. إرْتَدِ بِنْطالَكَ ٱلكاكيَّ، وَقَميصَكَ ٱلأسْوَدَ، وَضَعْ عَلى رَأْسِكَ حَطَّةً»، وَقَبِلَ الفتى.

أَيْقَظَهُ في ٱلفَجْرِ بوقٌ شَيْطانِيٌّ. هَبَّ عَلى عَجَلٍ، آرْتَدى ثِيابَهُ وَخَرَجَ. صَعِدَ إلى الشّاحِنَةِ ذاتِ ٱلمُقَدِّمَةِ ٱلعالِيَةِ، وَجَلَسَ

إلى جِوارِ صِهْرِهِ. وَٱلفَجْرُ بارِدٌ عَذْبٌ؛ مَنْ يُصَدِّقُ أنَّ صَباحاً مَصْهوراً كَٱلقارِ يَتَعَقَّبُ أذْيالَهُ؟ الأفْضَلُ أنْ يُصَدِّقَ سُلُو. بَلْ يُصَدِّقُ فِعْلاً، وَيَلْمُسُ الأَمْرَ بِجَبينِهِ. فَٱلعَرَقُ يَنْسابُ خُيوطاً خُيوطاً مِنَ ٱلجِهاتِ كُلِّها، وٱلغِطاءُ الصَّفيحِيُّ لِحُجْرَةِ ٱلقِيادَةِ يَتَلأْلأُ كَٱلحُمّى. وَبَيْنَ ٱلحينِ وَٱلحينِ يَتَطَلَّعُ إِلَيْهِ صِهْرُهُ بِطَرْفِ عَيْنِه مُبْتَسِماً: «لُفَّ حَطَّتَكَ حَوْلَ رَأْسِكَ كَٱلعَمامَةِ لِتَمْتَصَّ ٱلعَرَقَ، وَشَمِّرْ أكْمامَكَ يا بَطَلُ»، ثُمَّ يَضْغَطُ بِراحَتِهِ عَلى قُرْصِ ٱلبوقِ: طووووطط، مُحَذِّراً ٱلهَواءَ، وَأَشْباحَ ٱلبَراري ٱلمُمْتَدَّةَ على جانِبَيِ ٱلإسْفَلْتِ.

عَرَّجَتِ الشّاحِنَةُ، بَعْدَ خمَسينَ كيلو مِتْراً، عَلى مَسالِكَ تُرابِيَّةٍ. تَعْلو وَتَهبِطُ بَيْنَ ٱلأحافيرِ. وَعَلى جانِبَيِ ٱلمَسالِكِ كانَتْ قُرىً صَغيرَةٌ تَدورُ عَلى نَفْسِها حينَ تُحاذيها، ثُمَّ تَغيبُ فَيَلوحُ غَيْرُها. «أَجُعْتَ؟» باغَتَهُ صِهْرُهُ. رَدَّ: «نَعَمْ». وَسادَ الصَّمْتُ بَيْنَهُما مِنْ جَديدٍ، غَيْرَ أنَّ أحْشاءَ سُلُو تَتَمَرَّغُ في تَجْويفِها. تَرْتَجُّ وَتَتَلاطَمُ. نَظَرَ إلى صِهْرِهِ بِحَنَقٍ فَٱبْتَسَمَ صِهْرُهُ، وَضَرَبَهُ عَلى فَخْذِهِ: «تَعِبْتَ يا بَطَل؟ نَحْنُ في أَوَّلِ الطَّريقِ، حينَ نَصِلُ سَنَتَناوَلُ إفْطارَنا». تَمْتَمَ سُلُو: «وَلِماذا لَيْسَ ٱلآنَ؟»، فَرَدَّ الرَّجُلُ

الصَّلْبُ مِنْ تَحْتِ شارِبَيْهِ الأشْقَرَيْنِ: «أخافُ أنْ يَنْتابَكَ ٱلغَثَيانُ مِنَ ٱلآرْتِجاجِ. المَعِدَةُ ٱلفارِغَةُ تَحْتَمِلُ، أمّا ٱلمَلأى فَلا». وَٱبْتَلَعَ سُلُو ريقَهُ عَلى مَضَضٍ.

أخيراً وَصَلا. مِساحاتٌ شاسِعَةٌ، وحَصّاداتٌ ذاتُ مَراوِحَ ضَخْمَةٍ، يَتَطايَرُ ٱلقَشُّ مِنْ مُؤَخَّراتِها ٱلمَفْتوحَةِ كَٱلمَداخِنِ، ورِجالٌ يَمْلَؤونَ ٱلأكْياسَ، وَآخَرونَ يَخيطونَها بِٱلقِنَّبِ. وَهُنا، وَهُناك، رَهْطُ نِساءٍ، يَجْمَعْنَ القَشَّ في حُزَمٍ، وَيَضَعْنَها فَوْقَ ظُهورِ ٱلحَميرِ.

كانَ ثَمَّتَ شاحِنَةٌ أُخْرى تَحْزِمُ حُمولَتَها، وفي ٱنْتِظارِ أنْ يَفْرَغَ ٱلعَتّالونَ مِنْها. نَزَلَ سُلُو وَصِهْرُهُ، حامِلَيْنَ حَبّاتٍ مِنَ ٱلبَنَدورَةِ، وَقُرْصَ جُبْنٍ، ورَغيفَيْ تَنّورٍ. فَرَدا في ظِلِّ شاحِنَتِهِما كيساً فارِغاً، وَجَلَسا يَأْكُلانِ، ثُمّ ٱسْتَلْقَيا لِساعَةٍ أوْ أكْثَرَ.

جاءَ دَوْرُهُما ٱلآنَ. إقْتَرَبَ مِنْهُما ٱلعَتّالونَ وَهَتَفوا: «هَيّا يا شَبابُ»، فَهَتَفَ بِهِ صِهْرُهُ: «إلى ظَهْرِ الشّاحِنَةِ. إصْعَدْ وَصُفَّ ٱلأكْياسَ». وَسُلُو يَعْرِفُ كَيْفَ يَصُفُّ ٱلأكْياسَ. يَصْعَدُ ٱلعَتّالونَ إلى الشّاحِنَةِ عَلى سُلَّمٍ، وَيُلْقونَ بِها كَيْفَما ٱتَّفَقَ، وَعَلَيْهِ ـ هُوَ ـ أنْ يُنَضِّدَها هَنْدَسِيّاً. ٱلأمْرُ شاقٌّ. ٱلأمْرُ

أمْرُ عَضَلٍ وَسُرْعَةٍ. يُسَوّي سُلُو بخُطّافِهِ زاوِيَةَ ٱلكيسِ هذا، وَيُدَحْرِجُ ذاكَ، ثُمَّ يَصْعَدُ فَوْقَ كُلِّ كيسٍ، وَيُنَطْنِطُ راقِصاً لِيُثَبِّتَهُ في مَكانِهِ. وَكُلَّما فَتَرَتْ هِمَّتُهُ قَليلاً، صَرَخَ بِهِ صِهْرُهُ: «سُلُو، لَنْ تُصْبِحَ رَجُلاً، هكَذا. خَيَّبْتَ ظَنّي»، فَيُفيقُ سُلُو: «حا. حو. هووو».

ٱلعَرَقُ في كُلِّ مَكانٍ. عَرَقٌ تَحْتَ ٱلأقْدامِ، وَفَوْقَ السُلَّمِ وَٱلأكْياسِ. عَرَقٌ في شَواريخِ ٱلعَتّالينَ، وفي بِنْطالِ سُلُو وَفَوْقَ قَدَمَيْهِ ٱلعارِيَتَيْنِ. عَرَقٌ يَتَطايَرُ مِنَ ٱلجِباهِ ٱلَّتي يَحْمِلُ أصْحابُها الأكْياسَ، وَمِنَ ٱلجِباهِ ٱلَّتي تَنْحَني فَوْقَ ٱلأكْياسِ. عَرَقٌ يَتَدَحْرَجُ ضاحِكاً، وَيُرَفْرِفُ، أوْ يَنْقَضُّ، وَيطيرُ. عَرَقٌ كَٱلمِهْرَجانِ. خُطَباءُ مِنَ ٱلعَرَقِ، وَحُضورٌ مِنَ ٱلعَرَقِ، وأعْلامٌ مِنَ ٱلعَرَقِ. مَسْرَحٌ وَعِماراتٌ مِنَ ٱلعَرَقِ. حُكوماتٌ وَشَعْبٌ مِنَ ٱلعَرَقِ. لُغاتٌ، وَأَقْلامٌ. وَحُروبٌ، وَدِيَكَةٌ، مِنَ ٱلعَرَقِ. عَرَقٌ يَنْشَقُّ عَنِ ٱلعَرَقِ، وَيَلْهَجُ: «سُبْحانَ اللَّهِ».

«نَعيماً سُلُو» قالَ لَهُ صِهْرُهُ. رَفَعَ سُلُو جَفْنَيْهِ في وَهَنٍ صامِتٍ. لَمْ يَنْتَهِ ٱلأمْرُ بَعْدُ، عَلَيْهِ أنْ يَحْزِمَ ٱلحُمولَةَ، ٱلآنَ، بِحَبْلٍ مَجْدولٍ مِنَ ٱلأسْلاكِ. غَمْغَمَ: «هاتِ ٱلحَبْلَ»، فَرَدَّ صِهْرُهُ: «إسْتَرِحْ قَليلاً».

لَمْ يَنْتَظِرْ سُلُو. فَتَحَ صُنْدوقَ ٱلعِدَّةِ وَأَخْرَجَ الـحَبْلَ الثَّقيلَ: «فَلْنَنْتَهِ». ثُمَّ صَعِدَ إلى سَطْحِ الشّاحِنَةِ. وَعَمَلِيَّةُ ٱلـحَزْمِ مُرْهِقَةٌ بِدَوْرِها. يُمَرِّرُ سُلُو ٱلـحَبْلَ في ٱلـحَلْقاتِ ٱلـحَديدِيَّةِ ٱلـمَرْصوفَةِ حَوْلَ هَيْكَلِ الشّاحِنَةِ، مُتَنَقِّلاً مِنْ جِهَةٍ إلى جِهَةٍ، باذِلاً جُهْدَهُ لِيَكونَ التَّحْزيمُ مَتيناً. وحينَ فَرَغَ مِنَ الأَمْرِ جَلَسَ إلى جِوارِ صِهْرِهِ، وَقَدْ بَلَغَ مِنْهُ التَّعَبُ مَبْلَغَهُ.

إنَّهما يَعودانِ، وَٱلوَقْتُ عَصْرٌ. القُرى ذاتُها تَدورُ عَلى نَفْسِها وَتَغيبُ، وٱلأَرْضُ تَتَماوَجُ تَحْتَ ٱلـحَماوَةِ. نَسِيَ سُلُو جوعَهُ، وَتَذَكَّرَ ٱلغَضَبَ: «تْفو عَلى عُمْرِنا». وإذْ وَصَلا إلى مَحَطَّةِ الـميرا في ٱلـمَدينَةِ، كانَ الـمَغيبُ الصّارِمُ يَجْمَعُ تَحْتَ تاجِهِ خُصُلاتِهِ الشَّقْراءَ.

لَيْسَ عَلَيْهِ أنْ يَفْعَلَ شَيْئاً ٱلآنَ. ٱلعَتّالونَ وَحْدَهُمْ، يَتَوَلَّوْنَ ٱلأَمْرَ، فَيُفْرِغونَ الشّاحِناتِ تَحْتَ سُقوفِ تِلْكَ ٱلـمَحَطَّةِ ٱلَّتي ٱجْتَمَعَتْ فيها قِطاراتٌ مِنْ عَهْدِ ٱلأَتْراكِ. إيهِ مَحَطَّةَ الـميرا. الـمَكانُ مُزْدَحِمٌ لَيْلَ نَهارَ، وَلا بُيوتَ عَلى مَدى فَرْسَخَيْنِ. مَحَطَّةٌ كَٱلـمَدينَةِ، مَسْقوفَةٌ بِٱلكَثيرِ مِنَ الصّاجِ وَٱلـحَديدِ، يَأْتي قِطارٌ ويَمْضي قِطارٌ. قِطاراتٌ مُتْعَبَةٌ ذاتُ أنينٍ، وَتُجّارٌ يَبيعونَ

وَيَشْتَرونَ؛ وَغُرَفٌ مِنَ الطِّينِ لِمُعامَلاتِ ٱلجَمارِكِ، وَأَطْفالٌ يَبيعونَ الطَّوابِعَ ٱلمالِيَّةَ؛ وَميزانٌ أرْضِيٌّ يَزِنُ الشّاحِناتِ ٱلفارِغَةَ وٱلمَلأى؛ وَحُرّاسُ قَمْحٍ؛ ولُصوصٌ يُغَرْبِلونَ التُّرابَ؛ وَعَتّالونَ يَتَشاجَرونَ حيناً، أوْ يَجْلِسونَ في حَلَقاتٍ عَلى أمَلِ رِزْقٍ مُفاجِىءٍ؛ وَدَجاجاتٌ حُكومِيَّةٌ يَمْلِكُها ٱلجُمْرُكِيّونَ وَسائِقو ٱلقِطاراتِ وَمُعاوِنوهُم؛ دَجاجاتٌ تَسْرَحُ وَتَمْرَحُ في أرْضِ ٱلحُبوبِ ٱلوَفيرَةِ؛ دَجاجاتٌ مُوَقَّرَةٌ مُحْتَرَمَةٌ. وَفي ٱلمَحَطَّةِ جِرارٌ كَبيرَةٌ لِلْمِياهِ، مَرْكوزَةٌ عَلى قواعِدَ خَشَبِيَّةٍ، يَشْرَبُ مِنْها النّاسُ، وٱلعَصافيرُ ٱلعَطْشى، وَالدِّيَكَةُ ٱلقادِرَةُ عَلى تَسَلُّقِها. وَثَمَّتَ صَيّادونَ لِلْعصافِيرِ. أيْضاً، بِبنادِقِ الضَّغْطِ ٱلهَوائِيِّ، وَنِزاعاتٌ عَلى أوْلَوِيَّةِ الشَّحْنِ أوِ التَّفْريغِ، وَمُلابَساتٌ تَحُلُّها النُّقودُ ٱلَّتي توضَعُ في أيْدي رِجالِ الميرا خِلْسَةً؛ وَخِرافٌ تُهْدى؛ وبَوالِصُ مُزَوَّرَةٌ؛ وأَخْتامٌ يُغْضي ٱلمُوَظَّفونَ عَنْها؛ وَجُباةٌ يَجْبونَ الضَّرائِبَ عَلى ٱلهَواءِ، والظِّلِّ، وَعَلى تَأَخُّرِ الشّاحِناتِ ـ قَسْراً ـ عَنْ تَفْريغِ حُمولاتِها، وَعَلى النَّهارِ وَٱللَّيْلِ. وَثَمَّتَ لُغاتٌ كُرْدِيَّةٌ، وَعَرَبِيَّةٌ، وَتُرْكِيَّةٌ، وَأشورِيَّةٌ، وَسُرْيانِيَّةٌ، وَمُشْتَقّاتُها.

مَحَطَّةُ المَحَطّاتِ هذِهِ. مَحَطَّةُ الرّوحِ وٱلغَضَبِ... وَسُلُو

جائعٌ لكِنَّ بائِعَ اللَّحْمِ بعجينِ ٱلكَهْلَ يُنْقِذُهُ. بائِعٌ ٱرْتَبَطَتْ صورَتُه بصورَةِ ٱلمَحَطَّةِ. يَحْمِلُ سَلَّةً مَلأى بالرَّقائِقِ الطَّيِّبَةِ، وَكُلَّما فَرَغَتْ عادَ إلى ٱلمَدينَةِ فَمَلأَها، وَقَفَلَ بِسُرْعَةِ ٱلبَرْقِ.

في ٱلفَجْرِ التّالي تَظاهَرَ سُلُو بٱسْتِغْراقِهِ في النَّوْمِ، وَظَلَّ بوقُ الشّاحِنَةِ يُعْوِلُ لِأَكْثَرَ مِنْ رُبْعِ ساعَةٍ خارِجَ سورِ بَيْتِهِ. هَزَّهُ والِدُه فَتَناوَمَ. هَزَّتْهُ أُمُّهُ فَتَناوَمَ. أبْلَغا الصِّهْرَ أنَّ سُلُو مُتْعَبٌ، فَرَدَّ الصِّهْرُ: «لَنْ يُصْبِحَ رَجُلاً»، وَمَضى. ثُمَّ لَمْ يَعُدْ قَطُّ لاَصْطِحابِهِ.

سُلُو رَجُلٌ. سُلُو ٱلَّذي هُو أنا. سلو، سليمو، باقي غزو ـ ٱبْنُ المَلّا بَرَكات هُوَ أنا. الرّجُلُ الصَّغيرُ ٱلهارِبُ، ٱلمُدَقِّقُ المُتَفَحِّصُ في ٱلحِساباتِ الكُبْرى للشِّمالِ، هو أنا. وَسُلُو، أيْ أنا، لَمْ يَعُدْ لَدَيْهِ ما يَفْعَلُهُ غَيْرُ ٱنْتِظارِ مَوْتِ الصّوفي زينو. سَيَموتُ الصّوفي زينو، وَسُلُو يَعْرِفُ ذلِكَ. لَمْ تُنْجِبْ زَوْجَةُ زينو وَلَداً لَهُ، وها هُوَ يَموتُ ميتَتَيْنِ: كُهولَةً وَغَيْظاً. وَغَيْظُهُ غَيْظانِ. واحدٌ عَلى ٱبْنٍ لَمْ يَأْتِ، وَثانٍ عَلى بَقَرَتِهِ ٱلَّتي أَفْلَتَتْ مِنْ زَريبَتِها ذاتَ لَيْلَةٍ، فَظَلَّتْ تَأْكُلُ مِنْ كيسِ النُّخالَةِ حَتّى ٱنْفَجَرَتْ.

كانَ زينو يَتَمَدَّدُ عَلى فِراشِهِ قُبالَ بابِ الزَّريبَةِ، صارِخاً بَيْنَ

ساعَةٍ وَأُخْرى: «ها هُوَ»، وَتُهَدِّىءُ ٱمْرَأَتُهُ مِنْ رَوْعِهِ: «لا أحَدَ هُناكَ، زينو»، فَيُتَمْتِمُ: «بَلْ أراهُ كُلَّما فُتِحَ بابُ الزَّريبَةِ». وَيَسْأَلُهُ الزّائِرونَ: «مَنْ تَرى زينو؟»، فَيَرُدُّ: «الشَّخْصَ ٱلأبْيَضَ ٱلَّذي قَطَعَ رَسَنَ ٱلبَقَرَةِ، وَتَرَكَها تَأْكُلُ النُّخالَةَ لِتَموتَ».

بابُ الزَّريبَةِ مُغْلَقٌ أبَداً، وَعَيْنُ زينو عَلى ٱلبابِ. يَتَقَلَّبُ في فِراشِهِ، وَتَتَقَلَّبُ عَيْناهُ في مِحْجَرَيْهِما. عَيْنانِ مِلْؤُهُما ٱلوَداعُ والتَّشَبُّثُ. وَسُلُو يَأْتيهِ زائِراً كُلَّ يَوْمٍ. لا يَعْرِفُ ما الَّذي شَدَّهُ إلى هذا الرَّجُلِ، لكِنَّهُ يَأْتيهِ كُلَّ يَوْمٍ: «ذَهَبَتِ ٱلحُكومَةُ يا زينو»، ذَهَبَتِ ٱلحُكومَةُ الَّتي حَطَّمَتْ مَدينَةَ ٱلمَلاهي، وَأَتَتْ حُكومَةٌ أُخْرى»، فَيُتَمْتِمُ زينو: «قَلْبي عَلى ٱلعَصْرِ، وَقَلْبُ ٱلعَصْرِ عَلى ٱلحُكومَةِ... آهِ يا بَقَرَةَ ٱلبَقَراتِ». يَقولُ سُلُو: «أَتَذْكُرُ يَوْمَ وَقَفْتَ في وَجْهِ جَكَرْخُوِيْن؟»، وَيَرُدُّ زينو: «أَذْكُرُ. مَنَعْتُ زائِريهِ مِنَ الدُّخولِ إلى بَيْتِهِ. بَناتُهُ كَٱلعاهِراتِ... تْفو». يَقولُ سُلُو: «جَكَرْخُوِيْن شاعِرٌ كُرْدِيٌّ، وَلَهُ مُريدونَ وَأَتْباعٌ»، فَيَرُدُّ زينو: «كُرْدِيٌّ؟ لَنْ أكونَ كُرْدِيّاً إذا كانَ جَكَرْخُوِيْن كُرْدِيّاً. بَيْتٌ كَٱلماخورِ. بنَاتُهُ يُمازِحْنَ ٱلغُرَباءَ، وَيَلْبَسْنَ ثِياباً قَصيرَةً... تْفو».

لَمْ نَفْهَمْ جَكَرْخُوِيْن الشّاعِرَ في ذلِكَ ٱلعُمْرِ، وَلَمْ يَفْهَمْهُ

زينو، وَآباؤُنا ٱلْمُحافِظونَ. لكِنَّ زينو لا يَعْرِفُ ٱلْمُجامَلَةَ قَطُّ، وَلا يَتَجاهَلُ ما لا يُرْضيه. غاضِبٌ أَبَدِيٌّ عَلى زَمَنٍ لا يَتَوَقَّفُ عِنْدَ تُخومِهِ هُوَ. مَضى مُعْظَمُ جيلِهِ، واحِداً وراءَ ٱلآخَرِ، غِضاباً مِثْلَه، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ عَزاءٍ غَيْرَ أَبْنائِهِمْ. أمّا زينو فَيَتَعزّى بِمَوْتِهِمْ: «مَنْ يَمُتْ قَبْلي مِنْ جيلي يَكُنْ عَزائي في ٱلْمَوْتِ، وَمَنْ أمُتْ قَبْلَهُ أكُنْ عَزاءَهُ في ٱلْمَوْتِ». مُصيبٌ زينو في نِصْفِ ما يَقولُ، وَعَيْنُه على بابِ الزَّريبَةِ.

يَسْأَلُهُ سُلُو، في اللَّحظاتِ ٱلَّتي يَصْفو فيها ٱلْكَهْلُ: «مَنْ هُوَ الشَّخْصُ ٱلأبْيَضُ زينو؟»، فَيَرُدُّ زينو حاجِباً فَزَعَ أعْماقِهِ بِسُعالٍ مُتَقَطِّعٍ: «لا أعْرِفُ». «فَلْنَدْخُلْ إلى الزَّريبَةِ، مَعاً» يَقولُ سُلُو، لكِنَّ ٱلْكَهْلَ يَرْفَعُ يَدَهُ ٱلْمُرْتَجِفَةَ إلى صَدْرِهِ: «أتَظُنُّني أخافُ؟ لا. فَلْيَبْقَ هُناكَ. نَحْنَ لا نَعْرِفُ ما سَيَفْعَلُ إذا هَرَبَ. لَرُبَّما أطْلَقَ كُلَّ بَقَرَةٍ، في ٱلْحَيِّ، عَلى أكْياسِ النُّخالَةِ». وَيَسْألُهُ سُلُو مِنْ جَديدٍ: «أَتَظُنُّهُ لا يَسْتَطيعُ ٱلْهَرَبَ؟»، ويَحارُ الكَهْلُ فَلا يَرُدُّ. لا جَوابَ لِسُؤالٍ كَهذا في ٱلْحالِ. الوَقْتُ، وَحْدَهُ، سَيَصوغُه مُتَقَطِّعاً؛ الوَقْتُ ٱلَّذي يَنْثُرُ زَهَراتِه الذّابِلَةَ في جَدْوَلِ زينو. آاه زينو. إنْتَهى كُلُّ شَيْءٍ.

زينو مُمَدَّدٌ في ٱلغُرْفَةِ، وَقُرْبَ رَأْسِهِ أَرْمَلَتُهُ، مُوهَنَةً، يَخْذُلُها ٱلبُكاءُ فَتُتَمْتِمُ في تَوَسُّلٍ: «ماذا رَأَيْتَ يا رَجُلي؟»، وَتَلْتَفِتُ إلى ٱلباكينَ مِنْ حَوْلِها: «صَرَخَ: خَرَجَ ٱلأَبْيَضُ. هَرْوَلْنا إليه. كانَ بابُ الزَّريبَةِ مَفْتوحاً، وَعَيْنا زينو مُسَمَّرتانِ عَلَيْهِ. هَزَزْتُهُ فَلَمْ يَنْطِقْ. تَرَكَني رَجُلي، أَأَهونُ عَلَيْهِ إلى هذا الحَدِّ؟».

شِمالٌ أنْتَ يا شِمالُ، تَرَكْنا لَكَ أنْ تَتَباهى بِنا عَلى مَضَضٍ. كانَتِ ٱلجِهاتُ ٱلأُخْرى قَدِ ٱخْتارَتْ شُعوبَها، فَلَمْ يَرَ - كِلانا - بُدّاً مِنْ عَقْدِ قِرانِ ٱلمُصادَفَةِ.

رَضينا بِكَ، فَٱرْضَ. ألا تَرانا مَرِحينَ تُنيمُنا ٱلحُكوماتُ، وَتوقِظُنا الدِّيَكَةُ؟، وإذْ نَسْتَيْقِظُ تَتَطايَرُ ثِيابُ راقِصاتِ مَدينةِ ٱلمَلاهي، وَتَرْكُضُ دَجاجاتُنا خَلْفَنا في ٱلأَعْيادِ ٱلوَطَنِيَّةِ؟، ألا تَرى ٱلعَتّالينَ وَحاصِداتِ الرَّوْثِ، والفُكاهاتِ ٱلأُخْرى ٱلَّتي نُطْلِقُها في بِلاطِكَ فَتُقَهْقِهُ ٱلأَبَدِيَّةُ؟

راضونَ مَرْضِيّونَ. أُنْظُرْ إلى حِمارِ ٱبْنِ الصّوفي؛ الحِمارِ ٱلَّذي يَأْتي إلى ٱلمَدْرَسَةِ، في ٱلمُناسَباتِ، وَقَدْ كُتِبَتْ عَلى بَطْنِهِ، بِدِهانٍ أبْيَضَ، كَلِمَةُ «اسْتِعْمار». نَفْرَحُ بِهِ، وَيَفْرَحُ

ٱلمُعَلِّمونَ وٱلمُدَراءُ وَٱلقائِمَّقامُ. فَحينَ تَخْرُجُ التَّظاهراتُ الشَّعْبِيَّةُ ٱلمُنَظَّمَةُ بمَرْسومٍ، يَخْرُجُ ٱبْنُ الصّوفيِّ مَحْمود مُرْتَدِياً قَلَنْسُوَةً عَلَيْها نَجْمَةٌ سُداسِيَّةٌ، مُطَرَّزَ ٱلوَجْهِ بِٱلأَصْباغِ كَمُهَرِّجٍ، راكِباً حِمارَه ذاكَ، وَيَسيرُ بَيْنَ الصُّفوفِ فَيَكونُ مَحَطَّ ٱلأَنْظارِ والضَّحِكِ.

أُنْظُرْ إلى مَرْوانَ ذي ٱليَدِ ٱلواحِدَةِ، الَّذي يَقودُ دَرّاجَتَهُ كَأَمْهَرِ مَنْ يَقودُ، وَيُغافِلُ أَكْثَرَ مُراقِبي ٱلمَدْرَسَةِ سَهَراً وَحيطَةً، فَيُدَخِّنُ في ٱلباحَةِ، وفَي غُرْفَةِ الدِّراسَةِ. أُنْظُرْ إِلَيْهِ يَضْرِبُهُ ٱلمُعَلِّمُ ٱلحِزْبِيُّ بِالعَصا، ويَدوسُهُ بِحِذائِهِ، وما يَكادُ يَتْرُكُهُ حَتّى يَنْفِرُ ٱلأَكْتَعُ ضاحِكاً.

راضونَ مَرْضِيّونَ. لكِنَّنا نَنْفَجِرُ بَيْنَ حينٍ وَآخَرَ، لَيْسَ ٱحْتِجاجاً عَلى أحَدٍ، بَلْ لِنُؤَجِّلَ مَجيءَ ميرو: العَتّالونَ يُمَزِّقونَ ٱلعَتّالينَ؛ وَٱلأَقارِبُ يَنْقَسِمون بِفِعْلِ ثَرْثَراتِ نِسائِهِمْ؛ وٱلمُعَلِّمونَ يَنْتَقِمونَ ـ عَبْرَ تَلامِذَتِهِمْ ـ مِنَ ٱلماضي، وَمِنَ ٱلحاضِرِ، وَمِنَ ٱلمُسْتَقْبَلِ؛ والدَّرَكِيّونَ ٱلجَوّالَةُ عَلى خُيولِهِمْ يَنْهَبونَ ٱلقُرى، لِيُعَوِّضوا عَنْ ضَآلَةِ مُرَتَّباتِهِمْ؛ وَٱلمُقامِرونَ يَطْعَنونَ بِٱلمُدى أَشْباهَ ٱلمُقامِرينَ؛ وَالرِّياضِيّونَ يُحاصِرونَ حاراتٍ بِأَكْمَلِها؛ وَٱلعاهِراتُ

ٱلمُرَخَّصاتُ يَسْتَأْجِرْنَ القَبَضاياتِ لِلْمُضارَبَةِ؛ وَسائِقو الشّاحِناتِ يَدْفَعونَ بِالسَّيّاراتِ الصَّغيرَةِ إلى ٱلمَهاوي؛ وٱلمُتَصَوِّفَةُ يَتَحَزَّبونَ لِهذا، أَوْ لِذاكَ، مِمَّنِ ٱخْتَلَفوا عَلى حَرْفِ عِلَّةٍ، أوْ تَفْسيرِ بَدْءِ ٱلآيةِ بِـ«نون»؛ وَٱلبَدْوُ يُطْلِقونَ نِعاجَهُمْ بَيْنَ حُقولِ السَّنابِلِ فَتَتَرُكُها هَشيماً؛ وَٱلآباءُ يَحْتَقِرونَ بَناطيلَ ٱلأبْناءِ؛ وَٱلفَلّاحونَ يَمْسَحونَ مُؤَخَّراتِ بِغالِهِمْ بالنَّشادِرِ فَتَظَلُّ راكِضَةً أمامَ ٱلمَحاريثِ... إلى آخِرِهِ.

كُلُّ شَخْصٍ يُؤَجِّلُ مَجيءَ ميرو عَلى طَريقَتِهِ؛ يُؤَجِّلُ مَجيءَ ٱلأكْباشِ ٱلَّتي سَتَشُقُّ بِقُرونِها ٱلغِشاءَ ٱلأرْضِيَّ، فَتَبينُ، في أكْثَرِ ٱلأماكِنِ ٱلْتِصاقاً بِٱلعِماراتِ، وَٱلأسْواقِ، بَقايا مَمْلَكَةِ الرُّعاةِ ٱلأولى، ذاتِ ٱلأساساتِ ٱلجيرِ، وٱلأحْواضِ النّائِمَةِ كَقُبورٍ مِنْ ذَهَبٍ.

مَنْ تُخومِ الشِّمالِ، إذنْ، تَنْتَظِرُ ٱلأَرْضُ صاعِقَةَ سِحْرِها، وَأَباطِرَةَ ٱلمَلْهاةِ.

بيروت، ١٩٨٠